أوراق السندباد

رواية

سمير عطا الله

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عطا الله، سمير

أوراق السندباد./ سمير عطا الله. - الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٣٨ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٩-٤٧٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- الرحلات ٢- الأدب العربي - لبنان أ- العنوان

ديوي ٤, ٩١٠ ٢٠٠١ /١٤٢٩

رقم الإيداع: ٢٠٠١ /١٤٢٩

ردمك: ٩-٤٧٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع الع

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

إلى رجا الصيداوي
أخاً وصديقاً

FOR

R W S

مدخل

في صيف عام 1993 أبحرت مع عائلتي إلى إيطاليا عبر جزر اليونان. وفي الليالي كنت أقف على ظهر السفينة أتأمل البحر والسماء. فإذا كان الليل مقمراً والسماء صافية زرقاء ومذهبة، فاضت بالعين جماليات الخلق، وإذا كان ليلاً معتماً كالحاً تتحول الجبال والجزر إلى أشباح وأشكال آدمية هائلة الأحجام، أو إلى خيول أو رؤوس، ما تلبث أن تعود فجر اليوم المقبل إلى حقيقتها. جبال وجزر.

أمضينا أربعة أيام قبل الوصول إلى ميناء أنكونا، على الأدرياتيكي. وفي تلك الليالي القليلة بين زرقة المتوسط وعتمه، تساءلت في نفسي، إذا ما كانت إلياذة هوميروس قد ولدت من هذه الترائيات الليلية. كم هو مخيف الظلام وكم هو عبقري. فالنهار واضح، جميل، لا يترك مكاناً أو حرية للمخيلات، أما الظلام فيولّد المخاوف ويغري النفس بالانتصار عليها.

في تلك الرحلة ولدت فكرة «السندباد»، هذا السندباد. فإذا كان السندباد البحري حقاً ـ أو بغير دقة ـ قد بدأ هو أيضاً في ملاحم هوميروس، فلابدّ أن البحر هو الذي أطلق مخيلته في الليالي الوحيدة والعتم الكبير. ففي مثل هذه الليالي يمكن ببساطة رؤية أسماك في حجم الأبقار، وترضع أيضاً. وما الحوت في أي حال؟ وإذا كان السندباد قد بدأ رحلته في المخيلة عند هوميروس فكم من مخيلة بدأت رحلتها عند السندباد العربي الطالع من ليالي بغداد وعصر الرشيد، ألم تكن الحقائق والوقائع في عصر الرشيد في حجم الخيال وأحياناً أوسع وأبعد من المخيلة؟

خريف عام 1993 بدأت عملية البحث من أجل كتاب عن السندباد والمخيلات التي وضعت حكايته، فالآن لن أقرأه بتلك المتعة التي قرأته بها صغيراً، ولن أعود إلى «ألف ليلة وليلة» من أجل السلوى والبهجة التي تبسطها من صفحة إلى صفحة ومن ليلة إلى أخرى ومن حكاية إلى حكاية، بل سأعود إليها باحثاً منقباً، أتوقف عند العثرات والأخطاء والمستحيلات. ما أجمل مخيلات الأطفال!

لكن ماذا يبقى من السندباد إذا جرّدته من أسطورته ومن خيالاته؟

بعد عام أو أكثر من القراءات، توصلت مع نفسي إلى حلّ مرضٍ: أعيد تركيب السندباد في مزيج من ثلاثة: الخيال والتاريخ والجغرافيا، فلا يعود هناك حيّة تأكل الفيل، ولكن تُبنى له سفينة تدعى العنقاء، ولا تعود هناك زوجة يدفن معها، لكنّ في رحلته إلى بلاد الحبشة يخبره وزير النجاشي أن الناس كانت تعبّر عن ولائها للملوك القدماء بالرغبة في أن تدفن معهم.

كل ما فعلت هنا، هو أنني «بررت» وجود السندباد وحاولت أن أضعه في عصره، فظل هو شخصية خيالية، لكنّ التاريخ من حوله عاد تاريخاً، ولم تعد رحلاته مجرد رغبة في السفر مع التجار، بل أصبح لها هدف حقيقي هو جمع الكتب للخليفة، والحقيقة أن ذلك لم يكن دأب الرشيد، بل افتتان ابنه المأمون الذي جمع فيما بعد إحدى أعظم المكتبات في التاريخ، وبقيت في السرد حكاية طائر الرُّخ، الذي دارت حول وجوده أبحاث علمية شملت معظم جهات الأرض، لكنني بسببها اضطررت أن أجعل السندباد يكمل الرحلة إلى جزيرة مدغشقر، حيث تبين للعلماء أن بيضة الرخ كانت في حجم 148 بيضة عادية.

لم تضع حكاية السندباد في ألف ليلة وليلة رجلاً واحداً، والأرجح أن هناك فريقين: واحد استقاها من المخيلات والكتب، وواحد دوّنها وضمّها إلى مغارة السحر والفكر، «ألف ليلة وليلة» التي بدأت هندية بأقل من هذا العدد من الليالي بكثير وأصبحت إيرانية تحت اسم «هزار أفسانة»، أيّ ألف حكاية، ثمّ وصلت إلينا فأضفنا الرقم المفرد الذي نتفاءل به.

صارت «ألف ليلة وليلة» حتى قبل عصر الطباعة كنزاً فريداً من الكنوز: الحكمة والأضحوكة، الخرافة والواقع والخيال، الممكن والمستحيل. وقبل أن يُطبِق المذياع والتلفاز على لياليا كانت هذه الخرافات والقصائد والمنسوبات تملأ أمسيات البشر ومخيّلاتهم، وتحشو الذاكرة بالجماليات والقصص، ويتحدث بها الفقراء والمساكين وأسياد القصور.

كانت روضة الكبار والصغار، تخلط التاريخ على هواها وتنسج حول رجاله الأساطير، تنقل ما تشاء وتغفل ما لا يروق لها، تلحنُ في الشعر وتخطئ في النثر، من دون أن تُدرِك أو أن تستدركَ، وما همَّها، فما هي إلا حكاية تهدهد المخيلات؛ لتخدّرها أو لتطلقها في جنبات الأرض وثنايا التاريخ.

ارتبطت «ألف ليلة وليلة» في الغرب بالعرب برغم أسماء أبطالها الأصليين: شهريار وشقيقه، وشهرزاد وشقيقتها، وترجمت إلى الإنكليزية تحت عنوان «ليالٍ عربية» لإضفاء طابع سحري عليها، والسبب الأساسي، على الأرجح، تلك الفصول المتعلقة بالسندباد وعصر هارون الرشيد؛ إذ بصرف النظر عمّا عناه عصر الرشيد للعرب من فتوحات ومآسٍ، من انتصارات ومذابح، من عز وتفرق، فإنه عنى للغربيين شيئاً واحداً: السحر والثراء، والجواري والعبيد، وقصص الحب والتآمر، وخادم الرشيد الأمين

«مسـرور» الذي ذهب إلى جعفر البرمكـي وقال: مولاي يريد رأسك، فقال البرمكـي: لعلك مخطـئ يا مسرور، تريد القول: إن مـولاي يريدني، فأكد مسرور من جديد: «يريد رأسك». ثمّ فصل الرأس وحمله إلى مولاه.

كانـت حياة الرشيـد قصة من القصص، ويجب أن نقـرأ ألف رواية وروايـة؛ كي نستطيع أن نجمـع «الأبطال» الذين رافقـوا حياته القصيرة. يجب أن نقـرأ «ما كبث» و«هاملت» و«نابليـون» و«يوليوس قيصر» في كتاب واحد ولن نعثر على تلك الدراميات والبطولات والرومانسيات التي اكتظت في قصور الرشيد بين بغداد والرقة: أمٌّ كانت جارية فأصبحت تحكم بغداد يوم كانـت «أغنى مدينة في الأرض» وكان توقيتهـا «توقيت العالم». وزوجة مُفضَّلةٌ، تتأخر في منحه ولي العهد، فيهيم في الزوجات الأخريات، وتمنحه زبيـدة جارية تصبـح هي أم وريثـه الثـاني، والأفضل، المأمـون. وشقيقة آسـرة الشخصية، لا يطيق فراقاً عنها، تصبح هـي مصدر مأساة الدولة العباسية، وديوان ملي ء بالشعراء والمغنين والعطاءات.

رجل ورع يحجّ عاماً بعد آخر، وبطل مقدام يغزو عاماً بعد آخر، وإنسان ضعيـف، يبكي للشعر، يبكي للغنـاء، يبكي للحزن، ويتقدم الباكين في مأتم أمه، الخيزران.

هـذا العصر الذي لم يكمل ربع القرن تلقفتـه شهرزاد؛ كي تنتقي منه الحكايـات لسيّدهـا شهريار الـذي تدّعي أنـه نهم لأعناق النسـاء، لكننا نكتشـف بعد ألف ليلـة أن المسكين نهم لسماع الحكايـات، يفتدي كلّ عنق بحكايـة، وفي هذا العصر المليء بالثراء والسفن، كان لابدَّ من ولادة بحار يجـوب المحيطـات ثمّ يعود إلى بغـداد؛ ليروي ما رأى ومـا سمع من أفراح وأهوال وأفاعٍ تستطيع أن تبتلع الأفيال، هكذا مرة واحدة.

وخـرج إلينا النص السندبادي مزيجاً من مخيلة عظيمة واطّلاع واسع على كتابـات الرحالة والجغرافيين العرب، ولكن بلغـة ركيكة شبه عامية. وبـلا تفاصيـل، فهو مرة في الهند، وأخرى في السنـد، في سرنديب (سري لانـكا)، أو في جـزر القمـار (كمبوديا) لا نعرف كيف وصـل ولا متى عاد. نعرف فقط السفرة الأولى ثم الثانية. فالسابعة. 27 عاماً بين جزر النساء وجـزر الواق واق، وكلّمـا كان يعود إلى بغداد كانت تحـن نفسه إلى البحر والسفر من جديد.

ثمـة طبعات كثيرة لـ«ألف ليلة وليلة»، بكلّ اللغات، بعضها مثمَّن مذهَّبُ الأبحـاث والمقدمات والرسوم، وبعضها تجـاري منسوخ مكرر ورديء. وفي إحـدى الطبعات العربيـة التي زينتها رسـوم الفنان رأفـت بحيري، تقول المقدمة: إن النص العربي كُتب على الأرجح في مصر.

والحقيقـة أنه لا شك في ذلك، فالتعابير العامية المصرية تملأ النص. وهـي تعابـير معاصرة لم تمضِ عليها قـرون طويلة، لكنّ هـذا الرجل (أو الرجال) الذي كتب أسفار السندباد بلغة ركيكة كان في الوقت نفسه قارئاً عارفـاً بأكثر ما كتبه الرحّالة والجغرافيون العرب، فقد أخذ منهم الوقائع (أو ما كان يعتبر حقائق جغرافية حتّى ذلك الوقت) وأضاف إليها الحكاية والمخيلة، أخذ المشاهدات وأضاف إليها المبالغات، قرأ ابن بطوطة وماركو بولـو والمسعودي والطبري (راجـع مقتطفات الفصـل الأخير) وحاك من جميـع الكتابات حكايـات ظلت طوال قرون مسلسـلات ذلك العصر، كأي مخـرج سينمائي ماهر يضع القصة والحوار ويوقـف شهرزاد عن الكلام عنـد لقطة مثيرة فيحبس أنفاس السامعـين والقارئين، كما ظل الحكواتي

يفعل في مقاهي بيروت إلى حين اندلاع حربها الأهلية وإغلاق مقاهيها ومخيلاتها الجميلة.

لم يستخدم التاريخ في «هذا» السندباد إلا كإطار، ولم يؤخذ من سيرة الرشيد وقصر الخلود إلا ما يسعف الرواية، إنه ليس تقييماً، أو إعادة نظر في ذلك العصر، المتعدد الأشخاص على نحو لا سابقة له ولا لاحقة في التاريخ العربي، وعلى سبيل المثال رفض المؤرخ فيليب حتى أن يضم الرشيد إلى كتابه «صانعو التاريخ العربي» بل اختار المأمون إلى جانب عمر ابن الخطاب وعبد الرحمن الأول وصلاح الدين، واختلفت الكتب الأخرى في تقييم الرشيد، عربية وأعجمية، من أحمد أمين إلى عبد الله سانت جون فيلبي، ومن غبرييل أوديسيو إلى أندريه كلوت والدكتور وليم الخازن، فقد ترك الرشيد لكل فريق مأساة أو دراما يتذكرها بحزن إلى الأبد، وترك لكل تاريخ فتوحات لا تنسى، ترك صفقات سياسية مع شارلمان، ومذابح بلا تسوية مع البرامكة، وكنابليون أحب نساء كثيرات ولم تأسره سوى واحدة. ومن هذا العصر ولد السندباد الذي لم يختلف حوله أحد. بعضهم قال: إنه بحري وبعضهم الآخر رأى أنه بري، وفي هذه الرواية صهر للاثنين وضبط للمخيلات وعودة إلى التاريخ ومحاولة للبقاء في متعة المخيلة.

سمير عطا الله

1998

عبد الله محمد البصري

ابن «ذي القلم»

أن أضع سيرتي بنفسي: لقد كان هذا الحل الأخير، فقد كنت طيلة كل هذه السنوات والقرون سلوان الكتاب ويهلوان الآداب، يحملونني في خيالاتهم ويعجنونني في أساطيرهم ويرمون بي إلى حكايات الأطفال في الأمسيات الرتيبة، وإن كان لي من ثأر شخصي، فهو بالتأكيد ذلك الثأر الذي أحمله في قلبي من شهرزاد، سميرة السلطان الظالم شهريار، مع أن الأسفار علمتني ألا أحمل ضغينة في قلبي الصغير؛ لأنها أثقل الأحمال وأعصف الأنواء، إلا أن شهرزاد طالما نقلتني من مكان إلى مكان مثل مغفل لا هم له سوى أن ينام في مركب ويصحو في جزيرة، وكم هدهدت مخيلة شهريار المريضة فدفعت بي إلى الريح أو الأودية وجعلت الأفعى تأكل فيلاً وضخمت طائر الرخ النبيل أضعافاً كثيرة.

وأكثر ما ضقت به أنها أساءت إلى أدبي وجعلتني أبدو مثل بقية الملاّحين ذوي العادات السيئة الذين تشقيهم عزلة البحر ويزعزع أخلاقهم بلوغ اليابسة، ولا أريد أن أحول هذه السيرة إلى ثأر أو دفاع، فمن قرأ منكم اليعقوبي فقد قرأني. ومن قرأ الإصطخري فقد قرأني، ومن قرأ القزويني والمسعودي وابن حوقل وياقوت الحموي، فقد عرفني. فما هم جميعاً سوى مدوِّنين لبعض أسفاري، إلا أن رجلاً عامياً من مصر هو الذي جمع كل المخيلات في رواية واحدة، ولست أُخفيكم أنني أقرأ سرده وأضحك في قرارة نفسي.

وخُيِّل إليَّ أنه كان من النوع الشديد الخوف، ولذا كان كثير المبالغة. وبعض ما روى لم يرد حتى في مخيلتي أنا الذي جعل المحيطات فرسه والخلجان ناقته، وبين شهرزاد والسادة الجغرافيين والمدوِّن العامّي ضاعت الوقائع وطارت الصور وتساقطت التفاصيل الجميلة على الحواشي، لذلك كان لابدَّ لي من أن أعيد كتابة كلّ شيء.

وعندما أرى ذلك ضرورياً أضع بين قوسين ما كتبه السادة الرحالة بأسلوبهم الشيّق، لكن لا، لا بدّ من إعادة كتابة كلّ شيء، أن أعيد نفسي إلى إطاري التاريخي، أن أوضح للناس أنني رجل حقيقي ولست مجرد حيلة يومية في مخيلة شهرزاد، وأنني من البصرة لا من بغداد، وأنني مسلم مؤمن كرّست حياتي لخدمة مولاي الرشيد، من أجله أركب البحر عالياً وأجوب البر خالياً، وما كنت مجرد ثرثرة تطيل ليل السلطان إلى أن يدركه الصباح والتعب، بل إنني رجل عرف سواء السبيل وقام على خدمة الرشيد بكلّ تفانٍ، فأرسلني أطلب العلم حتى في الصين عملاً بقول خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وكم بلغت الصين وطرقت أبواب الهند والسند ومتّعت النفس بجمال الطبيعة في سرنديب، ولست أنسى قول الرشيد وهو يربت على كتفي في رحاب دار السلام:

- تحمّل ما استطعت يا عبد الله حتى تصل إلى سرنديب، أرض أبينا آدم عليه السلام. ما أجمل أنهارك يا مَن قيل: إنك جنة عدن! وما أغزر ألوان الربى في ديارك! هكذا قال سيّدي، وكأنه يمنّي النفس بالسفر.

ولـدت في حـي البزازين، على مقربـة من ميناء العشـار في البصرة. وكان أبـي الملقب «البصـري» لكونه مـن أعيان المدينـة وعلمائها، يعرف أيضاً. بـ«ذي القلم» لما وضع من مؤلفات في العلم والأدب، وقد جنى القليل مـن قلمه ومن علمه، غير أن ما جناه كفله لعيش كريم وحياة هانئة، وكان لي ستّة أشقاء عملوا جميعاً في التجارة، إلا أنا، فقد اختارني أبي أن أكمل سيرته، فكنت أقرأ عليه في النهار وكان يقرأ عليّ في الليل، وكنا نكتب معاً المنسوخـات والمراجـع ونجمع في المعرفـة كلّ ما نلقاه وكلّ مـا نسعى إليه، حتّـى غدا بيـت «ذي القلم» مزاراً للباحثـين والعلماء من أهـل البصرة، يأتيـه أيضاً رجال من بغداد وأحياناً مـن أطراف العراق ومن فارس ومن حواضر الشام.

لم تكن القوافل القادمة إلى البصرة تتوقّف في الليل أو في النهار، فهي ميناء على طريق الحرير وعلى طريق البخور معاً.

«منابتهـا قصـب، وأنهارها عجـب، وسماؤها رطـب، وأرضها ذهب». ومعظـم الوجـوه التي كنت أراهـا في حارة البزازين وأنـا صغير كانت من خـارج المدينـة، وكنـت أعرف ذلك مـن أنهم يتنقلـون بـدون أطفالهم أو عائلاتهم، وكانت بشراتهم متراوحة الألوان ومختلفة المعالم مما يذكّرني بانطباعـي الأولي عـن مكّة المكرّمة يـوم سافرت إلى الحـج فيما بعد، في موكب الرشيد أعزّه الله.

وكان سفـري إلى المدينة المنورة وسعيي إلى رحاب الله أول رحلة طويلة قمـت بها قبل أن يكلفني، أعزه الله، بأن أرفع رايته وأحل رسائله وأتشرف بثقتـه، في بـلاد الهند والسند ومـا اتصل بها من جـزر وجنائن، وما وقع

لي من مخاطر وأهوال، لكنها مشيئة العلي القدير وإرادة سيّدي ومولاي الرشيد بن المهدي الذي أعزنا بالانتصارات وأحاقنا بالذهب ومدّ مملكة الإسلام، مدَّ الله في عمره وأعزّ دار الخلافة وحفظ قرّاء هذه السطور من الأولياء والمؤمنين ورعايا قائد المرشدين.

كانت القوافل تأتينا إلى البصرة وكانت بغداد في ولاية الرشيد، أعزه الله، بوّابة العالم «توقيتها هو توقيت الأرض» كلها، أمّا البصرة فكانت بدورها بوابة مدينة السلام. هنا كانت القوافل ترتاح وتناخ الإبل وتتهيّأ السفن وتمضي المراكب، في رعاية الله، راكبة النهر في مواسم الهدوء والمنسوب المائي العادل؛ خوفاً من الأعاصير والجرف والمعوقات الأخرى التي تحيل دجلة من طريق مائي تصطف على جانبيه الناس؛ لتلقي التحية على البحارة، إلى طوفان مخيف، أصفر اللون، مجنون الاندفاع، ظالم الهدير، يحمل أسفله إلى سطحه، كمثل حَملٍ تحول إلى حوت، أو كمثل وحيد القرن هاجمه قفير وهو في قيلولته، فهاج.

عرفت تقريباً أكثر أهالي البصرة، فقد كان منزلنا إلى جانب المسجد الكبير في المحلّة، جامع الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة، وكانت بيوت البصرة تتلاصق، أو تتجاور، كأنما سطوحها سقف واحد، وقد بنيت من الطوب الأصفر، وخلف كلّ منزل كانت حديقة نخل، أمّا حديقتنا فقد حوّلها الشيخ محمد إلى جنينة فيها الزهر وفيها النبات، وكان كلّما سافر صاحب قافلة إلى الشام أوصاه على صنف جديد من البذور، وكلّما عاد ناخُذَاة من أصدقائه بعد سفر طويل في عباب البحر والليل والمجهول، أوصاه أن يحمل معه بذرة جديدة، وما عاش من هذه البذور وتحمّل

الرحلة والرطوبة والهواء المالح، زرعه في الحديقة، حديقة الشيخ محمد التي صارت مضرب المثل في أنحاء البصرة.

أكاد أقول ـ لولا تواضع الشيخ محمد وتعبّده لربه وعظمة علمه ـ: إنه بلا جدال، البصريّ الأول. فقد كان مرجع الناس في شؤونها وفي علومها. وكان يجد الوقت لكبريات الأيام وصغارها، فلا يتذمر ولا يتعب ولا يعاقب ولا يتأفف، إلا إذا دخل الدار رجل وقت الصلاة، فكان آنئذ فقط يغضب الغضبين: لأن الزائر أغفل فريضته، ولأنه قطع على الشيخ محمد الطريق إلى توسل الرحمة من الرحمن الرحيم، لم يقف في بابنا فقير إلا واساه بشيء أو بصدقة، ولم يعبر عتبتنا ذو شأن إلا وأدركته الرهبة في حضور الشيخ محمد، الذي كان يترك أوقات المغرب لاستقبال من حضر، يجلس بين مسانده ووسائده وقد رفع عمامته قليلاً عن جبينه الضيّق، فبان شيء من وسامته التي كان يقهرها بالغطاء الداكن؛ خوفاً من وساوس الشيطان. وكان يردد لزائريه دوماً ويحذّرنا أبداً من أن الغرور أحد أشكال إبليس، والكبرياء من بناته، وهي الأكثر بشاعة.

لم يكن يخطر لي أنني سأغادر يوماً حي البزازين وهذه الحياة العميقة الهانئة إلى جانب الشيخ محمد، ونادراً ما تركت البيت حتّى عندما كنت صغيراً، لا هم لي سوى اللهو مع الأتراب، وما كان ذلك لهواً مثل لهو بقية الصغار الذين ملؤوا الحي بشقاواتهم، بل كنت أخرج دوماً مع صديق أو اثنين إلى النهر، فنسبح حتى نتعب ونراقب الأشرعة العابرة ونلقي التحية على البحارة، وبعد ذلك كنّا نجلس على حافة النهر ويروح كلٌّ منّا يروي أحلامه بالسفر ويتخيل البلاد البعيدة والأطايب وحوريات البحار، غير أنني في نهاية كلّ حلم كنت أحرص على أن أعود إلى جوار الشيخ محمد.

فقد كان في حضوره من الغنى، ما ليس في أيّ سفر ولا في أيّ بحار أو ديار، ثمّ إننا كنّا نخاف الابتعاد كثيراً عن ضفاف النهر، إذ كانت تملؤها الوحوش المفترسة من كل الأنواع، وكان البحارة يروون حكايات عن الصيد لا نهاية لها، وكانت هناك أيضاً المخلوقات النبيلة كالأسود والنمور والفهود.

لم أكن أدري، وأنا أروي تخيلاتي على ضفّة دجلة، أن الشيخ محمد هو الذي سيختار لي أن أسافر نصف العمر ضارباً في نصف المعمورة. فقد كنّا نتوقّع أيّ شيء وكل أنوع الزائرين في دارة الشيخ محمد، إلا ذلك الزائر الذي هزّ مجيئه البصرة كلها ضحى ذات يوم من جمادى الأولى. فقد كنت أنا والشيخ محمد نقرأ في ظلال الحديقة بعضاً من السور الكريمة، حين سمعنا في الشارع ضجيجاً غريباً وصهيل خيول وصوت عربات تتوقف. ولم يخرج الشيخ محمد عن وقاره، لكنه أبدى شيئاً من القلق وهو يقوم لمعرفة ما يجري، وما إن فتح البوّابة الكبرى حتى رأى جماعة من جند سيّدي ومولاي الرشيد، أعزّه الله، وقد ضاق بهم الشارع وبعرباتهم حتّى راحت الخيل تتململ تحت سروجها من الانحباس، ثمّ تقدّم شاب طويل القامة وسيم الملامح، منفرج الجبين، وقال للشيخ محمد محيِّياً في نطق جليل الوقع:

ـ لابدَّ أنك محمد أبو عبد الله البصري.

ولم ينتظر جواب والدي، بل أشار بيده اليسرى للجند أن يتفرّقوا، ولفّ عباءته حوله ودخل وهو يكمل بلا تكلّف:

ـ لكُم سمعةٌ طيبة كالبخور يا أبا عبد الله، ولو لم يرسلني الرشيد إليك لكنت قصدتك بنفسي، على أي حال، لقد ملأت أخبارك بغداد.

ولا يعقد مجلس للرشيد إلا ويقوم من يحدثه بعلمك ومعارفك ومداركك.

كان والدي يصغي في سرور واضح، ولكن أيضاً في شيء من التساؤل. فمن هذا الرجل الذي يتحدّث عن سيّدي أمير المؤمنين من دون ما يجب من ألقاب تسبق وتمّنيات تلحق، وماذا يحمل إلى البصرة وماذا يريد من عبد الإله والد عبد الله؟ لكنّ التساؤل لم يطل، فما إن جلس الرجل وجلسنا حتّى دخل من الباب مرافقون ثلاثة قال أحدهم:

ـ سيدي البرمكي، لقد تمّ ترتيب كلّ شيء وأُنجزت أصول إقامة مولاي وصحبه عشرة أيّام كاملة!

نظرت إلى الشيخ محمد فرأيت ملامحه تفصح عن نفسها للمرة الأولى، فلا يقدر على ضبطها. وقد اختلطت بين الدهشة والقلق والاعتزاز. وفيما طلب من أشقائي إعداد الشراب والتين المجفف والزبيب وجوز الهند، احتفاءً بالضيف المفاجئ، راح يترقّب أن يفصح وزير الرشيد، ولو قليلاً عن سبب زيارته. إلا أن البرمكي مضى يُحدّث في عدل الرشيد وعظمة حكمه وحكمته. وقال: إن سيدي أمير المؤمنين سوف يبسط شأن الإسلام في الأرض ما استطاع، ولا غالب إلا الله، وروى للشيخ محمد أن موفداً من ملك الروم جاء بغداد قبل قليل، طالباً التعاون، عارضاً الصلح، محيّياً مُلك الرشيد العظيم وعظيم صولجانه، وقد وعده الرشيد بالتفكر في الأمر وحمّله الجواهر والهدايا وأعطاه سبع مهرات بيض يأخذها إلى مَلِكه، وسبعة أقراط من الماس، وسبعين سجادة مشغولة في آذربيجان.

ثـم توقَّف فجأة عن الحديـث في القضايا العامة وقال وهو يشرب شيئاً مـن شراب الرمّان، الذي كان والدي يخبئه لكبـار الضيوف؛ لأنه لا يأتينا إلا من الطائف:

ـ يـا صديقنا الشيخ محمد، أنا هنا في البصرة لتفقّد أحوالها والتأكّد مـن حُسْنِ أمورها، وقـد كلّفني الرشيد مولاي في أمر خاصّ لديك، فهـو يريد إنشـاء مكتبة لدار السـلام تجمع كلّ كتـب الأرض، فلا يكون للعلم صرح كما لبغداد، ولا يكون للمعرفة مرجع كما لعاصمة الخليفـة مولاي، وقـد قيل له: أن لا خبرة مثل خبرتك ولا دراية مثل درايتك، فهو يريدك لهذه المهمّة.

تحـدث الشيخ محمد للمرة الأولى منذ وصول ضيفه المفاجىء. قال ـ وإن كنت لا أذكر حرفية الكلام ـ:

ـ يا سيّدي البرمكي، شرفتم الديـار وأكرمتم هذا البيت أعزّكم الله، ونصر سيّدي أمير المؤمنين، ومذ سمعت صهيل خيولكم في الخارج قلت في نفسي: النبلاء تسبقهم علامات الأشراف وأصوات الخير، فأهـلاً برجـل سمعنا بأخباره ولم نـرَه، فإذا الرؤيـة في مثل حُسن السمعـة، وكـم يشرّفني يا سيّـدي، تكليف الخليفة أمـير المؤمنين، لكنني هنا مع سبعة أولاد وأمهم وتلامذتي الكُثُر وأعواني الكثيرون. ثـمّ إن العمر بلغ ما بلغ، فقد جاوزت، بنعمة الله، الخمسين بيضعة أشهر، وما زلت بنعمته تعالى أتوق إلى المعرفة، لكنني لم أعد قادراً على مشاقّ السفر ومتاعب الغربة وليالي البحر والبرّ، وسوف أمثل بـين يدي سيّدي أمير المؤمنـين؛ لأبلغه ما أنا فيـه وأرفع إليه أمري وأقدّم له ولائي وطاعتي.

قال البرمكي:

لم نأت إلى هنا يا أبا عبد الله، لنزيد من متاعبك، وما عليك من أمير المؤمنين، فأنا أرفع إليه عذرك.

وقام سريعاً في أناقة ووقار، فوقف الذين حوله وتقدّمه بعضهم يفتح له الطريق، وحاول والدي بصعوبة أن يلحق به، وتعثّر جميع الحضور في الرهبة التي يتركها البرمكي وهو يأخذ طريقه في كِبَرِ رفاق الملوك، وقبل أن يبلغ الباب ويمدّ يده لوداع الشيخ محمد، استجمع والدي شيئاً من جرأته التي خطفتها المفاجأة، وبدا وكأنه يقف قليلاً في وجه البرمكي، وقال:

ـ أنت تعرف مكانتك ومكانة الرفعة الملكية، وكم كنت أتمنّى لو كنت أكثر شباباً بقليل، ولقد دخلت هذا البيت أيها البرمكي، مُكلَّفاً ومشرفاً ولن تخرج منه باعتذار، فما رأيك لو حل مكاني في المهمة ابني البكر عبد الله، فهو شابٌ في العشرين يملك كلّ فتوّته وشيئاً كثيراً من العلم، ومنذ أشهر طويلة وهو يحدثني عن رحلة في البحر الشرقي الكبير يحلم بها مذ قرأ «عجائب الهند»! وقاطعه البرمكي:

ـ وهل يعرف شيئاً عن الملاحة غير أحلامه؟

قال الشيخ محمد:

ـ له إلمام بكلّ شيء، واطلاع كبير على علم البلدان: وقد قرأت عليه وعلمته الكثير، أمّا في الملاحة يا سيّدي البرمكي، فلا يعرف سوى السباحة في النهر، وضحك الشيخ محمد ضحكة نادرة. فالسخرية لم تكن في حسابه. لكنّ السجع أعجبه فأضحكه:

ولم يضيِّع البرمكي وقتاً. انحنى ليخرج من الباب مخاطباً الشيخ محمد ومشيراً إليَّ: ـ لا شكّ أن هذا هو عبد الله، فليودّع أمه ويعدّ نفسه ويجئنا إلى بغداد، وحين يصل سوف يجد من يرافقه إلى قصر الرشيد، توكل على الله أيها الشيخ، واترك ابنك في رعايته وفي عطف الرشيد، إنه لا يخذل مؤمناً.

خرج جميع الرجال في حيّ البزازين من بيوتهم إلى الشارع يسترقون نظرة إلى البرمكي وموكبه، وكانت المدينة كلّها قد تناقلت خبر زيارته. وتجمّع الرجال وأصحاب الحوانيت والتجّار وباعة الفضة في حلقات يتساءلون عما يمكن أن يحمل وزير الرشيد إلى منزل الشيخ محمد، وظنّ كثيرون أنه سيعرض عليه منصباً بين علماء البلاط، فقد كان العلماء في بلاط مولاي، أعزّه الله، لا يقبلون البقاء في القصر العامر لكثرة ما يحيكون لبعضهم من مكائد ودسائس ومؤامرات، ومع أن الخليفة، حفظه الله وسدَّد خطاه و أعزّ مُلكَهُ، كان يعرف حقيقة كلّ شيء في البلاد ويدرك الكيد في طباع العباد، فقد كان يقع أحياناً في وشاية أو رشّة من السمّ الناقع، فيصدق ما يقوله الشعراء وما ينسجه السادة العلماء في تقييم بعضهم بعضاً، وهكذا صار «القصر المدوّر» يتّسع لكل المعاونين ويضيق بالمستشارين.

هل خطر للبرمكي أن الشيخ محمد كان يخشى مصير غيره من العلماء المحسودين حين اعتذر؟ خشيت ذلك للحظة، لكننا كنّا نعرف جميعاً طيبة الوزير وحسن طويّته، وكان رجلاً لا يغضب وإذا غضب عفا.

لم أنم تلك الليلة، ولا أعتقد أن أحداً في البيت قد نام، وعندما جلسنا ذلك المساء حول أميّ والشيخ محمد، كان كل منّا يختلف عن الآخر: واحد

يشعـر بالفـرح؛ لأن العائلة ستصبح في عطف الخليفـة ومكرماته، وواحد يخشـى عليّ مـن السفر في البحـار العالية والليل الجهـول ومفاجآت البرّ وعاديات الزمان والعيون الحاسدة والقلوب الحاقدة.

ربما كان أخـي الأصغر عبد الرحمن هو الوحيد الـذي أطربته الفكرة من دون أيّ حسابات أخرى. فقد فكر في الهدايا التي سأحملها إليه، وكان يطالب منذ رمضان الماضي بعباءة مذهبة، إلا أن والدي كان يطيّب خاطره كل مرّة قائلاً: إنه سيشتريها له حين يسافر صديق لنا إلى دمشق. وها هو شقيقه الآن سوف يسافر إلى بغداد ومنها إلى أين؟ حتماً إلى دمشق لشراء عباءة له.

حين نتجمع كل مساء في حديقة الدار يتولّى الكلام عادة الشيخ محمد. وهـو يظلّ يتحدث في الليـالي المقمرة إلى أن ينقلب القمـر، أمّا في الليالي الأخـرى فيجالسنا قنديـل زجاجي يعلقه الشيخ محمـد إلى جانبه، وحين يبدأ زيته في النضوب نعرف أنه قد حان ختام السهرة بقراءة آيات بينات، ثـم نقـوم إلى النوم، في ثلاث غـرف، واحدة لأمي، وثانيـة للشيخ محمد، وثالثة لنا جميعاً.

تلـك الليلـة لم يكن المتحدث الشيـخ محمد، فقد أحسّ فجـأة بأن ابنه البكـر سوف يغادر في رحلة طويلـة، وبدا وكأنه يحاول إخفـاء كآبته خلف وقـاره، أمّـا والدتي فهي التي، على غير عادة، تحدثت طيلة السهرة، وقد أطال القمـر مقامه فوق الحديقة وحيّ البزازين، وكنّـا نسمع أيضاً حداءً وغناءً من الحديقة المجاورة كأنهم في حفل، قالت لي والدتي، والجميع من حولها صامتون:

ـ إنه، يا بنيّ، حُسن الطالع وهي ابتهالات أمّك للعلي القدير وتقوى الشيخ محمد، من هم في عمرك يبحثون عن عمل في السوق أو في الميناء وأنت تبدأ حياتك في خدمة الرشيد، نصره الله، فلا تقلل من حُسن طالعك ولا تغامر به أيضاً، فالحظ يا بنيّ، إدارة، والتقتير مثل التبذير: في الأول، يعيش المال ولا يعيش صاحبه، وفي الثاني يعيش صاحبه ولا يعيش المال، وتشريف الملوك يا بني، يثير حسد الرعية، حاول أن ترضي الملك، فهو يرضى بالقليل؛ لأنه يعيش في الكثير ولا تحاول أن ترضي الحاشية، إذ لا شيء يرضيها عنك. واحفظ كرامتك؛ لأنه لا يحفظها غيرك، واضبط مشاعرك؛ لأن ظهورها يضعفك ويقوّي غيرك، واحفظ آدابك؛ لأنها حمايتك. واحفظ يا بنيّ، إيمانك؛ لأن السقوط في التجربة هلاك، وتصدّق ما استطعت فالصدقة مساعدة للمحتاج ومرضاة للنفس ومطهّرة للكبرياء، واطلب العلم كما أمر رسول الله، وحاول معاشرة العلماء فإن معرفتهم وفيرة، وعد إلينا يا عبد الله، كلما استطعت فإن بين أضلاعي حنايا الأمّ، وفي قلب الشيخ محمد مكان وسيع لك، فأنت بكره وتلميذه وقرّة عينه. وأنت قلم «ذي القلم» فسوف تتغير حياتنا من بعدك، فاجعل شوقنا إليك كافتخارنا بك واكتب لنا مع القوافل. أو أرسل لنا الرسائل في بريد الرشيد، نصره الله، فلابدّ أن تتقرّب من وزير البريد لديه.

كان الشيخ محمد يجلس، كالعادة، فوق مقعده المرتفع وأمّ عبد الله راكعة عند قدميه تقدّم له الشراب، وأحياناً تقبّل يده حين يمدّها لأخذ

الكـوب، ومـا إن انتهيت من كلامها حتّى جمـع الشيخ محمد نفسه ووقف، وقـد أطبق عليه التأثر، قبّلني على جبيني ومضى إلى مخدعه، وقالت أميّ بلهجتها الآمرة:

ـ هيّا.

مثل حسام ممتشق

وصلت مشارف بغداد في أيلول (سبتمبر) عام 787 م، ولم أكن أدري أبداً أن المدينة تحتفل بمرور عام تماماً على تولّي سيّدي أمير المؤمنين شؤون الخلافة ومبايعته من جميع الشعوب خليفة في الخلفاء، وكانت الجموع تسدّ الطرقات إلى «قصر الخلود» والمآدب تقام سخيّة في جميع الخيام، واختلط البشر بالإبل وملأت الخيل الساحات التي وسّعت ورصّعت خصيصاً، وجاء الناس من جميع الأنحاء، والموفدون من جميع الملوك وقد حملوا الهدايا، جميعاً، إلى سيّدي أمير المؤمنين أعزّه الله. وقد تشمّمت الفرح وأنا أشقّ طريقي إلى «قصر الخلود» وكأن الفرح عطر، فقد كان، نصره الله، يريد لرعيته، قبل أيّ شيء، السرور والحبور، والرعيّة كانت تريد له أن يطول حكمه ويمتدّ عمره وينبسط عدله في المعمورة وفي أمّة الإسلام التي بسط مداها في الأرض.

مشيت نحو ثلاث ساعات بين الصفوف المتراصّة قبل أن أصل إلى جوار القصر المطل على دجلة، كما تطل الشمس في البصرة على السهول المغمورة بالمياه، وعلى الفور توجّهت إلى مقرّ رئيس الشرطة القائم أمام القصر، من ناحية الشمال. لكن كيف لي أن أدخل والعسكر بثيابهم الزاهية يروحون ويجيئون وقوّادهم يهتفون بكلام لا أفهمه والناس معجبة تصفّق، مبهورة، تصمت، وسعيدة تدعو لسيّدي أمير المؤمنين أعزّه الله، ووقفت بدوري مدهوشاً أمام هذا العرض العسكري ورحت أتأمل السيوف التي لم أرها

من قبل وبزّات العسكر وملامحهم القوية، وكانوا جميعاً طوال القامات وأكثرهم ذوو سحنة سمراء، وبعضهم في سحنة أهل إفريقيا ومعالمهم.

أخيراً جمعت جرأتي وتقدّمت، فاستوقفني رجلان من الحرس، سألني أحدهما من أنا؟ وماذا يحملني إلى قصر الخلود؟ فمددت يدي إلى قميصي وأخرجت كتاب البرمكي وتوصيته، فتراجع الرجلان باحترام، وقادني أحدهما في رواق طويل إلى قاعة فسيحة كان يجلس فيها بعض القضاة ورئيس الشرطة عبد الله بن مالك ووزير البريد، وقال الحارس وهو يقدّمني:

ـ أوامر سيّدي البرمكي، إن هذا الشاب المدعو عبد الله حسن البصري قادم إلى ديوان سيّدنا أمير المؤمنين، نصره الله؛ ليوكل إليه عملاً ومهمّة.

أشار رئيس الشرطة بحركة خفية أن يتركني ويذهب، وقفت في تلك القاعة الرخامية متجمّد العقل والفعل، فما أنا إلا على بعد خطوات من مقام مولاي ومجلسه السعيد، وها أنا بين عليّة القوم وكبار المستشارين وأهل السطوة والسلطة والعلم، وساد القاعة الوسيعة صمت كليّ، وشعرت أنني أسمع نسمات أيلول تدخل من النوافذ، ومن دون أن أجرؤ على التطلّع حولي أدركت أن جدران القاعة كلّها زينت بالآيات البيّنات، مرّت دقيقة أو دقيقتان أو دهران قبل أن يقول أحد العلماء من طرف المجلس:

ـ إذن، أنت بكر الشيخ محمد! على ماذا هو منكبٌّ الآن؟

والتفتُّ نحو مصدر الصوت، وأجبت في نبرة واثقة:

ـ كان يا سيّدي، بصدد وضع تاريخ بسيط للبصرة، وقد أنجز قبل مدة قصيرة فقط كتابه «الثقاة في مناقشة النحاة».

سمعت همهمة الإعجاب حول القاعة، ثمّ تكلّم رئيس الشرطة نفسه. وقال في لهجة خالية من أيّ تعبير يدل على طباعه:

ـ اذهب الآن يا عبد الله، إلى حجرتك ورتّب أمورك وغداً تتشرف بمقابلة سيّدي ومولاي، أمير المؤمنين. وردّ الجميع خلفه: أعزّه الله، أعزّه الله، أعزّ الله سيّدي الخليفة.

شعرت كأن عينيه السوداوين تنقضّان على ما حوله كعيني نسر ضلّ طريقه في السماء ووجدها على الأرض، وحين دخلت مجلسه، يتقدّمني وزير البريد، كان يتمشّى في القاعة رافعاً رأسه مثل مهر أسمر، وكان يمسك حاشيتَيْ عباءته بيديه ليرفعها عن الأرض، لكنّ طرفها ظلّ ينسحب خلفه كغمامة صغيرة تتبع الكبرى، وكان مسحوباً مثل حسام ممتشق، وكانت لحيته الصغيرة سوداء، شابّة تزيد في وسامته، وإنك لتظنّه يرتفع قليلاً فوق الأرض، لا يمشي، واحتشد المكان برجال لم أكن أعرف أحداً منهم، لكنني لمحت البرمكي من بعيد، فأشار بحركة من وجهه أنه عرفني، وأدخل ذلك في قلبي شيئاً من الاطمئنان، وتوزّع القضاة والعلماء وقادة الجند وشاعر أو اثنان، ربّما كان أحدهما أبو العتاهية كما قيل فيما بعد؛ لأنه كان دائم الحضور في مجلس سيّدي ومولاي، يتظرف نباهته وطرافته.

وإذ توقّف سيّدي أمير المؤمنين قليلاً، تقدّم منه رئيس الشرطة وهمس في أذنه: فالتفت مولاي صوبي باسماً ابتسامة ستظل تبعث السعادة في قلبي ما حييت، ثمّ قال في صوت أبح ولهجة واضحة:

ـ هل أتعبتك الطريق يا عبد الله؟

قلت: يا سيّدي ومولاي، أعزّك الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وخاتمة أنبيائه، ما أتعبتني الطريق إليك يا مولاي، بل أتعبني تشوّقي إلى التشرّف بأعتابكم.

ابتسم في رضى واضح، وبدلاً من أن يذهب إلى متّكئه اتخذ متّكأً جانبياً وطلب مني أن أتربّع إلى جانبه، وظلّ الباقون في شؤونهم لا يغرّهم فضول، وكان معظمهم في الثلاثين تقريباً أو أكثر بقليل، أمّا سيّدي ومولاي فقد كان في الرابعة والعشرين، يجرّ خلفه الأمجاد والبطولات ويبعث ذكره الخوف في أقاصي الأرض والاعتزاز في ديار المسلمين، بعد فتوحاته التي بلغت أواسط آسيا.

دخل صفّ من الغلمان الطوال القامات النحيلي الأجسام ومعهم أوانٍ فيها بخور محروق، وحمل بعضهم جراراً فيها طيب، ثمّ تبعهم غلمان آخرون يحملون قفافاً من التين والتمور والزبيب والفستق التي كانت تأتي إلى القصر من فارس، وكان جميع الغلمان شقر الوجوه حسان الملامح قدموا جميعاً من بلاد السلافيين، وقد زُيِّنت شعورهم على نمط واحد وقصرت حتّى بانت أعناقهم، وقيل ـ لكنني لم أتأكّد من ذلك بنفسي ـ: إن الزوجات في محيط «قصر الخلود» ونساء رجال الحاشية وقادة الجند عمدن إلى قص شعورهنّ إلى ما فوق العنق، غيرةً من حسن الغلمان الذين انتشروا في القصور وفي الدور العالية وانتشر حولهم همس كثير.

قال لي الرشيد، نصره الله:

ـ اسمع يا عبد الله، البلاط العظيم بحاجة إلى مكتبة عظيمة. وحتى قبل أن يصير المُلكُ إليَّ كنت أحلم بأن أنشئ على ضفاف دجلة

أكبر مكتبات البلدان والعمران، وسوف تكون المكتبة أهمّ من مجلس الخليفة عندما نبني قصر الرقة، ومن أجل ذلك أحضرت مهندسين من مصر، وبنّائين من مرّاكش والقيروان، ونحّاتين من بلاد الروم. وسوف يكون في المكتبة من كل علم مخطوطات ومن كلّ بلد آثار ومن كلّ الورّاقين في العالم عمل، وفي سبيل ذلك لا وفر ولا حساب. فقد خصصنا لك ما تشاء من المال وما يلزم من الرجال وما يقتضي من المؤن، وسوف يكون لك المركب الذي تشاء ومعك الملاّحون الماهرون والبحّارة الأشدّاء، فهيّىء نفسك للسفر حتّى تصل بلاداً لم يصلها أحد، وتبلغ أرضاً لم يبلغها التجّار والقوافل من قبل، وكلّما اشتقت إلى أهلك تعود إلينا وإليهم وتضع أحمالك هنا ونزوّدك بمال جديد، فاعلم يا عبد الله، أنّنا أغنى مدن العباد، وسوف أغطّي بغداد بالذهب وأجعلها عاصمة الأرض، والمال لا يزينه إلا العلم، والعلم لا يزينه إلا المعرفة، والمعرفة لا يزينها إلا الرغبة، واذهب من الآن فأنت في حاشية أمير المؤمنين، منحك رضاه فامنحه ولاءك وشجاعتك.

بماذا يكلّفني أمير المؤمنين، سيّدي ومولاي العظيم؟ إنه يعلنني هذا النهار رجلاً وعالماً وملاّحاً ومغامراً، وما هذا الرجل الذي يعطي كلّ هذه الثقة لامرىء يراه للمرّة الأولى، وما هو هذا الرجل الذي يرهبه العالم وهو هنا بسيط برغم كلّ ما يحيط به من أبّهة، والرجال الذين حوله، كلٌّ في أمره، وقد أعارني بعضهم التفاتة من هنا أو هناك، وهذا كلّ شيء، وكان الغلمان يعودون بالبخور بين حين وآخر.

وارتعدت فجأة حين رأيت مربي الصقور يدخلون مرّة واحدة، وطيورهم موثوقة بسلاسل تحاول قطعها، واصطفوا جميعاً أمام سيّدي أمير المؤمنين، فمدَّ يده إلى أحد الصقور وداعبه.

وبدا الصقر طائعاً أمامه مثل هرّة، وسمعت أصوات السلاسل تتحرّك كأنها في عظامي.

والتفت إليَّ مولاي مرّة أخرى، وقال:

- لقد حللت بيننا في وقت طيّب يا عبد الله، فإنني أستعدّ لمرافقة الملكة خيزران في رحلتها إلى مكّة المكرمة وبيت الله الحرام، وهكذا تؤدّي فريضة الحج قبل أن تنطلق في ترحالك، فترافقك البركة ويقوى إيمانك وتحرسك عين العزّة الإلهية، ذكر سيّدي أمير المؤمنين اسم الملكة خيزران، طيّب الله ثراها وعطَّر الله ذكراها، بالكثير من المحبّة، وبقدر ما كان اسم مولاي يثير في القلوب من عطف، كان اسم سيّدتي الأمّ، يثير الرهبة والعجب، وليس سرّاً أن كلمتها في القصر كانت كالسيف لا تُردّ، وكان للسيدة الوالدة من أملاك ما لها من سلطان، وغالباً ما عضد المال السلطان أو تعاضد السلطان مع الثروة، ولم يكن الرشيد يرفض طلباً للسيّدة الأم، وإذا رأى مرّة أن ليس في مصلحة المُلك الأخذ بقول لها، تولّى وزيره ومربّيه يحيى البرمكي، إقناعها، وكان كلاهما، مشكوراً، قد أسهم في حسم أمر السلطة لسيّدي الرشيد يوم دبّ الخلاف على الخلافة.

أراد سيّدي الرشيد أن تكون الرحلة إلى أمّ القرى نموذجاً في السعي إلى رحاب الله، وأرادت الملكة خيزران أن تمحو من ذاكرة الرعية وصفحات

التاريخ، أنها إنما كانت جارية جميلة من اليمن قبل أن تصبح الزوجة المفضلة لدى سيّدي الهادي، رحمه الله، وأمّ وليّ عهده، وكأنما كانت الملكة خيزران تشعر أن هذه رحلتها الأخيرة، فالقدر لن يعطيها أكثر من خمسين عاماً تحوّلت فيها من جارية منسية إلى أقوى امرأة في الممالك، وقطعت خلالها ما لا تقطعه النساء العاديات في خمس مئة عام.

تألّف موكب سيّدي أمير المؤمنين وسيّدتي الفاضلة من آلاف الرجال. وسارت في مطلع القافلة الملكية فرقة من الفرسان فوق مئتي فرس أبيض يتقدّمها قائدها مشياً على قدميه، وخلفه فرقة الأبواق الموسيقية، ورفع جميع الخيالة أعلاماً سوداء وخضراء موشّاة بالذهب على عربات لمّاعة من الفضة التي كان بريقها يزيد من نور الطريق، وبعد الخيالة مباشرة كانت عربة سيّدي أمير المؤمنين ويجرّها اثنا عشر حصاناً حمر اللون. والى ميمنتها وميسرتها كان يتناوب المرافقون من الحرس فوق ظهور أفراسهم التي غُطّيت كلّها بأوشحة مقصّبة تدلّت منها الشرّابات الذهبية. وخلف عربة سيّدي أمير المؤمنين كانت عربة الوالدة الفاضلة وقد حجبت نوافذها بستائر من الحرير، بحيث يتسنّى لها أن ترى ما يدور حولها ولا يراها أحد.

وبعد ذلك كانت عربات السادة القضاة والسادة العلماء والسادة وزير البريد ورئيس الشرطة وكبير الكتّاب، ثم العربات المرافقة، ثم النوق ذات الهوادج البرّاقة، ثم الإبل التي تحمل المؤن، ثم البغال التي تحمل المال والهدايا والذهب والجواهر وأخيراً من بقي من الحرس الرشيدي العظيم.

سار الموكب كأنه عائد من أحد الفتوحات، وكانت سيّدتي خيزران توزّع الصدقات على الطريق ذات اليسار وذات اليمين، وتأمر ببناء المساجد، حيث تتوقّف القافلة أو بإقامة عيون المياه.

كنت في العربات التي أقلّت كتاب قائد المؤمنين، وكنت أصغرهم سنّاً. وكلّما استرحنا في مكان أخذت أدوّن ما أستطيع من الملاحظات والمشاهدات؛ كي أرفعها إلى سيّدي ومولاي، وأكثر ما أثار انتباهي وفاء الرشيد العظيم لهذه السيّدة التي ولدت جارية وصارت زوجة لأمير المؤمنين، وأمّاً لأمير المؤمنين أيضاً، لكن بعد ثلاث سنوات من ملكه وفيما كان في عزّ الجاه والنصر فقد السيدة اليمنية في خريف 789 فبكاها بكاءً شديداً ومشى وراء جثمانها حافي القدمين إلى مقبرة الرصافة على شرق دجلة، فدخل الضريح يودّعها الوداع الأخير وقرأ على روحها الصلاة.

وقع موت سيّدتي خيزران في 11 جمادى الأولى من عام 173 (تشرين الثاني 789) وقد أغرقتنا الأمطار وكأنما حزناً عليها في ذلك الخريف الباكي، وازداد هطول الأمطار في يوم الجنازة، وراحت تختلط بدموع سيّدي ومولاي الذي حزن حزناً عظيماً وتعاظم كربه فأنساه الغياب مباهج الحياة وأمجادها، فارتدى ثوباً أبيض بسيطاً ولفّ خصره بحزام أزرق وسار حافياً يتقدم الجموع في الوحل والطين من القصر المكي إلى المقبرة الشرقية شمال الرصافة، وهناك أمّ بنفسه المصلّين.

لم تكن سيدة عادية، سيّدتي خيزران. ولم تكن زوجة عادية، زوجة الهادي، ولم تكن أماً عادية أمّ سيّدي ومولاي، جارية تشرى من سوق الرقّ، تلقب خيزران لنحولها وقامتها الممشوقة، تصبح سيّدة على بغداد، تَطُلبُ

لدى الخليفة والخليفة يَطلب إلى الإمبراطورية، وتملك على المال بلا حدود والجواهر بلا نهاية، زوجة لخليفة وأمّ لأمير المؤمنين، تجيد التصرّف مثل ملكة وتعلو فوق الجواري وتثير حسد النساء وغضب الرجال.

لقد ذهبت الآن إلى رحمة الله ودانت حياة القصر لسيّدة ورعة أخرى، سيّدتي زبيدة.

عاد الموكب من أمّ القرى وعاد الرشيد يستعد لفتوحات جديدة، أمّا أنا فبدأت الإعداد الجديّ للسفر، وقد خصّني سيّدي ومولاي بجناح واسع ضمن «قصر الخلود» حيث عاش كتّابه ومعاونوه والسادة الوزراء والأعيان. وقسّم القصر إلى عدة أقسام مبنية جميعها من الطوب الأصفر تحيط بها أسوار إضافية لحمايتها، وفي زوايا كثيرة من جنبات القصر قامت أبراج مراقبة كما في القلاع، وكان حرم القصر يضم الإدارة السياسية والعسكرية، وتحيط به من كلّ جانب الحدائق الغنّاء التي فاقت حدائق دمشق، فقد كتبت أبيات من الشعر بالزهور المزروعة ولفّت حول الأشجار سلاسل من الفضة، وامتشقت قامات السرو ترمي ظلالها في مياه دجلة ووزّعت الجسور الخشبية والشلّالات في الطول، ودعك من وصف شهرزاد لـ«حدائق السرو» و«قصر العجائب»، فالحقيقة أن الحديقة عند سيّدي الرشيد كانت في أهمية الديوان، وكان يطيب له الجلوس مع خلّانه على أعلى شرفات الحديقة، فيصبح كلّ شيء أمامه جنائن معلقة فوق دجلة. ومن بعيد تتراءى أضواء القناديل في المراكب والأنوار في البيوت، فيعكس خارج القصر ما في داخله الذي هو «متحف للأبهة والجمال»، وكانت في القصر نحو 35 ألف ستارة معلّقة منها 21.500 مطرّزة بالذهب، أمّا

السجّادات الأخرى فقد رسمت عليها الأفيال والجمال والخيول والأسود والطيور، وكانت المداخل والقناطر كلّها من الرخام، ويبلغ مجموع المطرزات المعلقة 22 ألفاً.

الخير عميم في مدينة سيّدي الخليفة، ومن لم تكن له مأدبة كأن يُعطى أو يُدعى، وإنها لمدينة تنبت النخيل عالياً وترفع المآذن عالياً، وعالياً يكبّر المؤذّنون كلما طلع الفجر على مدينة قد تبدو لك من بعيد وكأنها غارقة في بحر من النخيل، فيما يغسل دجلة المندفع هو أيضاً في عرض بحر صغير، أقدام البيوت والشجر.

فالكثير من الحدائق جعل على حافّة النهر، وكذلك النوافذ والشرفات والثقوب الكبيرة التي منها يأتي النور، ومن هذه الشرفات والحدائق يرى أهل بغداد مئات القوارب الصغيرة والكبيرة التي تبحر من الموصل قاطعة آلاف الفراسخ ومعها حمولتها من أغنام وخيول.

أعزّ الله سيّدي الخليفة أعزّه الله، فقد كنت على مدخل بغداد بنفسي عندما جاء سفير إمبراطورية الروم يروم رضاه، فماذا جعل في استقباله؟ لقد جنّد جيشاً من مئة وثمانين ألفاً مع سلاحهم؛ كي يلقوا التحية على الوفد ويلقوا في قلبه الرعب، وقُدّمت إلى الأعضاء أفخم الهدايا منها مئة جواد أصيل وفرشت في طريقه 28 ألف طنفسة، وزُيّنت السفن في كلّ دجلة، وعُرضت على الوفد الصناعات العربية من بوصلة وساعة دقاقة ظنّ هؤلاء أن فيها شياطين تحركها.

لا أريد أن أطيل كثيراً، لكنّ كيف لي أن أكتب سيرة ذاتية دون هذه التفاصيل، لقد شهرتني شهرزاد في الأرض، لكنها جعلت منّي حكاية

للأطفال وخرافة جميلة في إثر خرافة، ذلك أنها كانت تخاف ملك السلطان وكانت كلّ ليلة تخشى أن ينفجر، فجعلت كل شيء مثيراً وبعيداً عن التصديق، فلمّا بلغتها حكايتي وأرادت أن تحوّلها إلى ليال في لياليها، انتقت من الحقيقة بطلها فقط وراحت تحوّل الباقي إلى خرافة، لذلك أرجو أن تسامحوني على كل هذه التفاصيل، إنه لعمل شاق أن أجعل من الخيال حقيقة مرّةً أخرى، ولمدة كدت حتّى أنا أيضاً أصدّق حكاية شهرزاد وأصدق أنني لم أكن موجوداً سوى في مبالغاتها المثيرة، وأقول دائماً في نفسي: متى تضع أيّها البصري، في الكتب ما هو للكتب وتترك شهرزاد وشهريار في حرب مع النوم والسهر الطويل والرؤوس الجميلة المهدّدة بالبتر في نهاية كلّ ليلة.

جلست في جناحي أعدّ العدة لكلّ شيء، وأخذت من رئيس الشرطة أذونات لعدد من المعاونين بالدخول إلى «قصر الخلود». فقد كان ممنوعاً الدخول إلى رحاب القصر العامر إلا لمن يعمل فيه، وطلبت من وزير البريد أن يزوّدني بأسماء خيرة الخبراء، وسألته إن كان بين الأسرى الذين أحضرهم سيّدي أمير المؤمنين من فتوحاته في أرمينيا وأذربيجان، قبل تولّيه الملك السديد، من يعرف في شؤون المراكب، فقال: ثمة رجل من أرمينيا صار الآن في البلاط الرشيدي يلقب «العفريت» بسبب معرفته في كل شيء ومهارته في تصنيع الأشياء أو مصانعتها، وقال: إن هذا الرجل كان يحمل اسماً أرمنياً، لكنه أشهر إسلامه، وهو الآن يُعرف بـ«عبد الرحمن الخليل». وقد انتقى الاسم لنفسه من اسم القصر الذي لبّى فيه دعوة الإسلام ونداء الإيمان، على أن المفرح في ذلك كلّه حين سمعت وزير البريد يقول: إن لعبد الرحمن الخليل معرفة خاصّة في شؤون الطبّ

وصنـع العقاقير، وهو الآن يلقّـن مجموعة من التلاميذ ما لديه من معرفة في شؤون كثيرة.

حضـر عبد الرحمن الخليل إلى جناحـي صباح اليوم المقبل بعد صلاة الفجر بقليل.

كان رجـلاً متقدمـاً قليلاً في السـنّ، في حوالي الخامسـة والثلاثين أو يزيد، وقد دخل باشّاً ضاحكاً، معتذراً قبل كل شيء عن ركاكة لغته، إلا أن هذه الركاكة أعطته فيما بعد صفة خاصّة بين الرجال، فقد كانوا يمازحونه طوال الوقت، وكانوا ينادونه «الأرمني» بدلاً من اسمه، فهو الأكبر سنّاً بيننا فيما عدا النَّاخُذَاة.

أمضيت ثلاثة أيام كاملة أطلع من الأرمني على ما يعرف، ووضعنا معاً لائحـة كاملـة مستفيضة بكل ما يعتقد أننا سـوف نحتاج إليه من عقاقير. وأرسلنـا اللائحة إلى صيدلّي شهير في سيراف وطلبنا منه أن يضيف إلى اللائحة ما يراه ضروريـاً، وأن يرسل إلينا كميّات من الأدوية والضمادات لمعالجـة القروح وحـروق الشمس والسعـال والإسهـال والانقباض ودوران البحـر، وإلى سيراف أيضاً أرسلنا نطلـب نوعاً خاصّاً من قماش السواري التي تقاوم العاصفة والريح والمطر الشديد.

سيـدي الرشيـد، أعزّه الله، قـال لا تبخلوا على أنفسكـم في شيء ولا تقـتروا علـى مهمّتكـم في ضرورة. ولعـلّ الدقـة الوحيدة التـي صادفتها شهرزاد هي قولهـا: «إن الخليفة هارون الرشيد كان أعظم أمراء عصره وأكثرهـم كرماً». وأيضـاً كان أكثرهم حباً للعلم والشعـر والأدب، وكانت زوجاتـه الأميرات من أكثر الناس علماً، وحتّى الجواري كنّ هنّ أيضاً من

المثقّفات، ومن كانت منهنّ ذات صوت رخيم أرسلها إلى الطائف تتعلم الغناء في مدرستها. وماذا تعتقدون أنه كان سرُّ سيّدتي ومولاتي خيزران سوى ما حصلت على نفسها من علم ومعرفة فأسرت قلب سيّدي المهدي، رحمه الله، وأشارت المشورة الرفيعة على سيّدي أمير المؤمنين، أعزّه الله، وبسط دياره ومدَّ في مُلكه.

كانت الجارية المغنّية تكلّف الإمبراطورية نحو ألفي دينار، أيّ حوالي كيلوغرام كامل من الذهب، لكنّ سيّدي أمير المؤمنين لم يتزوج سوى ثلاث، أجملهنّ، على ما سمعت من بعض أهل القصر، سيّدتي زبيدة. هي وحدها ملأت قلب الرشيد وعقله وحياته، لكنّ طالعها لم يكن كافياً لأن تضع له خلفاً، فقد رزق بابنه عبد الله، من مراجل، في ليلة القدر، وأصبح هو فيما بعد الخليفة المأمون الذي أمر بقتل الأمين، ابن الرشيد من زبيدة. كما رزق من مريدة بخمسة أبناء كان من بينهم المعتصم.

غير أن سيّدتي زبيدة ظلّت، حتى اللحظة الأخيرة، سيّدة البلاط الأولى، وقد حوصر الرشيد بالجمال من كلّ مكان، وتقدّمت زبيدة في العمر قليلاً، لكنه لم يكن يصغي لأحد غيرها، ولم يكن يثق إلا بحكمتها وتقواها. وكانت في قصرها على الدوام مئة امرأة يرتّلنَ سوراً من آيات الله، وكانت تحسن بلا حساب وتعطي بلا تردد.

كان كل رجل في البلاد، وكل عامل من عمال الخليفة على الأقاليم، وكلّ كاتب من كتّابه، وكل جندي من جنده يريد لسيّدنا أمير المؤمنين السعادة والراحة، وكان ما يكدر القصر أحياناً يكدر الرعية، ومع أن سيّدي الرشيد عزل القصر بعناية عن باقي المدينة المستديرة، إلا أن الألسنة الطويلة

كانت تصل إلى ما خلف الأسوار وإلى ما بعد الأسرار، ودارت أخبار سيّدتي زبيدة وعلاقتها بأمير المؤمنين في أنحاء بغداد، كما دارت أخبار سيّدتي خيزران، رحمها الله وطيّب ثراها، وعلاقتها بالخليفة المهدي، من قبل، ولعلّ سيّدتي زبيدة ابنة أختها أخذت الكثير من خالتها خيزران. وقد كان فيها من سحر اليمن وذكاء اليمنيين ما كان في خالتها. على أن جمال زبيدة فاق الأوصاف، وكانت أثوابها ترصّع بالجواهر والماس وتوشّى بالذهب، وكانت ترش جمالها الفائق بعطور محمولة من بلاد بعيدة، فإذا سارت بين جواريها تقدم عطرها الموكب وانحنت لها الرؤوس إعجاباً واحتراماً. ولا ندري كم في خزائنها من ملابس الحرير ونادرات الجواهر، فهي تعطي بسخاء لكلّ من حولها. لكنني سمعت من يقول في «قصر الخلود»: إنه حين توفّيت سيّدتي خيزران رحمها الله، كان في خزائنها 18 ألف ثوب. ولا تكتفي سيّدتي زبيدة بأن ترشّ جمالها بعطر العمبركيس الذي يأتي من البحرين، بل إن العطور ترشّ أيضاً فوق الرخام الذي تسير عليه وكذلك مسحوق المسك.

كانت كلّ أثواب سيّدتي زبيدة مرشوشة بالعطر وتزيّن عصابة الرأس بالفضّة والجواهر والزمرد، ولم تكن المغنيّات والجواري يجرؤن على ارتداء ألوانها فكنّ يرتدين القمصان الوردية والسروايل الزرقاء ويضعن براقع ملوّنة أيضاً.

كانت علاقة سيّدتي زبيدة بمولاي موضع الكثير من كلام القصور. وعندما اشتعل قلب مولاي بحب مريدة قيل: إن زمن زبيدة قد ولّى، لكنّ زمن زبيدة ظلّ حاضراً في القصر حتّى اللحظة الأخيرة، هذه سيّدة ولدت

في القصر ولم يشترها خادمه «مسرور» من أجل راحة سيّدي الخليفة، لقد كان حارسه الأمين وسيّافه وظلّه، لا يفارقه إلا في حضور حرمه، وسيفه هذا تخضّب بدماء جعفر.

لم يكن يجاري سيّدي في كرمه سوى كرم سيدتي زبيدة، وقد سُمع الرشيد مرّة يخرج من جناحها يضحك فسأله أحد مرافقيه، ما الذي يضحك أمير المؤمنين؟ فأجاب: «لقد أعطيت زبيدة للتوّ 300 ألف دينار من الضرائب التي أرسلت إلينا من مصر، فكان جوابها أنني لا أكفّ عن التقتير عليها».

كانت حياة سيدتي زبيدة خليطاً من السعادة والأسى، فقد تأخرت في منح مولاي وريث الخلافة. ثمّ أحزنها أن يكون الوريث الثاني، المأمون، ابن عبدتها التي أهدتها بنفسها إلى الرشيد، وكانت أيّام سيّدتي خيزران تكره الدور الذي تلعبه بين أولاد الخليفة، لكنّها وجدت نفسها تلعب الدور نفسه في القصر، وفي علاقتها الخاصّة بأمير المؤمنين كانت تخشى مَريدة وغيرها، أمّا في تأثيرها على سيّدي ومولاي فكانت تعرف أن هناك دائماً شقيقتيه، عليا والعبّاسة، مَسكينة سيّدتي العباسة. ثلاث مرّات تزوجت، ثلاث مرّات ترمّلت، ومرّة قيل: إنها تزوّجت البرمكي سرّاً ومرّة قيل: لم تتزوج. مسكينة سيّدتي العبّاسة.

شاء سيّدي الخليفة أن يكون كل من حوله غارقاً في فيض الرغد والسعادة، وكل من كان قريباً من رمى مولاي وعطفه كان ينعم بالجواهر والماس والأحجار الكريمة وأثواب الحرير وخواتم الذهب المرصّعة والياقوت والزمرد والزبرجد والقلائد والأقراط والعقود، وكان سيّدي يغمر ضيوفه

أيضاً بما شاء من الهدايا الثمينة، ويسعد الندماء، أسعده الله، مغدقاً عليهم الإغداق الكثير، وقد عرفت أن إبراهيم الموصلي أعطي أربعة آلاف درهم من أجل أغنية واحدة أطربت سيّدي الرشيد، نصره الله، وكان يعطيه كيفما فعل، وما كان يفوت سيّدي كان يغدقه البرمكي.

كان الندماء جزءاً أوّلياً من حياة القصر يروِّحون عن متاعب سيّد القصر وأمير الأمراء، بعضهم من يلقي في حضرته القصائد الجميلة، وبعضهم من يلاعبه النرد أو الشطرنج «فمن المستحيل العيش من دون سلوى، وسلوى الملوك الشطرنج». ولم يكن مسموحاً للندماء مقاطعة الملك أو النظر إلى غيره في المجلس أو أن يأتوا بحركات يدوية وهم يخاطبونه. لكنه كان غالباً ما يتغاضى عن كلّ هذه القواعد والأصول ويتركهم يتصرفون في حضرته على راحة بالهم، ويقال: إن أحبّهم إليه كان إسحق الموصلي، ابن إبراهيم، الذي قال له يوماً: «يا إسحق لو لم تكن مغنياً لجعلتك قاضياً». وكان أحياناً يحب مجلس «أبي نواس» الشاعر اللعين، لكنه كان دائماً يأنس إلى أبي العتاهية، هكذا، على الأقل، أخبرت في أمسيات القصر، حيث يهمس بعضهم في حكايات سيّدي أمير المؤمنين، ويطلب له الجميع طول العمر.

رحت أسرع في الاستعدادت؛ كي تتمّ الرحلة فور انتهاء شهر رمضان المبارك، وكان أهم شيء بالتأكيد العثور على أفضل نَّاخُذَاة في الإمبراطورية. ولذلك أرسلت أبحث عن رجل كثير الخبرة من دون أن يكون متقدماً في السنّ، فالبحر لمن لا يعرفه هلاك، والبحر لمن لا يقوى على أنوائه موت. وفكّرت أن أعود إلى البصرة؛ كي أبحث بنفسي بين أهلي عن القبطان

المناسب، لكنني خشيت أن يُساء تفسير ذلك، وأن يقال للخليفة: إن البصري قد ذاب حنيناً وهو لم يبدأ أسفاره بعد. وعلى أي حال، قيل لي: إن الألسنة المعتادة في القصر بدأت تطولني وترمي من حولي التساؤلات. لكنني لم أصغ إلى أحد ما دمت أملك ثقة الرشيد، نصره الله.

في المساء، وقد تعبت عملاً، وهدّني الشوق إلى مجلس الشيخ محمد وحنان أمّ عبد الله. كنت أجلس على الشرفة وأتأمل في النفس وما حولها. وكيفما تلفت كان يطالعني دجلة والمراكب تملؤه، والناس تعبر من ضفّة إلى ضفّة، كأنما دجلة الرزق والمورد، وحيث مرَّ دجلة وعبر نما الزرع والعشب. وعلى ضفّتيه، الشرقية والغربية، امتدّت الأهوار وترعرعت المثمرات. وكان حين يفيض يترك الخير خلفه حتّى في الفيضان، على أن مناخ المدينة لم يكن يناسب صحّة أمير المؤمنين ومزاجه كثيراً، وقد سمعت أنه يريد بناء قصر في البصرة، وبعضهم قال: بل في ديار من فارس، غير أن جارية سمعت سيدي، نصره الله، يقول للبرمكي إنه يفكّر في بناء أكبر قصور الكون في الرقّة، وأن يبني هناك أكبر مساجد الإسلام، وكان يقول لوزرائه وكتّابه: إن أجمل منظر يمتّع نفسه به في الفجر بعد الصلاة مشهد القباب والمآذن التي تبدو مثل تلال في سهول بغداد وبطاحها، كنت أخرج أحياناً إلى المدينة برفقة مجموعة من رجال سيدي، نصره الله. ولا أخفي أنني أنا الذي طلب ذلك.

فقد قلت في نفسي: ها أنا في مدينة يحلم برؤيتها كلّ من له سمع أو معرفة، فهل يعقل ألاّ أتبيّنها كما يجب، كي أعترف بأنني فعلت ذلك وبي حبّ كبير للبصرة وشوق عظيم إلى الزحام المتنوّع الوجوه والأثواب، في أسواقها القديمة.

فقد كان لبغداد نهرها العظم، لكنّ البصرة كان لها أيضاً الأخوار الجميلة، وحين غادرتها لم يكن قد مضى على قيامها زمن كثير، لكنّها امتدّت واتّسعت بغير توقّف، وكان الشيخ محمد يقول: إنه جاء إلى حيّ البزازين بعد ولادتي بقليل من إحدى القرى المجاورة، وفي غفلة منه تلاصقت قرى المدينة وازدحمت طرقاتها واكتظّت.

كانت البصرة مثل مفترق طرق للإمبراطورية وللخارج أيضاً، فهي الباب إلى بغداد عن طريق دجلة. تذهب السفن في رحلة تستغرق حوالي عشرة أيّام، وتعود في نصف ذلك. وكانت منها تنطلق البضائع إلى الشمال ومنها تعبر القوافل إلى مدن الشام وبلاد مصر، وكل ذلك كان في مُلك سيّدي ومُلك أجداده، وإنني لا أقصد من المقارنة إعلاء شأن البصرة. فحيث يجلس أمير المؤمنين موئلي وحيث يمتدّ ملكه موطني، ولو أنك مثلي تيسّر لك أن ترى هارون الرشيد وأن تقف في حضرته وأن تصغي إليه ينثر الفصاحة نثراً لعرفت ما أعني، إنني أعجز عن التعبير عن غبطتي بأنني أجاور الرشيد، فكيف سيتباهى أولادي غداً بين الأمراء وكم سيعتزّون، بأن أباهم صار بين كتّاب أمير المؤمنين، الرشيد العادل الحكيم العاقل السعيد الشديد الاغتباط.

لست أدري من أين يأتي إلى الإمبراطورية كلّ هذا المال، لكنّ فتوحات الرشيد، حفظه الله، لا تهدأ. وكلّما هزم جزءاً من بيزنطة عاد الفاتحون بالمزيد من الثروة للبلاد، ثمّ إن التجارة مزدهرة والخير وفير، ولذلك لم تخلُ معظم بيوت المدينة من حديقة أو بركة ترطب الزمن الشديد القيظ في الأشهر الواقعة ما بين الربيع القصير والخريف القصير،

فالواقع أن ثمّة فصلين كاملين فقط على هذا المنبسط من أرض الخصب في الإمبراطورية العامرة، كما هو الحال على الساحل أيضاً وفي الداخل العميق، صيف هجير وشتاء قارس.

غير أن المياه كانت متوافرة في كلّ مكان برغم الحرّ والبرك الصغيرة ملأت الحدائق، وملأ زهر اللوتس سطوحها يعوم فوقها بكسل كالسمك في قيلولة، وكان البغداديون يتغنّون بغنى حدائقهم، ومن هنا قولهم حدائق غنّاء، ومن معالم كلّ حديقة كان الياسمين الذي جاء من دمشق والورد والنرجس والزنبق، وبدأت تظهر هنا وهناك أشجار الليمون والبرتقال التي نقلت من الهند، وراح الشعراء يغنّون حدائقهم، أو حدائق غيرهم، كما كانوا يغنّون هواهم و«ليلاهم» و«هندهم». فقد صارت الجنينة جزءاً من السمر للعامة، وبديع القول للشعراء. وفيما كانت أوروبا ترسم جمالياتها على القماش وتخلّد سادتها ونبلاءها بالريشة واللون كان شعراؤنا يرسمون أمراءنا وسادتنا بقواعد الخليل وبالرنّة الموسيقية الباقية أطول من الألوان الممزوجة، في هذا الكون الذي كلّ شيء فيه إلى الزوال، إلا رحمة ربك الكريم.

لم تكن البيوت نفسها أقلّ عناية أو جمالاً، ولأن لون الطوب كان بطبيعته قاتماً، فقد أُدخلت ضمن رصف جدرانه قطع ذات ألوان زاهية، وكما كانت عاصمة سيّدي الخليفة عاصمة لكلّ شيء آخر، فقد كانت أيضاً عاصمة البلاط الكاشاني الشديد الألوان الذي رصفت به الدور والحمامات وممرّات الحدائق، ومن كان ذا شأن في ازدهار المدينة جعل باب منزله من الأبنوس، للباب قبضة من الذهب تنبئ بجاه صاحب الدار بين عشرات

الآلاف من البشر الذين قدموا من كل أصقاع الأرض، ولست أدري أيّ مراكب وأيّ قوافل حملت هذه الأعداد وجعلتها تبتني لنفسها البيوت وتقيم على الضفّتين، تتاجر وتسعى وتعدو، فيحالف الحظ من يحالف ويطارد الباقون بقاياه عند أصحاب حسن الطالع، وما كان أكثرهم في رحاب سيّدي الخليفة.

يسوؤني ذلك كثيراً، لكنّ لابدّ لي أن أقرّ بأنّ حالات السرقة قد ازدادت في المدينة ازدياداً مخيفاً، كما أخبرني رئيس الشرطة، وقال: إنه يعدّ قوّات جديدة لمطاردة أسراب الحرامية واللصوص والنشّالين والخطافين التي تغزو المدينة كالقمل، فلا تعود تعرف في أيّ مكان من الجسد هي، وقال لي: كثر الأغنياء وكثر الفقراء فكثر الغرباء، وقد ارتفع عدد سكّان المدينة بسرعة هائلة لم تستطع الدولة مجاراتها، والرشيد، نصره الله، يريد جنداً للإمبراطورية لا لإضاعة الوقت، على أن المسألة قيد المعالجة. ولكلّ تقصير تدبير، وعين الخليفة على راحة الرعية.

وكان يلفت نظري أيضاً مشهد الدراويش في الشوارع الضيّقة، ومشهد الحواة والفقراء، وذات يوم صادف أنني كنت في المدينة يوم خسفت الشمس خسوفها الكبير، فملأ الحواة الدنيا صراخاً ودقّت الناس على الخشب والتنك وهتف الصبية حتّى حملوا طائر اللقلاق على الهجرة في غير موعده.

رمضان المبارك يقترب. وبغداد تموج استعداداً للشهر الفضيل، وسيدي الرشيد أعزّه الله بدأ يضاعف الصدقات، وأمسيات الجنائن الملكية تحولت إلى قراءات من القرآن الكريم. ومنع الشاعر اللعين أبو

نواس من دخول القصور الملكية إلى ما بعد العيد. وقد وفد إلى القصر الملكي للمناسبة علماء من ديار مصر وبلاد الشام، ومقرئون ذوو أصوات شجيّة، وكنت حين أسمع من نافذتي بيّنات الذكر الحكيم، تهزّني رعشة التقوى، وإني أفتقد لها، وقد أحسست نفسي نصفاً في السماء ونصفاً في الأرض، يوم كان الشيخ محمد يقرأ علينا بصوته الجميل من السُّور ما يرقى بالنفس، الأمارة بالسوء، إلى أقصى مراتب العبادة، احفظ اللهمّ أميّ وإخوتي واجعلني برحمتك أراهم من جديد، فهم أحبُّ عبيدك إلي.

أرجو ألّا يفهم من كلامي هذا أنني متذمّر من الانتقال إلى بغداد، حيّا الله سيّدي الخليفة، بل إنني، بعكس ذلك تماماً، أقدّر كلّ التقدير أن أكون في جوار سيّدي ومولاي في هذا الزمن السعيد وهذه الأيام الجميلة، فالمدن لا تكبر ولا تنمو إلا بالاستقرار السياسي والذكاء الإداري، وبغداد دليل الاثنين في عصره، لقد بلغ تعدادها اليوم المليون، فيما مدن أوروبا لا تزيد، كما نسمع، على بضعة آلاف، والقسطنطينية نفسها لا تزيد على ثلاث مئة ألف. وكلّ من استطاع تاجر في الأرض فاشترى بثمن وباع بأضعاف، حتى سفير بلاد الروم شارك في تجارة بغداد وثرواتها، لقد جاؤوا من كلّ الأنحاء ينهلون من خير مولاي وعصره.

وفي هذا العزّ والازدهار بنى الخلفاء قصورهم، وكان الأبناء يفضّلون أن يبنوا قصوراً تفوق ما تركه الآباء، حتى بلغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً، أكثرها جنوب هذه المدينة التي ربطت ضفّتاها في زمن سيّدي الرشيد بثلاثة جسور، واحد في الكرخ، وواحد في بداية خوراسان، وواحد

أبعد قليلاً إلى قرب «دار الخليفة» و«كان ثلثا بيوت المدينة يطلّان على المياه». وكانت أكثرية الناس تتنقل في المراكب الصغيرة عبر الرافدين. وكنت تعرف الأجناس من ألبستهم عرباً وفرساً وأتراكاً وبربراً، وكان الغلمان السلافيون يرتدون ثياباً رومية وأخرى من طراز ديارهم، والبدو كانوا يُترَفون من العباءات وكان الإزار والمِزار سائدين، أمّا الرؤوس فكانت تغطّى وفق العادات ولا من حاسرين، العقاب لمن حسر، خصوصاً في جنبات القصر.

سمّيناها العنقاء

أعلنت خمسون ألف مئذنة في بغداد أمس حلول شهر الصوم، وكان مشهد السوق الكبرى في الكرخ في الأيام الماضية القليلة عجيباً، ألوف الناس والخدم والغلمان يتسوّقون لإفطارات الأيام القادمة، وحتى الفقراء الذين لا يملكون سوى الشملة التي عليهم، كانوا يذهبون بالصَّدَقات التي تعطى لهم إلى المخازن التي كانت تمتلئ في الصباح وتفرغ في المساء مثل المدّ والجزر، وحتى التجّار الكبار ظهروا في أبواب مخازنهم وعلى وجوههم علامات الفرح، وقد نشر رئيس الشرطة جنداً كثيرين وعسساً في الليل حول الشوارع وأمام المحالّ، وكانت روائح مختلطة من البهارات والسكاكر تملأ أجواء السوق وقناطره وتملؤه تلك الخضار التي قال المثل عنها «المأدبة بلا خضار كالعجوز بلا حكمة»، وعرضت المخازن بافتخار أكياس الكمّون والبهار والطيب والمسك والأرز والخوابي المليئة بالزيت والخلّ، وكذلك الأقمشة والمطرزات وزينة الحمامات والبلاط الخوراساني والعطور الهندية والدجاج وديوك الحبش والحملان الصغيرة؛ كي تعلف إلى يوم العيد، والفستق والجوز واللوز وقديد الخضار والثمار، وغير ذلك من الأطايب ولذائذ البلدان والبساتين.

كان سوق الكرخ «يمتد فرسخين طولاً وفرسخاً بالعرض»، وبين مخازن وأخرى كان يقوم هنا وهناك مخبز تفوح منه رائحة الحياة، ولست أدري أي طاقة هي طاقة الخبّازين، إذ يمضون شيئاً من أواخر الليل وشيئاً من

أوائل النهار في الحرّين: حرّ بغداد وحرّ الجمر الملتهب في المخبز على الدوام، وكلّما تساءلت كيف يعيش الخبّازون حياتهم تطلّعت فإذا بهم يضحكون ويمازحون عمّالهم ويصرخون فيهم ويستحثّونهم كمن يستحثّ بغالاً معاندة في حرارة الظهيرة.

وللمرّة الأولى وأنا في السوق عشيّة شهر الصوم والصلوات، أشعر أن بغداد تشبه البصرة في تكاثر الأقوام والأعراف وخلق الله، حيّا الله سيّدي ومولاي وأعز الخليفة الرشيد، رجال من كلّ مكان وأشياء من كل صوب. وتكاد بغداد تبدو مثل جارتها القديمة بابل؛ لكثرة ما هناك من لهجات تحاول كلّها أن تنطلق «بلغة الأرض في هذا العصر» ولغة التنزيل وإعجاز القرآن الكريم والصلاة والسلام على خاتم النبيين، أقوام من كلّ مكان. بيزنطيون، فارس، شاميون، مصريون، موصليون، أتراك، أناس من إفريقيا، أندلسيون، أناس من المغرب الأقصى، وأناس من السودان، ومن الأهوار، ومن الأطراف. وآه، أيضاً بصريون تعرفهم من أصواتهم المرتفعة وألوان ثيابهم الداكنة.

كلّ ما زرع في الأرض بيع هنا، وكل ما منع في المصانع وجد من يشتريه في مملكة سيدي ومولاي الرشيد، أعزه الله. فلم تكن المدينة وحدها في ازدهار بل جميع القرى، ولم يكن البغداديون وحدهم في غنى، بل جميع الزرّاعين والحرّاثين وجناة الثمار وملّاكي الأرض، ومنذ حين، أمر الرشيد بزراعة القطن، لكن كميات كبيرة منه ما تزال تأتينا من مصر ومن حلب. ومن مصر أيضاً يأتي الورق والألياف والكتّان الذي تصنع منه حبال السفن والأشرعة، ومن أطراف آسيا وأوقيانوسيا تأتي القوافل وتروح،

وتجيء محمّلة مليئة، وتعود ومعها ما قايضت به في سوق الكرخ من بضائع وأطعمة وقديد وأقمشة.

ماذا بي أغرقتني بغداد في هواها حتى كدت أنسى البصرة «أعظم مدن العالم وأوّل مركز للتجارة والثروات»! وهل تنسيني رائحة المخابز في الكرخ رائحة السكر المتصاعدة من مطاحن البصرة تملأ أجواءها؟ لقد قاطعني اللحظة عن كتابة هذه السطور، ليس الحنين إلى البصرة، بل دخول «عبد الرحمن الخليل» فجأة عليَّ، وفيما أنا متربع أدوّن، إذا به يدخل مع مرافقه وخلفهما اثنان من خدمي، وقال عبد الرحمن بلهجته المتعثّرة، مذكراً المؤنث كالعادة، مؤنّثاً المذكر كالمعتاد «جئت ومعي آخر الأخبار».

لقد عثر، أخيراً، على السفينة المطلوبة والنَّاخُذَاة المثالي، أمّا النَّاخُذَاة فرجل من البصرة يدعى سليمان بن نصر الملقب «بالبحري». وقال عبد الرحمن: إن «البحري» عاش في البحر منذ طفولته وكان الآن على وشك الانصراف إلى التجارة بعدما مل حياة المياه والترحال يريد أن يؤسّس متجراً في البصرة لبيع التوابل والأفاويه، خاصةً أنه على مر السنين قد أقام علاقات مع كثير من التجار وعرف مواضع الربح والخسارة واطلع على أسرار الترويج.

وأمّا السفينة فقد راح عبد الرحمن الخليل يصفها كأنه يستعيد شيئاً من شعر أبي العتاهية في حضرة الرشيد، خوفاً من أن ينسى تفصيلاً أو أن يلحن في عروض، لكنّ، مسكينة اللغة العربية عند هذا الأرمني الهائل النشاط، الذي لم يترك صناعة إلا وعرف شيئاً منها ولم يترك مهارة إلا وأتقنها، إلا اللغات فويل للرجال يتحوّلون من نساء، وويل للنساء يذكّرون وويل لسامعه يخاطب دائماً بصيغة المؤنّث.

أفرحتني أنباء السفينة والربّان، وتفاؤلاً بالخير ومن أجل السلامة ودرء الأخطار واتقاء غضب السحرة والجان وطرد أعين الحسّاد، قلت لعبد الرحمن الخليل: إننا سوف نطلق على السفينة اسم «العنقاء». وطلبت إليه أن يوصي في خوراسان على بلاطة كبيرة يحفر عليها رسم العنقاء الجميل، وهو طائر له رأس رجل وأربعة أجنحة من كلّ جانب وكعوب بدلاً من قوائم الطيور، وقال عبد الرحمن: لماذا لا نطلق عليها اسم أمير المؤمنين؟ فأجبت، حفظ الله سيّدي الخليفة، كيف نطلق اسمه على سفينة ليست بقصر، ومجمّع ليس بمسجد، ومركبة ليست من الذهب، وأشرعة قد تهزمها الريح والعواصف فتهزمنا معها، فهل نترك اسم سيّدي الخليفة للأنواء والغياهب والمجهول الذي سندخل فيه؟

وقال عبد الرحمن: أراك خائفاً يا بَصريّ، فمن يطلب المحيط لا يخشَ الريح ومن يركب البحر لا يحسب حساب العاصفة، فضحكت منه وقلت: أتراني يا عبد الرحمن، أهاب الموت وأنا أرفع راية سيّدي الرشيد، نصره الله، أمّ أخشى الآخرة وأنا أحمل رسالة الإسلام إلى أصقاع الكون؟ ابتسم عبد الرحمن هو أيضاً وأخذنا معاً نرتّب الأوراق والخرائط في صناديق حديدية صنعت خصيصاً للرحلة.

وفيما نحن في عملنا دخل علينا وزير البريد، ومازح عبد الرحمن قليلاً، ثم التفت إليَّ قائلاً: «لعل كلّ شيء على ما ينبغي يا بصري، فقد سمعت أنك تستعدّ الآن للانطلاق وأن كلّ شيء قد أعدّ». فقلت: أجل يا سيّدي الوزير، فلم يبقَ سوى أن نصلّي العيد هنا ونمضي على بركة الله، لكنّ من تراه أطلعك على هذه الأمور؟ فضحك الوزير ضحكة مهينة قليلاً

وقال: «وهل يُسألُ وزير البريد يا بصري، كيف يعرف الأشياء؟ إن له مهمّة واحدة هي أن يعرف، فهو عين الخليفة وهو أذنه، والعساكر تحمي الإمبراطورية بقوّتها، لكنّ من يحمي سيّدي الخليفة من قوّة من حوله، ومن يردّ عنه أحلام الحاسدين ومؤامرات الطامحين؟ ومن يصغي إلى همسات أهل القصر حين يقرّرون ألا يرفعوا أصواتهم، كي لا يسمعها أحد؟ أنا يا بَصري، من يسمع تلك الهمسات ومن يقرأ في العيون ماذا تقول حقّاً؛ لأنها تخفي ما يضمر لا ما يقال»!

وأخافني كلام الوزير قليلاً، لكنه سارع إلى طمأنتي حين قال: «لقد قرّرت، بعد إذن سيدنا الخليفة، أن يرافقك خمسة من أمهر رجالي من الذين عملوا في البحر والبرّ، فإنك في حاجة إلى خبرتهم ومعرفتهم». وأردت أن أشكره، لكنّه أضاف: «يريدك مولاي الخليفة أعزّه الله، أن تتناول الإفطار في إيوانه وبعدها يؤذن لك بالسفر».

كان سيّدي ومولاي الرشيد يتصدر المقصف الذي لا يوصف له كمّ ولا طيبة، وقد نحرت في اليوم الأول من رمضان المبارك البعائر والخرفان والجديان وديوك الحبش والنعام والأوزّ ومئات الدجاج وأسراب من الحمام، بحيث تكفي لإفطار الخليفة والحاشية والسادة العلماء والكتاب والندماء، وبعد ذلك يُعطى ما بقي لمن بقى من أهل القصر ومن طالبي خير الشهر.

وقد نقل الأرز والإدام حللاً حللاً، وفرشت صدور التمر في كلّ النقاط، وفي كلّ الزوايا وضعت أباريق الطيب وعطور الاغتسال، ووقف عندها حرس وخدم وجند، ووزّعت التمور بين الأطباق ترطّب الحلوق الجافّة عند

الضـرورة، وارتفعت أطباق الجوز والتـين المجفّف، ونشرت أطباق الحلوى المغربيـة، وزينت الحلوى المنقولة من بـلاد الترك بألوانها صحون الخزف ومتعت أنظار الضيوف، وملأ دخان البخور الجوّ حتّى صار من الصعب أن تـرى الضيوف في آخر القاعة، ووسط هذا الحشد من ضيوف سيّدي أمير المؤمنين، أعزّه الله، لم نكن نسمع صوتاً سوى صوت أباريق الطيب أو صوت السيوف تبسط على الأرض قبل أن يتربّع أصحابها خلف المقاصف المذهلة. لقـد رأيـت مرّة واحدة في بغـداد من الطعام مـا لم أره في أسواق البصرة طيلـة عمري، وهنا أمام هذا المشهـد تذكّرت حكاية الملك الساساني الذي راح يمتحـن معرفة ولده: «ما هي أطيب الأطباق، ما هي أجمل الطيور، ما هي أذكى اللحوم، ما هي أحلى المربّيات، ما هي أشهى أنواع الإدام، ما هي أطيب أنواع الثمار، ما هي أفضل سبعة مكونات للحساء؟».

هـا هي جميعاً علـى مقصف سيّدي أعـزّه الله، وأعز من نـادى بعزّه. لا يشبـع الأمير والقـوم جياع، ولا يتذوّق الأمير والرعيـة تتقشّف، حتّى إن سيّدي ومولاي كان يعفي المدن التي لا تستطيع دفع الضريبة مالاً أو فضّة أو ذهباً ويقبلها عسلاً أبيض من أصفهان أو سكاكر من خوزستان، وقد كانت كلّهـا مرصوفـة في الإيوان إلى جانـب اللوزنجي (مربى اللـوز) والزلابية والصابونيـة (كبيس اللوز)، إلا أن الحلـوى لم تكن تطيب لي فرحت أنقل متعة التـذوق في مدخونة الباذنجان والسكباج (اللحـم بالخل) والدجاج الهنـدي المنقوع بالشمع والـبراق والبطيخ، حيّا الله سيّـدي الخليفة، حيّا الله سيدي الخليفة.

كان شـيء مـن الطقس الخريفي الطـري قد بدأ يسـاور بغداد بتردّد. ولذا أمر سيّدي الخليفة أن يفرش البلاط بالسجاجيد من كلّ الأنواع ومن

كل الألوان ومن كل الحرائر والحياكات، فلم يعد لون البلاط يبين حتّى من ثقب. فقد غطت التكايا والمسانب كل شيء. وعلّقت المطرّزات على الجدران وتدلّت من السقوف وعليها منقوشات تمثّل خيل سيدي أو نوقه، وأكثر هذه الحرفيات الجميلة شغلت في مشاغل سيّدي الخاصة التي امتدّت حتى القيروان. لكنّ سجاداً كثيراً جاء أيضاً من بخارى وأرمينيا ونيسابور، وجاء السجاد الحريري الخاصّ من بلاد الشام ووادي دمشق.

كان سيّدي تعباً على ما يبدو، تأدّم وقام واقفاً بكل جلاله فوقف معه عدد قليل من الحاشية، ولاحقته الأنظارُ والأدعية حتّى خرج من الباب. وعلت الأصوات فجأة وتسارعت طريقة الضيوف في الأكل، وراح بعضهم يحيّي بعضهم الآخر أو يسامره من بعيد، وغيّر بعض التجّار أماكنهم؛ كي يكونوا على مقربة من بعضهم، وشعرت بشيء من الكدر؛ لأن سيّدي لم يمنحني ذلك المساء شرف المثول بين يديه، وبدلاً من أن أقوم أنا أيضاً إلى جناحي بقيت هناك أحادث من عرفني من السادة الكتّاب وأتأمّل في عظمة الرشيد وما يملك وما يغدق إغداقاً.

الزمن يعطي والوقت يعطي والسنون تخطف، لقد حان الموعد للذهاب إلى البصرة، حيث السفينة تنتظر والنّاخُذَاة سليمان بن نصر وعشرون ملّاحاً، ومن هناك سوف يذهب معي 19 رجلاً آخر بينهم عبد الرحمن الخليل، وموظّفو البريد الخمسة، وثلاثة من خبراء الملاحة واستخدام الأسطرلاب، وطبّاخان من بلاد السند خصّصهما للرحلة سيّدي ومولاي بنفسه، وانتقاهما من أمهر الطهاة في قصوره، وكان هناك أيضاً رئيس المؤن وطبيب وصيدلي ومدوّن وأربعة بحّارة أشداء ممّن تنقّلوا سنوات عديدة بين البصرة ومسقط، على ساحل عمان.

طلبت من رئيس المؤن أن يدقّق في كلّ شيء وأن يضع لائحة بكلّ ما يلزم وشدّدت خصوصاً على أوعية المياه والقرب، فالماء العذب في أعالي المحيط لا تعوّض عنه كلّ مياه البحار، وشدّدت أيضاً على الإكثار من التمور؛ لأن قليلها يقيت، والتمور مثل أمّهاتها، لا تجفّفها ريح ولا تضرّها ملوحة ولا يهمّها أين تضعها، فهي تعرف أن موضعها في النهاية موضع القوت العذب، فإذا كانت النخلة فيئاً في الحرّ والقرّ فثمارها دفء، في البرد وبرد في القيظ.

تركت، في أمانة وزير البريد، رسالة مطوّلة إلى سيّدي أمير المؤمنين كتبتها بقدر ما استطعت من خطّ كوفي جميل، وملأتها أبياتاً من عيون الشعر ممّا حفظت، وأعربت له عن جميع مشاعري وعن ولائي المطلق ووعدت سيّدي ومولاي، أن أضحّي بنفسي في سبيل خدمة الإسلام وفي سبيل أمير المؤمنين وألا أضيع لحظة من الوقت سدىً، وألزمت نفسي. بالوصول «إلى آخر يابسة في الأفق؛ كي أنقل رسائلك العظيمة إلى من هم دون جلالك من ملوك في جزر وبلدان هذا الكون».

دمعت عينا الشيخ محمد حين دخلت فجأة عليه، وفي الطريق إلى البيت لم يبقَ أحد في حارة البزازين إلا وألقى التحيّة عليّ، وكان بعضهم ينحني ويدعو لي بالتوفيق في خدمة أمير المؤمنين ورعايته، وراح بعض التجّار يسألني في صوت عالٍ عن بغداد، وقال لي أحدهم في مزيج من السخرية والتحبّب: «ها، يا عبد الله، هل بنيت لنفسك قصراً على النهر أمّ بعد؟».

أدمع الشيخ محمد وبحّ صوته قليلاً وجاهدت الكلمات في حنجرته، أمّا أمّ عبد الله فقبّلتُ يدها فشعرت أنها يد من فولاذ، ولم تتفوّه بأيّ كلام من

مشاعـر، بل سألت في صرامـة إن كنت سأتناول طعـام العشاء في البيت؟ وأجبـت أن ذلـك سيكون آخـر عشاء في حديقة الشيخ محمـد قبل الرحلة إلى بـلاد السنـد، فالسفينة على استعداد، وفي الفجـر تقلع من العشّار في رعاية الله، وقد تحلّق حولي إخوتي ذلك المساء ورافقوني جميعاً إلى المرفأ. وأدمـع الشيخ محمد مرّةً أخرى وتظاهـر بأنه يضبط عمامته التي أزاحها قليلاً عن جبينه خلال العشاء.

أذهلنـي حجم «العنقاء». وفاجأني عبـد الرحمن الخليل بأنه لم يكتفِ بوضـع بلاطـة كبيرة على السفينـة رسمت عليها صـورة العنقاء، بل جعل مقدّمتهـا في شـكل عنقاء كبرى، وقـد أبعد السواري قليـلاً، بحيث كيفما هبّت الريح لا تخفي أيّ سارية من سواري السفينة شيئاً من رأس العنقاء، جالبة الحظوظ ومجلبة حسن الطالع، وكامدة الحسّاد وقاهرتهم.

حيّا الله سيدي أمير المؤمنين. ففيما كنت في قصره أسعد في رغده وأعدُّ للرحلة وأنا في أغماره، كان البنّاؤون في حوض العشّار يقومون ببناء أجمل سفـن الخليج وأجملهـا، وكان طول السفينة نحو 50 ذراعـاً ولها طبقتان، أسفلهـا للمؤن والسـواري الإضافية، وكلّها صنعت لـدى أمهر الصناعيين في حلـب، وحبال الكتـان صنعت خصيصاً في دمياط، وأمّـا الطبقة العليا فكان نصفها لمنامة البحارة والملّاحين ونصفها الآخر لجناحي، الذي مُلئ بأمـر من سيدي ومولاي بورق الكتابة والأقصاب الكاتبة، وكان فيها غرفة النَّاخُـذَاة، وغرفة أخرى لعبد الرحمن الخليـل، وفي باقي المساحة وضعنا الهدايـا الكريمـة التي زوّدنـا بها أمـير المؤمنين إلى الأمـراء والمهراجات وعمّال المناطق وأعيان البلدان الذين سوف نقابلهم باسمه.

كانت غرفتي، على صغر حجمها، كأنها منقولة من جناح في «قصر الخلود». وأنا واثق أنه لم يعرف عالم البحر لها مثيلاً، فقد رميت الطنافس حولها رمياً وربط سريري إلى أعمدة نحاسية رباعية في الخشب؛ كي لا تهزه الريح، وكانت الأحرمة والأغطية فوقه مرسوماً عليها جميع أنواع الورود والزنابق، وعلى الجدران الأربعة، كتبت الفاتحة بأحرف من ذهب في الجدار المقابل، وآية الكرسي فوق رأسي، وعلى جدار القبلة لائحة بما أمر ربك وإلى اليسار بما نهى، اللهمّ صلِّ وسلِّم على سيّدنا محمد وارضَ عن صحابته.

أبحرنا في الفجر، خريف عام 787، في أوائل تشرين الأول (أكتوبر)، وكانت ريح باردة تدفعنا برفق عبر دجلة نحو البحر القريب، وأدخل في نفسي صوت الأشرعة وهي ترفع شعوراً عذباً بالسعادة والانطلاق نحو المجهول، وانهمك البحّارة، كلّ في شأنه، كما لو أنهم جند يعرفون فرقتهم ومواقعهم منذ زمن، وكانت العنقاء كلّما تهادت سابحة صوب البعيد، ابتعدت البصرة عن ناظري، وطلعت الشمس ساطعة، فلم نعد نرى سوى أخيلة فضية متداخلة ورؤى مبهمة، وتذكّرت كلام أمّ عبد الله، وقطر قلبي حناناً على الشيخ محمد وعلى ضعفه وعلى حنانه، لكنّ الأشياء ما لبثت أن راحت تبتعد، وأخذت حقائق البرّ كلها تصبح خلفنا الآن ونحن نلج في هذه الحقيقة الهائلة المنفتحة على أكوان لا نعرفها ولا تعرفنا، وحين حلّ المساء وبدأ الظلام يتمدّد في كلّ الأمداء، لاحظت أول شيء أننا لم نعد نرى علم الرشيد الأسود اللون، ثمّ راح لون السواري يدكن هو أيضاً، وشعرت بشيء من البرد، فيما ترك النَّاخُذَاة برجه لأحد معاونيه ودخل إلى غرفته ينام، ممتلئاً بالتعب ورتابة الريح.

دخلت أيضاً إلى غرفتي وقد أطبق عليّ شعور بأنني قطعت العتبة إلى عالم آخر، وحاولت أن أتبيّن شيئاً من كوّة الغرفة، فلم يكن هناك سوى الليل وصوت البحر يخاطب نفسه في قصيدة لا أفهم منها شيئاً، لكنني أعرف أن قافيتها واحدة ورنّتها واحدة، تتكرّر كما يكرّر الصمت نفسه في الخواء، ثمّ تعود فتتكرّر، كأنها الموصلّي يكرّر مقطعاً أدرك أن أمير المؤمنين قد استحسنه.

أضأت القنديل خفيفاً وتربّعت فوق السرير أقرأ، وما هي إلاّ لحظات حتى غلبني الليل فأطفأته وغفوت.

السيد الكبير وبحره

أفقت فجر اليوم المقبل لأرى أننا نعوم بين السماء والمياه، ولا يابسة في الأفق في الجهات الأربع، وصعدت إلى سطح السفينة بعد قليل فوجدت النَّاخُذَاة يتفقّد الفلاة من حولنا وكأنه يعرفها مثل راع يعرف أغنامه. وحاولت أن أحادثه لكنه مضى يتفقّد جوانب السفينة وحفافها وسواريها من دون أن يصغي إليَّ، إنه الآن السيّد الكبير في هذا المجهول الذي لا حدود له، وانتظرت أن يتظاهر بأنه انتهى من عملية التفقد، فلمّا فعل أخيراً، سألته إن كنّا بعيدين كثيراً عن البرّ؟ فقال: إن الرياح هي التي أبعدتنا منذ دخلنا الخليج، لكنا سوف نعود إلى الإبحار في محاذاة الساحل بعد قليل. وقال: سنظلّ في خط ساحلي حتّى نصل إلى مسقط، على ساحل عمان، حيث نتزوّد بالمياه والمؤن قبل إكمال الرحلة إلى الهند، ولكنه استدرك أننا سنتوقّف بعد عشرة أيّام في سيراف على ساحل فارس، من أجل التزوّد بالمياه قبل ذلك، وأكمل من دون ابتسامة أو مظاهر رضى أو ارتياح، كأنّما الغضب الدائم حماية النَّاخُذَاة من العين، إن المياه العذبة في البحر كالناقة في الصحراء، إذا «نفقت أدرك صاحبها أنه مات». وقال لي: ألم تلحظ قوافل الجمال التي كانت نائخة على رصيف الميناء قرب أحمالها، ألم تلحظ كيف زيّنت أعناقها بالحبال الملوّنة ورؤوسها بما يشبه الأقراط، وعُلّقت لها الأجراس يهدهدها الرنين فإذا تعب الجمّال من الحِداء تولّت الأجراس تفتيت رتابة الطريق وضجر الطرق الخوالي؟ ومضى يتحرّى الفضاء والسماء، ولم يبتسم.

أخذت الريح تتبرّد شيئاً فشيئاً، وبعد قليل بدا لنا الساحل فرحنا نبحر على مقربة منه، وبدت الأرض من بعيد جرداء وذات طين كثير ووهاد كثيرة، وكانت الجبال منحرفة في حدّة هائلة، وأحياناً كانت تبدو لنا في وسطها طرقات عجيبة وقوافل، ولا أدري أيّ جاذبية كانت تشد القوافل إلى الطرق في هذه النزلات الحادّة، فلا تقع ولا تنزلق.

لم نطل الإقامة في سيراف، فما إن رسونا قليلاً حتّى تجمهر الحمّالون حولنا من كلّ مكان، وكانت السفن، صغيرة وكبيرة، تملأ الميناء والضجيج يتعالى، والحركة مخيفة السرعة والناس مع ذلك تعرف أين هي ذاهبة وماذا تريد. وملأ الحمّالون قرابنا بالماء بغير وقت، وتزوّدنا شيئاً من المجفّفات بناء على طلب رئيس المؤن، وأحضرنا ما نستطيع من الخضار. وفي المساء، من جديد، تركنا الريح للسواري وتركنا الأشرعة للرياح. وذهبت باكراً إلى النوم، فيما انصرف الرجال إلى المسامرة يضيء لهم سطح السفينة قمر بدر راح يسبقنا نحو الأفق كأنما الريح هي أيضاً تدفعه برفق في الأعالي.

بقي صوت الضجيج يهدر هدراً في أذني بعدما صارت سيراف على مسافة ثلاثة أيّام، وقد بدأنا نعرف جميعاً الآن معنى شيء اسمه الوحدة. ومع أنه كان لكلّ منّا عمله، فقد دخلت الوحشة إلى النفوس واشتاقت القلوب إلى مَن تهوى، وصرت أمرُّ بالبحّارة فأسمعهم يغنّون غناء حزيناً. وبدأت أفكر في شيء يعيد إليهم الحيوية وينشر بينهم الاستئناس. فالطريق طويل رتيب، والشواطئ صارت تخفيها كثرة الرطوبة، وإذا ما بدت في بعض نواحيها لم يبدُ منها سوى الصخور، وكان ذلك يجعلها

أكثر كآبة، والرجال الجدد الذين لم يعرفوا البحر من قبل بدؤوا يخافون. وصاروا في الليل ينظرون في الظلام فتتراءى لهم ترائيات ورؤى، وكان بعضهم يدّعي أنه يسمع الحيتان تغنّي، وسألت النَّاخُذَاة، مرّة، إن كان ذلك معقولاً، فأجاب في صرامته: «الآن همّي النجمة القطبية، تمتع أنت وأصحابك بغناء الدلافين».

وفهمت منه أن الدلافين حقاً تغنّي، وكنا نراها في النهار تلعب وتلهو وتقترب من العنقاء كأنها تمازحها، لكنّ في الليل لم نكن نرى سوى ما نتخيّله، وقد أفاق أحد البحارة مذعوراً ذات يوم؛ لأنه ـ كما قال ـ رأى حوتاً نصفه حصان يقترب من السفينة ويكاد يبتلعها، وساعدت نجوم السماء المتكاثرة مثل الخيوط الحمر في سجّاد تبريز، في إضاءة الفلاة حولنا، إلا أن العتم كان أقوى، وسألت النَّاخُذَاة هذا المساء كيف يعرف النجمة القطبية من بين هذا البساط التبريزي من النجوم؟ فقال: إنها دليل القوافل في الأرض ومرشدة السفن في أعالي البحر، وعلى النَّاخُذَاة أن يتعلّم أوّلاً دروب السماء؛ كي يتبيّن طريقه في البحر؛ لأن البحر بلا دروب، إنه صحراء من المياه تحيط بها اليابسة على شكل هودج، أو هكذا يقال، البحر ضياع والشواطئ مرافئ والنجوم سراج البحّارة وقنديل الربابنة، وحين تغيب خلف الغيوم أو تحجبها الأمطار الغزيرة، الله أكبر فهو المرشد الأخير.

ها هي، أخيراً، مسقط، وقد عرفتها مذ بانت لنا في الضحى من وصف البحارة الذين مرّوا بها من قبل، وكانت الميناء كأنها حفرت نفسها في الصخور الداكنة الألوان، وترتفع الصخور الكثيرة الثقوب قليلاً قليلاً حتّى تصير جبالاً عالية لها أشكال مختلفة ونتوءات كبرى في اتجاه البحر.

وخلافاً لبرودة الليل كان الطقس حاراً شديد الرطوبة، وبدأنا من بعيد نسمع صوت مؤذّن، ثمّ تبيّنت الصخرة الكبرى فوق الميناء فوجدتها مشقوقة إلى نصفين تقريباً ومعلّقة في الهواء برغم ثقلها، وفي الميناء كان حرس يعتمرون طرابيش حمراء، وكانت ألوان الرجال داكنة، وبينهم نساء من إفريقيا، والنساء كنّ يأتزرن ويضعن فوق شعورهنّ مناديل طويلة مزركشة، وقد خيّل إلينا حين ترجلّت أن صبيّة تشتري شيئاً من السمك قد نظرت إليَّ بطرف عينها نظرة فتاة إلى أغرَّ، غير أنني غضضت طرفي ومضيت، يلحق بي رجال البريد وبعض الملاّحين في الطريق نحو منزل قاضي البلدة؛ كي نقدّم له رسالة أمير المؤمنين وهديّته إلى الإمام الكبير. أمّا الرجال الباقون فقد ظلّ بعضهم على السفينة لحراستها، ورافق بعض آخر رئيس المؤن الذي لم يُضِعْ وقتاً في البحث عمّا يريد من زوّادت.

في الطريق إلى مقرّ القاضي شاهدت المزيد من نساء إفريقيا، وكان بعضهن يضع براقع ذهبية، وكانت تبدو على وجوههن علامات طيبة واضحة وفرح، وقد عرفن بالتأكيد أننا غرباء، ولو أننا، بحمد الله، مسلمون أيضاً، وعلى جانبي الطريق الطيني الأصفر كانت هناك مخازن فيها عرب وهنود. وكان بعض هذه المحلات يضع أمام بابه محرقة للبخور؛ كي يجتذب الناس لشرائه، وعرض آخرون أوانيَ للعطور، واتّكأ التجّار على أسرَّتهم كأنما يبدّدون الوقت وتعرّق النهار، وعرض بعض آخر مشغولات من الفضة وخناجر من الذهب وأساور وعقوداً ثقيلة، كما شاهدت من بعيد أصنافاً من الجواهر تلمع أمام أعين بائعين غير مكترثين لما يملكون.

كانت بيوت مسقط مبنية من الطوب مثل بيوت بغداد، لكنها كانت أكثر بساطة، وكان معظمها من طابق واحد أيضاً مثل بيوت بغداد، ولكن

دون حدائـق، وكانت متلاصقة يُلحقُ ببعضها أحياناً بيت صغير من غرفة واحـدة لرجـل فقير من الأقربـاء أو لبعض الماشية، ولسـت أدري إن كان البحر هو الذي التصق بصخور مسقط أم أن الجبل الصخري قد بني من قلـب البحر، ومـع أن النهار كان ما يزال في أوائله فقد بدا أن الجبل يلقي على البلدة ظلاً مثل غيم، وإذ سرنا في موكب واحد لاحظت أن عدداً قليلاً من رجال متقدمين في السنّ يمدّون أيديهم طلباً للصدقة، بعكس كثرتهم في سيراف.

عرفنا أنه مقرّ القاضي مـن الراية الكبيرة المرفوعة على سطحه، وكان أيضـاً من طابق واحد لكنه كبير ومتّسع، وقد ارتفع قليلاً عن الأرض وبنيت على مدخله درجات حجرية يختلف لونها عن لون الصخور المحيطة بمسقط. ووقف عند المدخل حرس بثياب ملونة وسيوف طويلة من الهند، وقيل لي فيما بعد: إنهم من البلوش، وإن الإمام يكثر منهم في جنده لولائهم المطلق.

رحّـب بنـا القاضي ترحيبـاً، ويبدو أن ثمّـة من سبقنـا ليبلغه بمجيء مجموعـة من رجـال أمير المؤمنين، ونظر إليّ أحـد رجال البريد، وقال في خبـث واضح: «لا شك أن زملاءنا هنا مهـرة وساهرون أيضاً». ويظهر أنه لم يبقَ تفصيل إلاّ وبلغ القاضي الشابّ، فالأسئلة التي طرحها عن العنقاء كانـت دقيقة حقاً، ويبدو أن السفينة أثارت فضوله أكثر ممّا أثارت رسالة سيّدي أمير المؤمنين إلى الإمام.

كان القاضـي شاباً وسيماً في مقتبل العمر، نحيلاً، مربوع القامة، مرتّب الأسنـان، أبيضها، وهـي منتظمة غير متفرّقة، وبرغـم يفاعه الظاهر فقد بـدت شعرات بيضـ كثيرة في لحيته المهندمة، وأمضـى الرجل الجزء الأوّل

من اللقاء في الحديث عن الإسلام، ثمّ انتقل إلى الكلام عن سيّدي الرشيد. وقال: إنه يسمع حكايات كثيرة عن بغداد من المسافرين والتجّار، وأن بعضهم يدّعي أنه دخل ديوان سيّدي ومولاي وعاد من هناك يصف عظمة ما شاهد وروعة ما رأى، وهو لا يدري إن كان هؤلاء زاعمين أمّ صادقين.

كان القاضي، وهو من أقرباء الإمام، يجلس متربّعاً فوق سرير عادي تقريباً، وإلى جانبه كان يجلس على سرير آخر قاضي الديرة، وكان يتربّع خلفه مدوّن معه ورق وقارورة حبر، وفي الزوايا والأركان وقف حرّاس آخرون من أجل نشر الرهبة في قلوب أصحاب الحاجات أو المفترين أو المخالفين. وقد دعانا القاضي إلى تناول الغداء في منزله القائم خلف ديوانه، وقبلنا شاكرين، وأصرّ أن نبقى في ضيافته ثلاثة أيّام فلعلنا نقابل الإمام. لكنّنا اعتذرنا شاكرين، وقلت: إن كلّ ما نريده هو المزيد من مياه مسقط العذبة التي ذاع صيتها بين البحّارة والربابنة، فوعد بأن يأمر رجاله بملء خزّانات السفينة بأعذب المياه، وقمنا إلى المقصف فرأينا رجالاً كثيرين جاؤوا أيضاً يتأدّمون، وجلس القاضي في منتصف القاعة وأجلسني عن يمينه، وأجلس القاضي المحلي إلى يساره، وتفرّق الباقون كيفما اتّفق. وكان هناك طعام كثير لكنه بسيط، وأكثره من الأسماك الكبيرة المشوية والأرز الهندي، وكان الأرز طيباً ممزوجاً بكل أنوع البهارات، ووضعت التمور أمامنا بين كلّ الأطباق، وكانت هناك فواكه ضخمة لم أرها من قبل، ولست أعرف ما هي.

أدّينا صلاة المغرب جميعاً على اليابسة ثمّ أبحرنا من «هذه الناحية ذات الأقاليم المستقلّة بأهلها، فسحة كثيرة النخل والفواكه من الموز

والرمّـان والنبق ونحو ذلك، وقصبتها صحار وهـي أيضاً على البحر وبها من التجّار والتجـارة ما لا يحصى كثرة، وهي أعمر مدينة بعُمان وأكثرها مـالاً، ولا يكاد يعرف علـى شاطئ بحر فارس في كل الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار». «وليس على بحر الصين بلد أجمل منه، (عمان) عامـر، آهل، حسـن، طيّب نزه، ذو يسـار وتجار وفواكه وخـيرات، أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدّة على البحر، دورهم من الساج والآجرّ، شاهقة نفيسة. دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن».

الجندب رحّال

راحت العنقاء تمخر بحر الهند والجوّقار أبداً، وما أدراك ما البحر الهندي، «فإن طوله يمتد من المغرب إلى المشرق، وذلك من أقصى الحبش إلى أقصى الهند، يكون ذلك مقدار ثمانية آلاف ميل في ألفين وسبع مئة ميل، ويجاوز جزيرة استواء الليل بالنهار بألف وتسع مئة ميل، يخرج منه خليج عند أرض الحبش ويمرّ إلى ناحية البربر يسمّى الخليج البربري يكون طوله مقدار خمس مئة ميل وعرض طرفه مئة ميل، ويخرج منه خليج آخر نحو أيلة طوله ألف وأربع مئة ميل، وعرضه في الأصل سبع مئة ميل، ومنتهاه، أعني أيلة، طوله ألف وأربع مئة ميل وعرضه في الأصل سبع مئة ميل، ومنتهاه، أعني طرفه الأدنى الذي يسمى البحر الأحمر، مقدار مئتي ميل، ويخرج منه خليج إلى ناحية فارس يسمى الخليج الفارسي طوله ألف وأربع مئة ميل وعرضه في الأصل خمس مئة ميل وطوله خمسون ومئة ميل، وفي البحر الهندي هذا من الجزائر العامرة وغير العامرة ألف وثلاث مئة وسبعون جزيرة منها جزيرة ضخمة في أقصى الهند مقابل أرض الهند من ناحية أرض المشرق تسمّى طبروباني يحيط بها ثلاثة آلاف ميل فيها جبال عظيمة وأنهار كثيرة، ومنها يخرج الياقوت الأحمر ولون السماء وحول هذه الجزيرة تسع عشرة جزيرة عامرة فيها مدائن وقرى كثيرة». «وقد أحاط به الأمم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم وعددهم إلا من خلقهم، وفي هذا البحر مغاصات الدرّ واللؤلؤ وفيه معادن الذهب والفضّة، وفيه

أنـواع الطيب والأفاويه والعنبر وأنواع الأدويـة والعقاقير والساج والخشب المعروف بـ الدارزنجي والقنا والخيزران».

وقفـت فوق ظهـر العنقاء وقد هبط الليـل وأغرقنا السكـون في لجّته. وكان صـوت سطح المياه يتداعب، ويتناهـى إليَّ كلازمة في أغنية. وأحياناً كان صوت السمك المتطاير يأتي فرحاً كأنما الحيتان تلهو، وخامرني، وأنا أتأمّل النجوم ثمّ أتأمل انعكاس بساطها الملون على صفحة المياه الناعسة، شعـوران، الأوّل بالاعتـزاز بأنني خـادم سيّدي ومـولاي، والثاني بشوق في حجم هذا العتم المضاء بكل نجوم الأرض، إلى أهلي في البصرة والى ابنة عمـي ليلى، وما هـو إلا يوم وليلة حتّى نحاذي شواطـئ السند، كما أبلغني النَّاخُذَاة هذا الصباح، والسند ـ إقليم الذهب والتجّارات والعقاقير والآلات والفانيـذ والخيرات والأرذاذ والموز والأعجوبـات ـ به رخص وسعة ونخيل وثمـرات وعـدل وإنصاف وسياسـات، وبه خصائص وفوائـد وبضاعات، ومنافـع ومفاخر ومتاجر وصناعـات ومصر جليل ومـدن سرية وقصبات وسلامـة وعافية وثـمّ أمانات، قد جاور البحر وشقّـه النهر وحوى النخل، وله سهل وزرع على البعل، مصر ظريف ونهر شريف وأمره طريف غير أن ذمّته مشركون والعلماء به قليلون ولا تصل إليه إلا بعد أخطار البرّ وأهوال البحر، بعد الشقّ وضيق الصدر».

بـدأ يكثر حـول العنقاء سمك «الأوال» فعرفت أن الـبرّ قريب واليابسة وشيكـة، وبدا مشهـد السمك طبيعيـاً للملاّحين، أمّا أنا فقـد خفت بادئ الأمـر. ذلك أن «طـول السمكة نحو مـن أربع مئة ذراع بالـذراع العمري، وهـو ذراع أهـل ذلك البحر، والأغلب من هذا السمـك أن طوله مئة ذراع.

وربّما يظهر رأسه وينفخ الصعداء في الماء فيذهب في الجو أكثر من مرمى السهم، والمراكب تفزع منه بالليل والنهار تضرب له بالخشب والدبادب؛ لتفر من ذلك».

في الغد بان لنا البرّ، فقال سليمان بن ناصر: إنها مدينة «ملتان»، ولن نبقى طويلاً بعد التزود بالمؤن والمياه لنكمل الطريق إلى الهند ومنها إلى سرنديب. «والملتان تسمى أيضاً فرج بيت الذهب، وبها الصنم الأعظم للهند الذي تحج إليه من أقاصي بلدانها، وسائر أصقاعها وتعظمه، ويتقرّب إلى هذا الصنم في كلّ سنة بمال عظيم فينفق على بيت الصنم وعلى سدنته والمعتكفين عليه منهم، وسمّيت الملتان باسم الصنم، والصنم اسمه الملتان، ومكان هذا الصنم في قصر مبني في أعمر موضع بسوق الملتان بين سوق العاجيين وصفّ الصفّارين، وفي وسط هذا الصنم ومن اعتكف عليه، وليس بالملتان من الهند والسند الذين يعبدون الأوثان غير هؤلاء السدنة الذين يحوزهم هذا القصر مع هذا الصنم، وهذا الصنم صورة على خلقة الإنسان مربع على كرسي من جصّ آجرّ، وقد ألبس الصنم جلداً يشبه السختيان أحمر فلا يتبيّن من جسده شيء إلا عيناه. فمنهم من يزعم أن بدنه خشب ومنهم من يدفع ذلك غير أنه لا يترك بدنه يكشف، وعيناه جوهرتان وعلى رأسه إكليل من ذهب مرتفع على ذلك الكرسيّ وقد مدّ ذراعيه على ركبتيه، وقد مدّ أصابع يديه كمن يحسب أربعة، وعامّة ما يحمل إلى هذا الصنم من المال يأخذه القرشي الهباري أمير الملتان وينفق على السدنة منه كفافهم، وسمّيت الملتان بفرج الذهب؛ لأنها فتحت في أول الإسلام وكان بالمسلمين ضاقة وقحط فوجدوا فيها

ذهباً كثيراً فاتّسعوا فيها بما وجدوه، وفي أهلها رغبة في القرآن وعلمه والأخذ بالقراءات السبع والفقه وطلبة الأدب والعلم.

«وبخارج الملتان على نصف فرسخ منها أبنية كثيرة تعرف بالجندرور، وهي معسكر الأمير ولا يدخل الأمير منها إلى الملتان إلا يوم الجمعة عند ركوبه الفيل، ويدخل فيصلّي الجمعة بأهلها ويعود على الفيل إلى إمارته».

سألت سليمان بن ناصر ونحن نقترب من البر: لماذا سميت السند بهذا الاسم؟ قال: «قالوا السند والهند كانا أخوين من ولد توقير بن يقطن بن حام بن نوح عليه السلام، وبها بيت الذهب، قال مسعر بن مهلهل: مشيت إلى بيت الذهب المشهور بها؛ فإذا هو من ذهب في صحراء يكون أربعة فراسخ لا يقع عليها الثلج ويثلج ما حولها، وفي هذا البيت ترصد الكواكب وهو بيت تعظّمه الهند والمجوس وهذه الصحراء تعرف بصحراء زردشت نبيّ المجوس، ويقول أهل تلك الناحية: متى يخرج منه إنسان يطلب دولة لم يغلب ولا يهزم له عسكر حيث أراد، وحكي أن الإسكندر لمّا فتح تلك البلاد ودخل هذا البيت أعجبه، فكتب إلى أرسطاطاليس وأطنب في وصف قبّة هذا البيت، فأجابه أرسطو: إني رأيتك تتعجّب من قبّة عملها الآدميون وتدع التعجّب من هذه القبة المرفوعة فوقك وما زينت به من الكواكب وأنوار الليل والنهار».

بقينا في ملتان ثلاثة أيّام، ارتاح خلالها أهل السفينة، وحللنا ضيوفاً على صاحب المدينة، وهو رجل كريم الخلق والنفس، ثمّ أبحرت العنقاء من جديد عبر بحر الهند، وفي الليلة الثالثة من الإبحار شعرت عند انتصاف الليل بقلق شديد، فقمت إلى ظهر السفينة أتمشّى وأستنشق

الهـواء الرطب، وكان البحّارة جميعاً نائمين وسواري العنقاء ترتفع وتهبط مثـل هودج، ونظرت في الليل حولي فإذا هـو شبه مضاء، وكان القمر بدراً ولكن في حجم مضاعـف، وكانت النجوم تتلألأ كأنها تغني، وشعرت كأنما الظلمـة تتراجـع أمـام النور الآتي مـن كلّ الجهات يدفعهـا كلّها في اتجاه واحـد كمثـل ريح تدفع سيلاً هائلاً، ولم أدرِ هل أخـاف أم أطمئن، وبرغم الهـدوء الشديـد تمسّكت بعمود السفينة، خشيـة أن أقع، وظهر لي قبالتي جنـدب صغير له عينان ظاهرتـان عظيمتا الألوان، وحاولـت أن أمدّ يدي إليـه لكنه فجأة تحدث إلي بنغمة مطمئنة، وقال لي في حنو: «من أنت أيّها البحـار وماذا أتى بك إلى المحيـط؟». أجبته: إنني البَصْري، خادم سيّدي الخليفة، وهل تسمح لي أن أسألك من أنت وكيف تتكلم بلغة الإنسان؟ غيَّر الجندب مكانه قليلاً وأجاب في صوت واضح: «أنا الجان رحّال، أقطن هنا في هذا المحيط منذ ثلاثة آلاف عام، ولي مهمّة واحدة هي تفقّد المسافرين والبحّـارة والسهر عليهم من هول البحـر كلّما استطعت، ومنذ أن ازدادت حركة السفن لم يعد في وسعي تفقد الجميع، إلا أنني أنتقل من واحدة إلى أخرى مـا استطعت، وأنتظر ها هنا عند هـذا الخليج الخالي من الأنواء، فأنـا محصّن ضدّ كل شيء سوى النـوّ والعاصفة، وعندها أصاب بالزكام وتدمع عيناي ويتغير لونهما وتقل قدرتي على الكلام».

سألتـه كيف عرف عنّا؟ فقال: إنه ينصت على سطح البحر إلى حركة الأمواج. «وعندما ترتفـع نسبة الموج وتزداد حركته ويقلّ ارتفاعه، أعرف أن جسمـاً من الخارج قد دخل في فضاء المياه، وأحياناً أصيخ السمع أكثر فيحمـل الموج أصـوات البحّـارة. وإذا كانـوا يحملون حجاباً مـن أحجبة

فرقتي، استطعت من خلال أحرفها أن أحدّد مواقعهم فأقوم إلى السفينة وأخاطب صاحبها».

قلت وأنا شديد التعجّب والانبهار: «هل هذا أنت إذن من أيقظني من ثقل الإغفاء؟ وكيف عرفت أنني صاحب السفينة؟»، قال: «لست أنا من يوقظ، هذه مهمة الجان يقّاظ بن غائم، إنه يفعل ذلك، ثم يخاطبني بعد أن يحدد لي الموقع تماماً». قلت: عفواً يا عزيزي رحّال، لكنّ لي بعض الأسئلة قبل أن تعود إلى بيتك في منتصف المحيط؟ قال بودّ شديد: «لك أن تسأل ما تشاء يا سندباد، فأنا لا أغادر السفينة قبل طلوع الفجر؛ لأن أشعة الشمس تغلق عيني وتحول لساني إلى مياه، فلا أعود أقوى على الكلام، ولا على الرؤية».

قلت له: يا عزيزي رحّال، إنك طيّب حقاً، ودعني أقل لك: إنني سعيد جداً بمعرفتك، وعندما علّقت أمّ عبد الله في عنقي هذا الحجاب لم أكن أعرف شيئاً عنه، أمّا الآن فقد فهمت كل شيء، إنني حقاً سعيد برؤيتك مع أنني كنت أتمنّى لو لم تكن جندباً.

ضحك رحّال ضحكة خلتها ستوقظ أهل السفينة، ثمّ قال: «أيها البصري، إني بعينيّ الصغيرتين هاتين أستطيع أن أرى ربع الأرض وثلث المياه، أمّا جسمي فلا حاجة به إلى طعام أو شراب، مرّة واحدة في السنة أقفز إلى البرّ طلباً لبعض الفاكهة فأختزن لبقية الشهور».

قلت: يا عزيزي رحّال، إن حديثك مبهج وقلبك طيّب ويعجبني تواضعك، فكيف تقضي وقتك عندما لا تكون هناك سفينة تتفقّدها؟ قال: «نادراً ما يحدث ذلك، ثم لا تنسَ أن يومي قليل وساعاته خاطفة، لكن الحقيقة أن لهوي الوحيد هو ركوب ظهور السمك، فهي أفراسي».

وأطلقت صرخة مذعورة وقد خفت على رحّال، وقلت له: «هل تركب الأورال أيضاً»؟ قال: «ولم لا؟ إن ما يخيفك يا عبدالله، لا يخيفني وعندما اضطرّ إلى ذلك أجل، أركب الأورال، لكن أفراسي المفضّلة هي الأبليل والقلارية والقرقاح واللاج واللباء والرقاص الرقروق والمرتنوس».

قلت: وهل تركب الطيور؟ قال: «إلا الملعون منها، لكنّ إذا ما تعبت في الغابة امتطيت طائراً من طيوري المفضلة وتمسّكت بعنقه وحلّقنا معاً فوق الأغصان والأشجار، وقبل أن تسألني ما هي أفضل أفراسي من الطيور فدعني أخبرك أنها وارية النهار، الحمراء الرقشة، الزرقاء، الوروار، أبو الحناء، البح، البلبو، الكركي، العقعق، الحجل والصقر، وهو للرحلات الطويلة».

قلت: يا رحّال، معذرة، فأنا أناديك منذ التقينا باسمك الأول، أرجو ألاّ أكون قد أسأت الأدب، قال: «هل يسيء الأدب يا عبد الله، من تلقّن الأدب في بيت الشيخ محمد، إنك تعتقد أنني لا أعرف الكثير عنك، لكن لا يغرك كثيراً صغر حجمي، أو أنني انتقيت شكل الجنادب»، قلت: هل تعرف شيئاً عن المستقبل يا رحّال؟ قال: «ليس البعيد منه، ماذا تريد أن تعرف على وجه الضبط؟». قلت: ماذا عن سيّدي الخليفة؟ هل تعرف شيئاً عن سيّدي أمير المؤمنين؟ تراجع رحّال قليلاً إلى الوراء، واكفهرّت الألوان الغامقة في عينيه. قال: «لقد كثرت الجواري في البلاط يا عبد الله، وتضاربت الأعين وتعادت الآذان والألسنة وكبرت الأنفاق وتكابر الحسد وثارت المكامن وكاد النساء كيدهن وإنني أرى غمّاً وهمّاً وبقعاً حمراء على الأثواب الموشّاة».

قلت: إنك تخيفني يا رحّال، قال: «إن أشعة الفجر ستبدأ بعد قريب ويجب أن أذهب، انزل أنت إلى فراشك ونم». ثمّ حلّق ورأيت جناحيه يكبران، ونزلت إلى فراشي وغفوت في نوم عميق ومعذّب، فلم أفق إلا لصلاة الضحى.

فإنهم لا يؤتمنون

نحاسيّ اللون، نحيل الجسم والوجه، طويل الساقين، عارٍ إلا من إزار صغير حول وسطه، خبيث الابتسامة، عميق العينين، مسلّح بقصبة طويلة ويلفّ رأسه بقطعة من القماش ربط إليها قطعة واسعة من ورق البرد تحميه من الشمس!

هذا هو «الكورافر». وهذا هو حظنا المحزن بعد خروجنا من مياه السند، واضطرارنا إلى الرسوّ في هذه البقعة الهندية بعد أن مزقت عاصفة عاتية سواري العنقاء في إعصار خاطف لم ندرِ من أين نزل علينا ولا إلى أين مضى.

لم تتمزّق سواري العنقاء فقط، بل تشقّقت جوانبها أيضاً وامتلأ سطحها بالمياه التي هطلت هطولاً، ومن سخريات المحيط ومفاجآته العجيبة أننا غرقنا في المياه العذبة من فوق، ونحن نبحر في أكثر المياه ملوحةً، وفي خلال دقائق من الرعد والبروق والريح والدخان الأسود، كانت العنقاء قد تحولت من سفينة جميلة إلى ما يشبه متسوّلي سوق السمك في بغداد. أسمالها رثّة ومظهرها كئيب.

وكنت قد رأيت الخوف في كلّ مكان، إلا في ملامح سليمان بن ناصر. لكنّ هذه المرة استطاع أن يكتم صوته كالمعتاد، ولم يستطع أن يخفي ذعر البشرة الفضّاحة، لقد طارت سمرته في لحظة عندما رأى غيوم الإعصار تهبط فوقنا بسرعة السيوف، وعمّ وجهه لون أبيض مذعور،

كان منـه أن ذعـري تضاعف وخـوفي استبـدّ، وظننتها الساعـة، أراها أمامي على جبين النَّاخُذَاة.

لكنّه عطف الله مرّةً أخرى ومهارة النَّاخُذَاة، على أننا ما إن خرجنا من العاصفـة في البحر حتّى دخلنا في ظلمة الـبر وافتراس الغوافر، وهم قوم معروفـون في طول الهند وعرضهـا بأنهم لصوص وقطّاع طرق، لا يعيشون إلا من السرقة والجريمة، وقد قيل لنا فيما بعد: إن بعض الحرامية يولدون لصوصاً ويموتون تائبين إلا «الكورافر» فهو يولد سارقاً، ويعيش لصاً ويموت حرامياً، والحقيقة أنني لا أعرف ما الفرق.

كنّـا جميعـاً متعبين متهالكـين عندما نجـح النَّاخُذَاة أخـيراً في وضع العنقـاء موضع الأمان والسلامة، وكنا جميعاً نحلم ونحن نطأ البرّ الموحل بمـكان آمن نفزع إليـه ونستسلـم إلى النوم وطلب الراحـة، لكننا فوجئنا بالغورافـر كالجراد، نساء ورجالاً، أشباه عـراة، يصطفّون على الشاطئ، ولم يكـن بينهم مسلمون ولا عرب ولا فرس ولا كان بينهم من يتحدث لغة الآدميـين. واعتقدنا في البداية أنهم من آكلي لحوم البشر فارتعدت قلوبنا التي أضعفها أصلاً رعد الإعصار، إلاّ أن النَّاخُذَاة ما لبث أن تعرف إليهم من أسنانهم فقال: اطمئنوا فإنما يريدون متاعنا لا أرواحنا.

أحـاط بنـا الغورافر وهـم يزعقون ويتصايحـون. وكان قـد بقي على السفينة عشرة من الملاحين فأطلق النَّاخُذَاة صفيراً قوياً لهم، فنزل منهم خمسة ومعهم سيوفهم البتَّـارة وأمسكوا فوراً بأحد الرعاع وقطعوا ذراعه بضربـة واحدة فقفـزت تتطّ على الأرض، فراعنا الأمـر وأفزعنا وأفزع المعتدين الذين لم يكونوا قد رأوا من قبل نصلاً مثل هذا النصل، وتفرقوا

هاربين غاضبين يزعقون تاركين الرجل يدمي على الرمل، فتقدم التَّاخُذَاة منه ونادى على عبد الرحمن الخليل أن يأتي بالعقاقير، وتجمع الغورافر على مسافة قريبة ثم اصطفوا في شكل عدائي، ووقفنا لا ندري ماذا نفعل وكيف نخرج من هذه المعضلة، وخطر لعبد الرحمن الخليل خاطر حسن. قال: الآن وقد أرينا هؤلاء المتوحشين مدى قدرتنا، فلنحاول شيئاً من اللين، فإننا سوف نحتاج إلى البقاء هنا أياماً طويلة إلى أن نسوي الأضرار في العنقاء، واقترح أن نقدم لنسائهم شيئاً من الفضة التي نحملها، فذهب ملاح وعاد ومعه أقراط من فضة اليمن، سلّمها لبعض النسوة، غير أن الرجال اختطفوها منهن ووضعوها حول أعناقهم وأخذوا يبدون طرباً وفرحاً، لكنّ أعينهم ظلّت ترسل الشر وظلّ الخوف حائماً.

وبعد قليل تقدم رجل حنطي اللون طويل الجسم على فرس جميل فتفرق هؤلاء، وكان يتكلم الفارسية فرحّب بنا وعرفنا بنفسه، وقال: لا تأمنوا لهؤلاء فإنهم لا يؤتمنون، وحدثنا الرجل أن الهند فرق فرق. وقال: «إنه منذ أجيال عديدة ولد لرجل يدعى ناجي ثلاثة أولاد من جارية، الأول كان «فيدان» الذي عرفت باسمه فرق الصيادين في الهند، والثاني كان أورولان وهو أيضاً أب الفرقة التي تعرف باسمه وهم قوم معتدون وغير مهذبين، ولا يعيشون إلا في الأدغال، والثالث كورافين الذي أسس فرقة الكورافر التي تعيش من السرقة والاستعطاء».

وقال لنا الرجل: لقد كنتم من أصحاب الحظوظ، فهؤلاء معروفون بأنهم يقتلون الناس أولاً ثم يسرقونهم، ولم يجرؤ رجال الملك على ضبطهم، فحيثما حلوا هربت الناس من وحشيتهم. فأخبرناه بحكاية

السيـوف، فأعجب بها، لكنه قال: إنه سيؤمّـن لحمايتنا فريقاً من رجاله، وسألنـا حاجتنا فقلنا: إصلاح العنقاء، فتدبر لنا تلك الليلة مناماً وطعاماً وقـدّم لنا منزلاً قرب منزل ساحر الفرقـة، وهو رجل عجيب الشكل طويل الأظافـر والضفائر، لا يحدّث الناس بل يمضـي الوقت في تركيب السوائل الغريبة، يهمهم طوال الوقت كلاماً غير مفهوم.

وتلك الليلة سمعنا عويلاً هائلاً وانتحاباً، وفي الصباح جاء الرجل الذي مـن فارس يودعنا فسألناه أسباب البكاء الـذي هدّ قلوبنا هداً، فقال: إنه في «ذلك النهار» مات المولود البكر لعائلة كورافية فيما هو في اليوم الثالث، وكان والد الطفل في الحقل فقام جده ودفنه بسرعة في فناء المنزل، وذلك لأنه خاف إن هو دفنه في مكان بعيد أن يأتي رجل معاد وينتشل جثة الطفل ويشرّحهـا ثم يغليها من أجـل أن يأخذ زيوتها ومن ثـم يرش هذه الزيوت على بيت الأب فتحمـل إلى العائلة الخراب والدمار، وكان في حادث سابق أن أخـذ الساحر من جثة الطفل الأسنان والعظام ودفنها تحت أرض الأب فلم تعد تعطي زرعاً ولا خصباً».

أصلحنـا العنقاء على عجل شديـد وأبحرنا في اتجاه سرنديب متوكلين على الله.

الرحلة إلى سرنديب

«وإذا بالرئيس، وهو على جانب المركب ينظر إلى نواحي البحر، ثم إنه لطم على وجهه وطوى قلوع المركب ورمى مراسيه ونتف لحيته ومزّق ثيابه وصاح صياحاً عظيماً فقلنا له: «يا رئيس، ما الخبر؟» فقال: اعلموا يا ركّاب السلامة، أن الريح غلبت علينا وقد عصفت بنا في وسط البحر ورمتنا المقادير لسوء بختنا إلى جبل الزغب، وهم قوم مثل القرود، وما وصل إلى هذا المكان أحد وسلم منه قط. وقد أحس قلبي بهلاكنا أجمعين».

شهرزاد، حكاية السفرة الثالثة

«وسرنديب ثمانون فرسخاً في ثمانين فرسخاً، وبها الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام، وهو جبل ذاهب في السماء يراه من في مراكب البحر من مسيرة أيام».

ابن خرداذبة

«وبسرنديب مغاص اللؤلؤ بحرها كله حولها. وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم عليه السلام، وقدمه في صفا رأس الجبل منغمسة في الحجر قدم واحدة، ويقال: إنه عليه السلام خطا خطوة أخرى في البحر. ويقال: إن هذه القدم التي على رأس الجبل نحو من سبعين ذراعاً. وحول هذا الجبل معدن الجوهر الأسمانجوني».

حكاية التاجر سليمان

عند جبل سيدنا آدم

منـذ ثلاثة أيام وثلاث ليال وريح هادئة دافئة تمسك بأشرعة العنقاء، تدفعهـا في اتجـاه ساحل سرنديب، وقد شعر الجميـع باغتباط شديد بعد العاصفـة الرهيبـة التي كادت تـودي بنـا إلى الهلاك، أيقـن البحارة في أعماقهم أن لذلك علاقة بالإيمان والتوكل على الله، سبحانه وتعالى، فأي هـدف أسمى من البحث عن جبل سيدنا آدم عليه السلام، ولكن أيضاً أي مهمة أشق وأتعب من ركوب البحار والبراري والغابات والقفر المائي الكبير، في سبيل ذلك، وقد قال النَّاخُذَاة: إن أفضل الطرق للوصول إلى الجبل هي أن نحاول الرسو في جنوب البلاد، ومن هناك نتخذ حرساً وحمالين ونتجه شمالاً، فنكون قد قطعنا تقريباً ربع البلاد في مسيرة أيام طويلة وإذ رحنا نقترب مـن الشاطئ راحت سرنديـب تتكشف حقاً عن أجـزاء من جنات عدن، غابات من الأشجار الهائلة القامة تتلاصق رؤوسها حتى تبدو كأنها بحر آخر إلى جانب بحر الهند، بحر أخضر مرتفع تصاعد من بين كثافته أعمـدة من النور، راح البحارة يكبرون بصوت مرتفع، فإذا كانت هذه هي الأدغـال عن بعد فكيف هي عن قـرب، ولم يكن في مدى العين أثر لبشر أو لعمـران فازدادت رهبتنا، وأخذ النَّاخُذَاة يناور حتى نرسو في مياه عميقة، فقـد خيل إليـه أننا في مياه شفافة عذبة ولم نعـد في المحيط. لكن المحيط هنا شفاف مثل البلور، صافٍ مثل عيون الأطفال، وكانت المياه عميقة جداً، لكن صفاءها مبهر ومخادع للعين، ومبهج للنظر، ومذهل للنفوس، ونظرنا فرأينا تحتنا السمك الكبير والصغير بألوانه، وحيَّات مائية، وهي ألوان لم

نعرفها في البر ولم نرها على اليابسة من قبل، وخيل إلينا أننا نسمع صوت الصمت آتيا من عمق المياه، والتقى البحر بالبر دون صوت أيضاً إلا من حفيف موج يداعب أحرف الرمال مداعبة، رسونا في هدوء كأننا نخشى أن نوقظ الأدغال القريبة، وما إن نزلنا نتفقد المكان، قبل أن ننطلق، حتى أخذنا نسمع أصوات الطيور تتبادل التغريد والغناء والثرثرة، وكانت الأصوات أيضاً عميقة كأنها آتية من تحت الماء، وإذ تقدّمنا قليلاً سمعنا أصوات فيلة هائجة من بعيد، فعرفنا أن في المكان إنساً، لكنَّ عبد الرحمن الخليل استوقفنا قائلاً: إنه من الأضمن أن نسير في محاذاة البحر حتى نصل أوّل مكان آهل، فالبوصلة التي معنا لا تكفي لأن نستكشف الطريق، والضياع في الأدغال مثل الضياع في أعالي المحيط، عذاب أو هلاك.

تراجعنا قليلاً، وعندها قال النَّاخُذَاة: إنه ما دمنا سنعود فالأفضل أن نبحر من جديد فنتّجه شرقاً بحثاً عن أقرب ميناء آهل إلى جبل سيّدنا آدم، ثمّ عدنا فقررنا أن نرتاح الليلة، حيث نحن في هذا الجوّ الممتع وفي الصباح نبدأ الرحلة حول الجزيرة باتجاه الشرق.

عدنا إلى السفينة حوالي العصر، استرحنا قليلاً وطلبت من رئيس المؤن أن يعدّ للطاقم عشاء شهياً، فقد أصبحنا الآن والحمد لله على مقربة من اليابسة ولم نعد نخشى من نفاد الطعام، وجلست على ظهر السفينة أتأمّل أطراف الغابة أمامنا، فرأيت قروداً تقفز كأنها تطير، ورأيت طيوراً هائلة الحجم تهبط فوق الشجر وتربض فوق الغصون كأن ليلها قد بدأ، وناديت النَّاخُذَاة سليمان؛ علّه يشاركني متعة هذا المنظر الهائل، لكنه أجاب كالعادة باقتضاب: «تمتع أنت، أمّا أنا فسوف أؤمّن حرس السفينة وأترك

مرساتها شبه محلولة تحسباً للطوارىء» وقلت له في سذاجة: «ممن تحرس السفينة في هذا المكان الخالي إلا من الطيور الذاهبة إلى رقادها؟»، فقال: «إذا نامت عين الحارس قامت يد السارق».

تأدّمنا وتحلّينا وتفرّق الرجال في حلقاتهم، و بقي عبد الرحمن الخليل وحيداً، فجلس معي وراح يروي لي حكايات من طفولته، وهي حكايات لا تنتهي، ولا تعرف غالباً طفولة عبد الرحمن من طفولة غيره، وكنت أقول له ذلك لكنه كان يضحك، إلا أنه هذا المساء كان متجهّماً على غير عادة، وسألته: إن كان هناك من سبب؟ فقال: إنه تفقّد الأدوية والعقاقير فوجدها ناقصة جدّاً منذ المرض الذي أصاب البحّارة قبل أسبوعين، وكان هناك شيء آخر يقلقه أكثر، فالمياه بدأ يصفرُّ لونها قليلاً، وهذا يعني أنها ستتحول خلال يومين آخرين إلى مرض آخر، وقال : «لست أدري ما الذي حمل النَّاخُذَاة الآن على العودة، إن فكرة الإبحار قاتلة، لقد كان علينا أن نمشي حتى نصل إلى مكان آهل. إن لون المياه يقلقني».

عرفت الآن سبب شعور «الأرمني» بالخطورة وتجهّمه على غير عادته. لكنّ كان من الصعب أن أفاتح النَّاخُذَاة بشيء، فأنا صاحب الرحلة، أمّا هو فربَّان السفينة، وأنا الآمر في البرّ أمّا هنا فهو الآمرُ الأخير. وقد كان هذا أوّل شيء قاله لي وزير البريد: «البحر لا يحتمل رئيسين، أنت لك الموانئ والعواصم والمخازن والمال وما تشاء، أمّا سليمان بن ناصر فهو آمر البحّارة وسيّد الأشرعة وربَّان العنقاء، أنت تمثّل سيّدي أمير المؤمنين لدى الأمراء والعمّال وفي البلدان، أمّا هو فثقة أمير المؤمنين الكلية ما دمتم لمّا تطؤوا اليابسة بعد. فما يعرفه سليمان بن ناصر من أحوال البحر لا يعرفه أحد».

بـدأت الشمـس، إلى شمالنـا، تستعدّ لرحلتهـا اليوميـة إلى الغروب، وأخـذت ألـوان السماء تتغـيّر متدلّلة في بحـر البنفسج، وخفتـت أصوات الطيـور في الغابة قبالتنا ولم نعد نسمع سوى صدى أجنحتها تنتفض قبيل الرقاد، وازداد صمت الغابـة عمقاً وازدادت خضرتها طراوة، وبين لحظة وأخـرى، وهدوء وآخر، كانت تطلع صيحة من مخلـوق لا نعرف ما هو، ثمّ تهدأ من جديد، ثمّ فجأة أحسسنا كأن سراباً هائلاً من رفوف كبيرة يدوّي بصـوت أجنحته، وارتفع صوت الحراسـ في فزع: اهربوا، اهربوا، الزغب قادمون! الزغب قادمون!

وفي لحظة كان سليمان بن ناصر على الدفّة يعطي الأوامر ويرفع الأشرعة ويرفـع المرساة مع بحّارته، ونـادى علينا جميعاً أن نساعـد الحرس، وفيما السفينـة تنزاح نحو المياه العميقة تطلعت في جانبها فرأيته مغطى بالسواد. وأيقنـت أنهم الزغب يهاجموننا طلباً للّحـم والأكل، والزغب (vedda) قوم سود من سكان الأدغال، لا يخالطون أحداً ولا يخرجون إلى الملأ ولا يتكلّمون لغـة أحد. «وهم قوم متوحّشـون، وكما هناك حيوانات مفترسة هناك رجال مفترسون أيضا، وأرض بنتان مغطاة بالأشجار الشاهقة ومليئة بالوعول، وفي هـذه الأرض كثير من هؤلاء المتوحشـين، ويسمونهم الزغب وهم لا يقطنون قـرب قاطن، إنهم لا يحرثـون أرضاً ولا يزرعون، فطعامهـم دائماً اللحوم. وهم يجيدون استخدام القوس ويحملون دائماً فأساً يربطونه إلى خصورهم لجـرف العسل من قلب الشجر، ليست لهم بيـوت ولا مدن بل يعيشون تحت الشجـر قـرب المياه، وهم لا يقصّـون شعورهم أبداً بـل يجدلونها إلى فوق. ولهـم طريقة غريبة في حفـظ اللحوم، فهم يحفرون شجـرة ويضعون فيها

عسلاً ثمّ يضعون اللحم ويغلقون الحفرة بالطين إلى أن يحتاجوا اللحم، وفي أعراس بناتهم يقدّمون كلاب الصيد كهدايا».

كانت السفينة تجرّ نفسها بصعوبة إلى المياه والزغب يتكاثرون ويتسلّقون، وراح البحّارة والحرس يصرخون فيهم بلا جدوى، وطعن الحرس أربعة أو خمسة منهم لكنهم ظلّوا يتسلّقون وينزلقون بأعداد كبيرة وهم يطلقون أصواتاً غير مفهومة وفيما لا يزال النَّاخُذَاة يصارع كان «الأرمني» قد عاد من أسفل ومعه مسحوق عجيب خلط منه كرات في الزيت وأشعلها فأضاءت ورمى بها الزغب فراحوا يهربون ويهرولون وهم يطلقون صراخاً عنيفاً ويتوعدون، ودام ذلك كلّه سحابة قصيرة من الوقت، وعرفت آنذاك لماذا لا يترك النَّاخُذَاة لحظة واحدة للمصادفات، فسوء الطالع وحسن الطالع سيّان، كلاها لحظة بين لحظتين، والفارق لا يرحم.

ظلّ صراخ الزغب يلاحقنا، وقد شكرنا الله تعالى على خلاصنا من هلاك محتم أو مصيبة كبرى، فهؤلاء قوم بدائيون كفّار لا دين لهم حتّى عبادة الأصنام. وهم يتبعون، عادة، الصيّاد الأكثر مهارة بينهم، لكن في المقابل فإنهم لا يعرفون الشرور إلا في حاجات بدائية كالأكل، ولا فنون لديهم ولا حضارة، وهم يرسمون بالرماد وتكون رسومهم غالباً أشكالاً لها علاقة بالطعام، ولا موسيقى لديهم ولا آلات، وقد قيل: إن أحداً لم يستطع التعامل معهم من قبل سوى التجّار العرب، ولم أستطلع تفاصيل هذا القول، لكنني أعرف أن ثمة عرباً كثيرين استوطنوا البلاد، منذ الفتوحات الأولى والخلفاء الأول رضي الله عنهم.

هدأت خواطرنا قليلاً، وأبحرت العنقاء في محاذاة الشاطئ من جديد. وفي الصباح أفقت متأخراً، فوجدت أن أشعة الشمس النحيلة قد حوّلت

سطح البحر إلى مربّع من الذهب، وظلّ صوت الصمت يأتينا من الأدغال المحاذية. «ولا أذكر أنني سمعت صمتاً أجمل من هذا الصمت في حياتي».

تمعّنت في الغابة، فوجدت الشمس تنشر سحرها كما تفعل بسقف البحر، لكنّ سقف الغابة كان كمثل سجادة من القيروان، وبدا وكأنّ الشمس أيقظت الغابة كلّها في أمر واحد، وليل الأدغال قصير ونهاراتها صعبة. وعمقها غامض، وهي مثل البحر بلا طرقات، ظلّلنا نتجه شرقاً حتى اليوم العاشر، وكان سوء وضع المياه قد بلغ ذروته، وبدأت الجرذان تظهر حول المخازن، وقبل أن يدبّ الهلع حقاً صرخ النَّاخُذَاة بلا مبالاة: «انظروا تلك القمّة البعيدة التي تغطيها الغيوم». نظرنا فراعنا مشهد لم يصفه الشعراء ولم تلغه المخيّلات، قمّة خضراء تطوّقها هالة من السحاب الأبيض وتدور حولها كالطواف، وجبل شاهق بألفِ باع وذراع وفرسخ، وفي علوّه وفي ذراه وفي خصوره على السواء، خضرة كثّة كالضفائر، أستغفر الله العليّ العظيم، أن أشبّه جبل سيّدنا آدم عليه السلام، أوّل الأنبياء، بحُسنٍ من ستّنا حوّاء. لكن يخونني الآن أيّ تشبيه آخر.

الحقيقة أننا بدأنا نرى تلالاً كثيرة، لكنّ أعلاها كان جبل سيّدنا آدم عليه السلام، وهناك أيضاً صخور في أحجام تلال أو جبال، والنَّاخُذَاة يقول: إننا في الصباح سوف نرسو على شواطئ إقليم أونان فنبحث لأنفسنا عن ميناء آهلٍ بغير الزغب والرعب، هذه المرة لم ننزل جميعاً من السفينة، بل ترجّل رجال البريد يستكشفون، وجلسنا نحن ننتظر متلهّفين. وعند الضحى عادوا متعبين وهم يحملون قِرباً جديدة، وخبَّروا أنهم رأوا أناساً لطفاء المعشر في قريتين قريبتين. لكنّ عددهم قليل، وقد أخبروا أن وباء مرَّ بالمنطقة قبل وقت وحصد الأرواح كالريح الغالبة، والبيوت الآن

مهجـورة ومن بقي خائف وحزيـن، ولا يعرفون اسم المرض أو أسبابه لكنه غطى على القـرى فشحبت الوجوه واصفرّت، وشعـر الناس بعذاب شديد وراحوا ينهارون كالورق الجافّ العروق.

وجلسنـا نتدارس إن كنّا نغامر أمّ نبحر مجدّداً نحو ميناء آخر، وتركنا الأمـر «للأرمني» باعتباره خبيرنـا في الطبّ والصيدلة، لكنّ عبد الرحمن قال: إن الأصول تقضي بأن يكون القرار، حتى في هذه الحال، لسليمان بن ناصـر، وأطرق النَّاخُذَاة قليلاً، ثمّ قال: مـا دام ما يزال في القرى أحياء، فلابدّ أن الوباء قد مضى، وعلى أي حال فقد أدركنا الوقت، ولابدّ أن نبدأ مسيرتنـا في البرّ؛ كي نصل الجبـل ونعود ونحن ما نزال في موسم الإبحار إلى البصرة من جديد.

قرّرنـا أن نمضي ليلة أخـرى على السفينة، أعددنـا أسلحتنا وزوّادتنا وعقاقيرنا، وفي صباح اليـوم المقبل أدّينا صلاة الفجر جميعاً وتوكّلنا على الله تعـالى، وتـلا النَّاخُذَاة آيـة الكرسي بصـوت عالٍ وحـاول ترتيلها ما استطـاع، بلغنا القريـة الأولى فوجدناها كما وصفهـا عمّال البريد، كانت هنـاك عائلتان فقـط، كلّ عائلة مـن ثمانية، زوجان وأطفـال بين الرابعة عشرة والثالثة، وكان الجدّ في العائلة الأولى، باسماً يرخي شاربين طويلين ولحية قصيرة ويلفّ حول نفسه شملة بيضاء، أمّا الزوج فكان يرتدي بذلة كالـروم، والمرأة كانت حسنة الملامح داكنة اللـون، وأولادهم كانوا يغطّون أجسامهم كيفما اتفق.

سألنـا عـن أقرب دليل يقودنـا في الطريق إلى الجبـل، فقالوا: مسافة يومـين في الأدغال، وطلبنا بغالاً أو خيولاً، فقالوا نفق في الوباء كلّ شيء إلا

الثعالب والذئاب فما تزال تعوي جائعة في الليالي، إلا أن الجدّ رسم لنا على الرمل، وبالحصى الصغيرة، طريقاً نشقها في الغابة حتّى نصل إلى أوّل بلدة مأهولة قبل بدء الرحلة نحو أنورادهابورا.

نسخ عبد الرحمن خريطة الطريق على ورقة واشترينا من الجماعة سيفين عريضين لقطع الأغصان المتدلية، ومرّة أخرى توكّلنا، إلى الأمس، كنّا ما نزال نرى الأدغال من البحر، أمّا الآن فها نحن ندخل مجاهل من الشجر والكائنات لا نعرف منتهاها، وبعد ساعات قليلة في الطريق الضيّق شعرنا أن الغابة تطبق علينا بكلّ أوراقها الرطبة، وخفّ ضوء الشمس. وبردت أشعّتها، وتساوى كلّ شيء كما يتساوى الفراغ على سطح المحيط. وصار للصمت هنا صوت حقيقي ومقلق، وكَثُر البعوض والمخلوقات الرطبة. وتدلّت العناكب هائلة الحجم كأنما هي هناك منذ الخليقة، وصرنا نلقى أحجاماً ضخمة جدّاً من شجر «البو» المقدّس لدى أهل البلاد، والذي يقال: إنه أقدم شجر على وجه البسيطة، وبدت ثمار في الشجر كأنها جواهر وجمان، ومن هنا وهناك أخذت تهرب مبتعدة، طيور حمراء مذهبّة تمجّد ألوانها الخالق في خلقه، وكان سيرنا بطيئاً لكنه حثيث، والغريب أن الخوف هو الذي بعث فينا الشجاعة والقوّة، وظلّت الطريق واضحة على وعورتها. وأخذنا نتحادث بصوت عالٍ؛ لنطرد الخوف ونبعد الأفاعي والوحوش، وكانت القرود تلاحقنا في أعالي الشجر مبتهجة بوجود أخيلة تمشي على أرجل، ضاحكة تقهقه منّا ومن مغامرتنا في الغاب الصعب.

أمضينا الليل نصف نائمين، وقام الطبّاخان الهنديان بالحراسة، فقد ادّعيا معرفة بالغابات، ووضع كلّ منّا سيفه إلى جانبه. وبناء على نصيحة

عبد الرحمن وضع كلّ منّا عوداً طويلاً في فمه من منتصفه، بحيث إذا حاولت أفعى ابتلاعه ما استطاعت، وكان الليل همساً دائماً وهسسة، وصمتاً مخيفاً، وكان يخيل إلينا أحياناً أن أجساداً ثقيلة تتحرك في كلّ اتجاه، ومع أن القمر بدر الليلة فلم نعد نراه لكثافة الأشجار والأوراق والأغصان، وراح بعض الملاّحين يرتجف من دون أن يجرؤ على البوح بذلك.

أفقنا على عالمين: عالم من الفراش الجميل وعالم من العناكب، فراشات في كلّ مكان، من كلّ لون، من جميع البقع، وذات أجنحة في عرض جناح طائر صغير، فراشات من كلّ لون، لون بعد لون بعد بقع، ما عرف البشر وما لم يعرفوا، ما تميّزه العين وما لا تميّزه، كلّما خطونا وسُمِعَ وقع أقدامنا فوق الورق الرطب أو ارتطام أكتافنا وسواعدنا ورؤوسنا بحبال الشجر، طارت فراشات من هنا وفراشات من هناك، خائفة كأنها لم تسمع وقع قدم أو حفيف شجر من قبل، زرقاء خضراء منقّطة مرقّطة مقلّمة بيضاء ناصعة، سوداء داكنة، صفراء، تحلّق في أناقة الأميرات تطير ناعمة مثل حلم جميل قصير، لكنها تعود، أيضاً في رقة الحلم الجميل، القصير.

شعرت برغبة عميقة لكتابة شيء من الشعر، وقلت لسليمان بن ناصر: «ما رأيك لو نسمّي هذه غابة الفراشات؟» فقال من دون أن يبتسم: «صبراً يا بصري، صبراً. فبعد قليل قد نسميها غابة الأفاعي، ولا تنسَ أن كلّ مخلوقات الله كانت في جنّة عدن، ونحن لم نقطع شيئاً منها بعد». ثمّ قال: «الفراشات تكثر هنا؛ لأنها لا تحبّ نور الشمس، إنها تتكاثر في الظلّ وفي الغابات الكثيفة؛ لأن المكان رطب والضوء يبدو لها هنا وكأنه أخضر اللون. حتّى الفراش تخدعه الأضواء يا بصري، والصباح في بدئه بعد».

لم تمضِ ساعة على كلام النَّاخُذَاة حتّى انتقلنا من مملكة الفراش إلى مملكة العناكب، فجأة صارت بيوت العناكب على كلّ الأغصان وكلّ الأوراق، وتتدلّى أمامنا فلا نستطيع المرور إلاّ بعد أن نقطع خيوطها تقطيعاً، ثمّ ازداد تكاثر الحشرات والذباب والنمل الطائر والحرَّاقات والعَلَق، ولم نعد نسمع صوت الطيور في الجهات، وأسرعنا كمن يسرع في كابوس أو في دوار، نريد مكاناً نستريح فيه قليلاً، وحذَّرنا عبد الرحمن من أن نترك البعوض يلاحقنا؛ لأنه قاتل هنا، وقال: إنه يغرف من العسل ومن السموم معاً، ولكل مخلوق مناعة في الغاب إلا البشر، فلا مناعة لهم سوى سيوفهم وخناجرهم.

وكدت أقول: وبوصلتهم، فقد تعطلت البوصلة الوحيدة التي كانت معنا. وعندما أخبرني رجل البريد بذلك طلبت إليه أن يخفي الأمر؛ كي لا يدبّ الذعر أكثر، ثمّ أمضينا ليلة أخرى تحت سماء من الشجر لا نجوم فيها ولا قمر، وبعد مسيرة قصيرة من صباح اليوم المقبل رأينا أنفسنا نخرج فجأة إلى الفلاة المشمسة، تطلعنا أمامنا فتشمّمنا أثراً لبشر، أو هكذا خيّل إلينا، ثمّ سمعنا النَّاخُذَاة للمرّة الأولى يهتف بكثير من الفرح: «الله أكبر، الله أكبر، اللهمّ صلِّ وسلّم على سيّدنا محمد، الله أكبر».

نظرت إلى شمالنا، فطالعتني جنّة عدن في أجمل ملامحها، مياه وفيرة تسقط دفعة واحدة وبلا انقطاع من علوّ جبل شاهق في ارتفاع قامة 50 نخلة أو أكثر، وخلف المياه اخضرّت الصخور بالعشب وفي الأسفل عند الأرض حفرت المياه لنفسها بحيرة واسعة خضراء يتموّج فوق سطحها لون كالعقيق، وعلى أطراف البحيرة بعيداً عن مسقط المياه ووقعها، اصطفّت

الطيـور تترطّـب بالرذاذ وتغنّـي كأنها تـردّد أنشودة النهـر المنحدر من الأعالي، مثل نسر ضمّ جناحيه وهوى.

مجّدناه تعالى وركعنا نصلّي، وقال سليمان بن ناصر: إنه في كلّ طوافه حـول الأرض لم يرَ مشهداً في هذه الروعة، ثمّ عدونا فرحين نحو البحيرة نشـرب ونلاعب الطيور، وكان بعضها لا يكترث كأنه يعتقد أننا من سكّان الغـاب، ولاحقتنـا طبقة لذيذة من الرذاذ تغطّـي وجوهنا بعد زمن طويل من رطوبة البحـر والملح، ووقفنا نتأمّل هذا النهر النازل من الجبل وكأنه نازل مـن السمـاء، وكان من حول البحـيرة شجر مثمر، فأكلنـا وتلذّذنا بطعمه الغريب، وهو كالتمر وقد رش فوقه قليلاً من الملح، أو بالزبيب وقد خلط بشيء من البهار.

أمضينـا الليلة قريباً من السفح، وفي اليـوم المقبل أكملنا الاتجاه نحو أوفـا في الأواسط، تسبقنا وترافقنا الطيـور المغرّدة من كلّ نوع: الصافر، والـزرزور، النقّار المضحـك، ورفوف هائلة الأعداد مـن السّمّن والسلوى والطيـور الاستوائيـة والشنقب الجهلـول والذعرة العجيـب الذنب المهتز الرأس مثل بوصلة تائهة، وأسراب الغربان البقعاء من العقعق، وأنوع من الدجاج البرّي وطيور من السماء وطيور من الأرض، وطيور.

لسـت أدري ماذا أسمّي سرنديب، ففيها من الجبال ستّة، ومن الأنهر سبعة عشر، ومن الأعراق سبع، ومن الزهر ألف ومن الفراشات ألف ومن الشجر أقدمه وأجملـه منذ أيّام أبينا آدم عليه السلام، وجبل سيّدنا آدم عليه السلام ليس أعلى قمم سرنديب بل يعلوه جبل يقال له: بيداراتاغالا، على أن «قمّة آدم» مرشـدة البحّارة والمسافرين ومقصد الحجيج، ويقول

سليمان بن ناصر: إن الذين يأتون سرنديب من خليج البنغال يرشدهم جبل آخر أدنى من جبل سيّدنا آدم بنحو ألف شبر، ويسمّونه نامونكولا. وهو مقدّس عند البوذيين، أمّا جبل آدم فمقدّس لدى كل الخلق.

بلغنا فجأة قرى عامرة، وكان ضجيج، ورأينا في الساحة أطفالاً يداعبون دبّاً ذا حجم هائل وهو شبه نائم، وجاءنا على الفور عدد من الرجال وعلى رؤوسهم قلنسوات فتعجّبنا من أمرهم، لكنّ العجب زال سريعاً حين ألقوا علينا السلام، وقال كبيرهم بالعربية: «من أنتم وماذا جاء بكم ومن هو كبيركم؟». وخجلت من نفسي وأنا أتقدّم الجميع، وقلت للرجل: إنني رئيس القوم، وإننا مسلمون من بلاد سيّدي الرشيد، نصره الله، وشرحت له أن سيّدي ومولاي أوفدنا إلى جبل سيّدنا آدم؛ كي نضع له وصفاً دقيقاً لما نرى.

وانحنى الرجل عند ذكر مولاي وسيدي أمير المؤمنين وأدّى الشهادة أمامنا، وأخبرنا أنه من تجّار عرب تحطّم مركبهم في عاصفة هائجة أهلكت معظم الركاب، ومن نجا ضاع في البراري والأدغال، وكان بين التجّار جميع إخوانه وقد هلكوا جميعاً، فدب فيه حزن كبير لا ينتهي وقرّر ألّا يعود إلى البحر مرّةً أخرى، فلمّا وصل إلى هذه الديار وليس معه من المال سوى ما يحمله على نفسه من جواهر، استقبله ناس لطفاء وتزوّج منهم، وهو الآن يدعوهم إلى الإسلام، وقادنا الرجل، ومن معه من الرجال يتبعونه، حتّى وصلنا إلى منزله فأمر بإحضار الطعام والشراب ولم يكن له ما يكفي الجميع، فذهب رجال آخرون يجمعون ما يستطيعون من بيوت القرية، ثمّ تجمّع الجميع حول بيته المصنوع من القش، فقال: «لقد عرفوا أنكم من بنيّ قومي فجاؤوا يرحبون».

وقلت للرجل: كل هذا ولم نسألك عن اسمك بعد؟، فقال: «اللهمّ صلّ وسلّم على سيّدنا محمد، أنا المدعو أحمد المُكنّى بالكوفي، لكنّني كنت مقيماً في سيراف مع إخوتي وعائلتي».

طلبنا من أحمد الكوفي حمّالين وبغالاً ومرشدين يتقدّموننا إلى الجبل. وأخبرناه ما حلّ بنا وكيف أنهكتنا الطريق، فقال: تستريحون هنا ثلاثة أيام وبعدها يكون ما تريدون، أمّا مرشدكم فلن يكون أحد سواي، أما بلغكم الحديث الشريف إن «خير بقعة ضربت إليها آباط الإبل مكّة ومسجدي هذا والمسجد الأقصى وجزيرة سرنديب». وقال الكوفي: «سامحكم الله، فقد ضللتم الطريق، فلو أنكم رسوتم في مكان أبعد قليلاً، لمّا كان جبل سيّدنا آدم عليه السلام إلا على مسافة يومين من البحر، أمّا الآن فعلينا مسافة خمسة أيام، اتّكلوا على الله».

ارتأى سليمان بن ناصر أن نقبل الضيافة هذه المرة، فالرجال متعبون وقد هدتهم أيّام القلق، وقال: نعطي للكوفي من الهدايا ما يعوّض له ما لا طاقة عليه، إنه من أهل الكرم الذي يفقر، وطلبنا إليه أن يرسل جماعة معها طعام ومياه وحرّاس لمساعدة حرس السفينة الذين ظلّوا عليها خوفاً من أن تنهب وعليها ما عليها من هدايا، وخاصة إلى ملك سرنديب. «وملك هذه الجزيرة يسكن من هذه المدن «أغنا»، وهي مدينة القصر، وبها دار ملكه، وهو ملك عادل كثير السياسة يقظان الحراسة، ناظر في أمور رعيته، حافظ لهم وذابٌّ عنهم، وله ستّة عشر وزيراً، أربعة منهم من أهل ملّته، وأربعة نصارى، وأربعة مسلمون، وأربعة يهود».

كانت الطريق ضيّقة، وعرة، بالكاد تتّسع للرجال والدواب، وكانت ترتفع حادّة في أمكنة أخرى وتنخفض حادة في أمكنة أخرى، وفي الحالتين تضيق الأنفاس أو تنحبس، لكن تبيّن لنا أن أحمد الكوفي خبير بالبلاد مثل طيورها، ولم يكن مرشداً ممتازاً فقط بل كان نديماً سميراً عالماً يملأ وحده تعب النهار واستراحات المساء، فلم يكن هناك موضوع إلا يلمّ به، ولم يكن هناك شاعر إلّا وحفظ له، ولم يكن هناك تاريخ إلّا وعرف شيئاً منه، والحقيقة أنني صرت، أخشى على الرحلة من الكوفي، بحيث يتباطأ الرجال في النهار من أجل الإصغاء إليه ويطلبون السهر في العشايا لسماع حكاياته التي لا نهاية لها.

وفي الطريق الصعب قسم الكوفي حكاية الجبل إلى خمسة فصول، لكلّ مساء فصل، ولكل فصل تفصيل، وقال: لا يطأ قمّته مخلوق إلّا ويسجد ممجّداً الربّ، ولا يصل قمّته رجل إلّا ويعرف لماذا نزل سيّدنا آدم هناك عليه السلام. وقال الكوفي: إن الجبل أقرب إلى قلوب المسلمين، ومعناه لديهم مرتبط بالخلق وأبي البشر، لكن يدّعيه أيضاً الهندوس والبوذيون والمسيحيون.

أما الهندوس فيسمّونه جبل سيفا، عندما غزا راما أرض لانكا العام 2386 ق.م بمساعدة شقيقه سامان، ويسمّونه أيضاً «سامانا كانديه»، أيّ تلة سامان الذي يعتقد أنه سيفا نفسه «إله» الدمار والغضب، ويعرف بأسماء أخرى كأيشاوارا وساداس ويرا، أمّا نهر الفراشات الهائل الجميل الذي يوحّد قمّة الجبل بملايين الأجنحة مرّة كلّ عام فيعرف، قال الكوفي، بـ«ساماناليا». وتطلع الفراشات في صفّ واحد إلى القمّة لتموت هناك، أمام عين الربّ.

كلّ عـام، في الموعـد نفسه، و السـرب نفسه، بملايـين الأجنحة، تحلّق الفراشات إلى قمّة الجبل منتقية هناك الوسادة الأخيرة، ولا تضلّ فراشة واحـدة ولا تحيـد فراشـة واحـدة «إلا لبضع ثـوان تتنشّـق خلالها رحيق زهـرة هنـا أو هناك» أمّا بالنسبـة إلى البوذيين، وهـذه الجزيرة قلعتهم، فإن قمّة الجبل هـي قدس الأقداس عندهم، إليها جاء البوذا كاكوساندا، وكوناغامـا، وكارسيابـا، وغوتاما؛ كي يمضوا اللحظـات الأخيرة ويسلّموا الأمانة الأخيرة.

كذلـك، قـال الكوفي: يعتبر الصينيـون أن الجبل مقدس بالنسبة إلى الرجل الأوّل بون ـ كـو، وادّعي المسيحيون الكاثوليك مرّةً أن للقديس توما علاقـة بالجبل، ومـرّة أخرى يربطونه بكبير الكهنة لـدى كانداشي، ملكة الحبشة. وقال الكوفي: «وما دام هو جبل سيّدنا آدم عليه السلام، فإنما هو لجميع البشر وانتهى الأمر».

تمنيـت لـو كان الكوفي في بلاط سيّـدي أمير المؤمنـين. ولا أخفي أنني فاتحته في الأمر قبل قليل من وصولنا إلى سلالم بيري ـ بادا التي سنصعد عليهـا إلى قمّـة الجبل. وكان جوابـه واحداً ومحزناً: «لقـد أعطت عائلتي البحر ما يكفيه».

تـراه من البحر فتعجب. تـراه من سفحه فتخشع! اللّهـم إنك لعلى كلّ شيء قدير. في اليوم الخامس، بعد الضحى بقليل، ركعنا وصلّينا في أقدام جبل سيّدنا آدم عليه السلام، وتأملنا ما حولنا من كلّ الجوانب فرأينا غاباً كبـيراً وشجراً كثيراً وكأنما الجبل نفسه مثل عمـارة نبتت في الأرض، من طـين وحجر وخضرة، وخلف القمّة في البعيد اختلطت قمم أخرى بالغيوم.

وتدرّجت الغيوم مثل تدرّج التلال فوق وديانها، وكان في المكان «حجّاج» براهميون، ورجال من عند ملك سرنديب، ومنذ يومين تقريباً وهي تمطر مطراً شديداً فوق دفء شديد، وعلى جانب من الجبل ترتفع إلى القمّة سلالم شديدة الانحراف ربطت صخورها بسلاسل لا يعرف أحد متى وكيف وضعت هناك، إنها أعجوبة من الأعاجيب، ويقال: إن الإسكندر الكبير هو الذي أمر بنفسه بوضعها حين زار الجزيرة وتسلّق الجبل بعد وصوله إلى شمال الهند، لكنّ الكوفي يعرف أيضاً روايات أخرى، يروي أن هناك من يقول: إنها في الجبل منذ الخليقة تساعد الحجاج على التمسّك بها وهم يتسلّقون وصولاً حتّى القمّة، ومنهم من يصل ومنهم من لا يصل، بل تقذفه الريح في فرغ الهلاك والموت، لكنّ الناس، كباراً وشبّاناً، يكافحون برغم كلّ شيء من أجل بلوغ تلك القربى من رحمة السماء.

ولم يصل الإنسان وحده إلى قمّة الجبل، بل الأفيال أيضاً عبر ممرّات اكتشفتها لنفسها وجعلت الرجل يتبعها، و«حيث يصل إنسان لابدّ أن يصل الفيل». إنه أفضل من شقّ الطرقات، وقال الكوفي: إن الناس هنا يعتمدون أكثر ما يعتمدون طرق الأفيال، خاصة في الغابات والمتاهات.

تخلّف بعض الرجال عنّا في أوائل الطريق، لم يخافوا البحر ولم يرعبهم طلوع الأمواج كالجبال من تحتهم، لكنّ هنا، كلّما كان الطقس يتبرّد قليلاً شعروا بخوف أكبر، وكانت تخيفهم أكثر المغاور والأصداء المفزعة الخارجة منها، وفكرة أن تكون مسكونة بالأرواح والحيوانات المفترسة. وقال أحمد الكوفي، بسعة معرفته وجميل منطقه: إن خرافات كثيرة تُروى عن المغاور والجداول ولكن أكثرها من صنع الخوف والحبّ البشري للمبالغة، وذكر

أن عنـد منتصف الجبل مغارة قيل: إنها ابتلعـت فتاة صغيرة، ومنذ ذلك الوقـت كلّمـا صاح أحـد في المغارة يعيـد الصـدى صوت الفتـاة لا صوت الرجل، ويغتسل البوذيون من أخطاء الأرض في جدول صغير يدعى «سيتا» ويعتقدون أن سيتا زوجة البوذا راما، كانت تغتسل فيه.

يـزداد التسلّـق حدّة، جهداً بعـد جهد، ثم تزيد كثافـة الشجر فتدخل الغـاب مرّة أخرى، الله أكـبر ما أعظم المنظر وأكـبر المصيبة! هنا تسمع صـوت الأفيال تصرخ صراخاً مرعباً وهي تهـوي إلى القاع، وقد تعثّرت أو سقطت، وهنا تسمع عويل حيوان ضخم كسر وركاً أو جنباً فقعد في العذاب الأليـم والنزع الطويل، وهنا تسمع وعلاً يئنّ وقد سقط في حفرة أو علق في هيشـة علقته الأخـيرة، وهنا، كما في كلّ مكان، تقفـز السعادين ضاحكة، كأنها تسخر من الناس، التي تعتقد أنها تسخر منها.

اشتدّ البرد وتلاحقت أنفاسنا أكثر من ذي قبل، وشعرنا بثقل في الآذان، وقـال «الأرمني»: إن سببه الارتفاع الذي وصلنا إليه، وهو نحو ثمانية آلاف شـبر أو أكثر، وصرت أخشى على سليمان بن ناصر من هول التسلّق وحدّة الطلوع، لكنّـه كان أكثرنا همّة، وكان بالتأكيد أكثرنـا دعاء، يتمتم داعياً، متوسّلاً الرحمة من الرحمن، مصلّياً مسلّماً على خاتم أنبيائه.

لم تكن هناك ريح قوية، إلّا أننا صرنا نزداد تمسّكاً بالسلاسل، وانتظر الكـوفي إلى حـين نزلنا من جديد؛ ليروي لنا أن هنـا أكثر ما تقع الأهوال، حـين تزل قدم فيعلق الرجـل في الهواء ولا يبقى من معـين سوى الصلاة، ومـا من انتظار سوى انتظار أن ينهك ساعداه فيسقط، ترعبه فكرة الموت وتسعده فكرة الجنّة.

يخيّل إليك من هنا أن سيّدنا آدم، عليه السلام، قد بسط نظره فرأى البسيطة كلّها، كيف لا ونحن، بنظرنا الحقير أمام نظر سيدّنا آدم عليه السلام، نتطلّع فلا نرى حدّاً لأفق. «فالمشهد هو ربما الأعظم في العالم؛ لأنه لا جبل آخر في العالم، مهما ازداد ارتفاعاً، يبسط مثل هذا المنظر الذي لا يعيقه شيء، على مدى البحر والأرض». من هنا تبين كلّ سلسلة جبال سرنديب، بما فيها «نهاية العالم»، ومع أن بعضها يعلو على القمّة التي نحن فيها إلاّ أنها تبدو تحتنا جميعاً، وكذلك وهادها ووديانها وتلاعب التلال بين انخفاض وارتفاع، والسهول وقد حارت بين الألوان والأجناس وحمل خيرات الأرض.

لكن الأدغال لا تلبث أن تتدخّل، هنا وهناك، لإخفاء شيء أو جزء ما. وعلى ذروة الجبل، وقد بلغناها، يتعلّم الإنسان أمثولة الخلق التي تعلّمها سيّدنا آدم من خالقه: «سبحان ربك الذي خلق كل شيء».

وشي اليمن
وسلجم خراسان وفرش سنجردي

ارتحنا في قرية أحمد الكوفي سحابة عشرة أيّام، سجّلت خلالها لسيّدي أمير المؤمنين والقضاة وعلماء البلاط كلّ شيء عن الرحلة إلى جبل سيّدنا آدم عليه السلام، وحاولت ألّا أنسى شيئاً، ودوّنت ما أعرفه من أسماء الشجر والطيور، ورويت حكاية نهر العنبر كما نقلها الكوفي. وجلسنا نستعدّ للرحلة إلى مقابلة ملك سرنديب؛ لنقدّم إليه رسالة سيّدي ومولاي. ورجوت الكوفي أن يرافقنا فقبل، وتعهّدت بأن نرسل إليه مع التجّار فيما بعد مالاً كثيراً يعيله ويعيل أولاده، وله منهم ستّة صبيان حسان الوجوه طيبي الطويّة.

فيما كنّا نعدّ ونستعدّ للرحلة إلى قصر ملك سرنديب، وبعدما أرسلنا إلى السفينة رجالاً يأتون بالهدايا التي سنحملها إليه، أفقنا في الصباح على أصوات قرقعة وصهيل خيول كثيرة، فخرجت إلى الباب أتبيّن الأمر فإذا حشد وعساكر وعربات، وترجّل قائد العساكر صوبنا فكان الكوفي قد سمع الأصوات وخرج هو أيضاً يستطلع، تقدّم منه القائد وعرّف بنفسه ثمّ قرأ عليه رسالة مكتوبة على قطعة من الجلد، وبعدأن فرغ من قراءتها، نظر الكوفي إليّ، وقال: إنهم عساكر الملك. وقد عرف عَظَمَتَهُ من حجّاج بوذيين كانوا على الجبل أن موفد أمير المؤمنين يستعدّ للسفر إليه فأرسل إلينا الجند لحراسة الموكب، ومرافقتنا إلى مقرّ إقامته في أغنا.

سرنا في موكب مكي عظيم الأبّهة كبير الشأن، وأعطي لكلّ منّا فيل بهودجه وللهدايا التي نحملها ثلاثة أفيال، وكانت الهدية من سيّدي آلات من العقيق للفرس الملكية «وآلات أخرى من عنبر شحري أشهب ومائدة من الجزع أرضها بيضاء، وفيها خطوط سود وحمر وخضر، وسعتها ثلاثة أشبار وغلظها أصبعان وأركانها ذهب. وخمسة أصناف من الكسوة، ومئة ثوب من كلّ فنّ من قباطي مصر وخزّ السوس ووشي اليمن والإسكندراني وسلجم خراسان وديباج خسرواني وفرش قرضوي وفرش سنجردي. ومئة طنفسة حبرية بوسائدها. وجام زجاج غلظ أصبع وفتح شبر ونصف، في وسطه أسد ثابت وأمامه رجل قد برك على ركبتيه».

استقبلنا الملك استقبالاً عظيماً. وترك كل واحد منّا يسلم عليه على الطريقة الهندية، أيّ من غير مصافحة، لأن الهنود يغتسلون باليد اليمنى ولذا يعتقدون أن المصافحة غير صحيّة. وكان يقول كلاماً ترحيبياً للبحّارة ورجال البريد. ووقف إلى جانبه وزير من وزرائه يترجم لنا وله. وكانت سقوف القصر مبنية من الآجرّ وجدرانه من الحجارة وكذلك كانت أرضه من حجارة محفوفة. وفي صدر القاعة كان تمثال معدني كبير لبوذا. وكانت هناك محفورات حجرية صغيرة لأفيال ومنها لنساء ومنها لجماعات قليلة. وكان يقف خلف الملك حارسان مع حراب وهما نصف عراة. وكان حوله رجال يبدو أنهم من حكماء الدولة وعضد السلطان. وجيء بالشراب والعسل والحليب. وكان أوّل سؤال طرحه الملك، بشيء من السرور: «هل أرسل ملككم العظيم هارون الرشيد، تموراً، بين الهدايا؟». وأسرعت إلى الإجابة على الفور: «هذا أوّل ما خطر لسيدي أمير المؤمنين». وتطلع بي

سليمـان بن ناصر شذراً؛ لأنه يعـرف أن تمور السفينة لقوتنا نحن وليست بين الهدايا، لكنني قررت أن نقدّمها إلى الملك، والله معين.

ثـمّ سأل الملك من يكون رئيـس الرحلة، فوقفت وانحنيت، وسحبت من كمري رسالة من سيّدي أمير المؤمنين وأخذت أقرؤها بصوت عالٍ:

«مـن الخليفة هارون الرشيد، أمير المؤمنـين، حامي ديار الإسلام إلى ملـك سرنديـب العظيم أمير بـلاد الهند وأرض جبـل سيّدنا آدم عليه السلام.

«بسم الله الرحمن الرحيـم والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله وصحبه، حمى الله أمّته وعضد سلطانها وهدى مَن لم يتعرّفوا إلى الرسالة الإلهية التي أنزلت على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلّم، من أجل حماية الأمم من الضلال، والأنفس من هلاك النفس.

«وبعـد، فهـذا مبعوثنا إليكـم، عبد الله بـن الشيخ محمـد البصري، شيخ مشايخ علمـاء البصرة، يحمل إليكم رسالتنا وهدايانا ويعلن باسمنا السـلام، ويطلب منكم أن تكون الرعاية لأبنائنـا المسلمين في سرنديب في تمام الواجب وأن تسمحوا لهم بنشر الدعوة الكبرى، فلا تلقون إلّا كلّ خير ولا تجزون إلّا الجزاء الحسن.

لقـد أرسلنا عبد الله البصري وحشداً من موظفي البلاط من أجل جمع مـا أمكن مـن الكتب وما استطاعوا مـن المخطوطات وما قـدروا من رقائق العلم، في أيّ لغة من لغات البشر وسوف نعمل على ترجمتها على أيدي علماء بغداد ومن جاءنا من المترجمين من أهل الروم ممّن عملوا في قصر الخلود.

فترسلون إلينا من الهدايا ما يفيد ونرسل إليكم منها ما ينفع، ويكون لكم في ديار المسلمين أثر ويكون لنا في ديار الهند نفع، ونتعاون على خير الأمتين وإنّا ندعو الله العلي العظيم أن يهديكم ويرشدكم ويوفّق شعوبكم.

وندعوكم ختاماً إلى الاعتناء ما استطعتم بولدنا عبد الله البصري والجماعة المرافقة وأن تقدموا لهم لزوم كلّ شيء، ولكم أن ترسلوا إلينا موفدكم متى تشاؤون».

الخليفة

كان الوزير يترجم واقفاً والملك يبتسم بارتياح، وبعد أن فرغت من قراءة الرسالة وعدت إلى مكاني تأمّلت جيداً؛ لأقارن الأوصاف التي سمعتها من قبل، فوجدت فعلاً أن «للملك في يده صنماً من ذهب لا يُدرى لمّا عليه من الدر والياقوت وأنواع الأحجار أثمان، وليس يملك أحد من ملوك الهند ما يملكه صاحب سرنديب من الدرّ النفيس والياقوت الجليل وأنوع الأحجار، لأنّ ذلك موجود في جبال جزيرته وفي أوديتها وبحرها، وإليها تقصد مراكب أهل الصين وسائر بلاد الملوك المجاورين ومن سرنديب الحرير والياقوت بألوانه كلها والبلّور والماس والسنباذج وأنواع من العطر كثيرة.

ثم أمر الملك وزيره أن يتلو علينا لائحة الهدايا التي سيرسلها إلى سيدي أمير المؤمنين ، فكانت الهدية جام ياقوت أحمر، فتحه شبر في غلظ أصبع مملوءاً درّاً، وزن كلّ درة مثقال، والعدد مئتا درة، وفراش من جلد حيّة في وادي الزيراح تبلع الفيل، وشّى جلدها دارات سوداء على قدر الدرهم، وفي وسطها نقط بيض مقرونة بالدلا، ينجو من جلس عليها من مرض السلّ.

ومـن كان بالسلّ وجلـس عليها سبعة أيّـام دبّ، ومصلّيات ثلاثة وسائدها علـى جلد طائر يقال له: السمندل موشّاة، إذا طرحت في النار لم تحترق، فراوزهـا درّ وياقوت أحمر، ووزن مئتي ألف مثقـال عوداً هندياً رطباً، إذا ختم عليه قَبِلَ الصورة، وثلاثة وثلاثون ألفاً من كافور محبّباً، كل حبّة منه مثل الفستقة وأكبر من اللؤلؤة، وجارية سندية طولها خمسة أذرع، تسحب شعرهـا، حسنة البشرة، لها أربع ضفائر تعقد منها ضفيرتين، على رأسها تـاج، وضفيرتـان مسبلتان تبلغـان الأرض من خلفها، وطـول كلّ شفر من أشفـار عينيها أصبع، يبلغ إذا مدّتـه، إلى نصف خدّها، وكأن بين شفتيها برقاً من بياض أسنانها، لها نهدان وثمان عكن».

الإعصار أو التنين

اشتاقت نفسي شوقاً عظيماً إلى البصرة وتقت إلى المثول بين يدي سيدي أمير المؤمنين، فشكرنا ملك أغنا وحملنا الهدايا وودّعنا أحمد الكويفي ومضينا إلى السفينة تنتظرنا نحو أربعة أشهر قبل الوصول إلى البصرة، بعد ثلاث سنوات من الغياب عن الأهل والأحباب، وعن مجلس الشيخ محمد.

أبحرنا ونحن نودّع من بعيد جبل سيدنا آدم عليه السلام، ونفوسنا مليئة سروراً ورضىً، فبعدما تعرّضنا للسرقة الدنيئة في السند وبعد النجاة من رجال الزغب، متّعنا الله تعالى بأجمل المشاهد في الكون ومنّ علينا بالوصول إلى قمّة جبل سيّدنا آدم.

اتخذنا الطريق البحري نفسه تقريباً، وكان لدينا كلّ ما نريد من المياه والطعام وما يكفي حتّى نصل إلى مسقط مرّةً أخرى فنتزوّد لباقي الرحلة من هناك.

بعكس الرحلة في الذهاب أصبح كل واحد منّا الآن يعد الأيام يوماً بعد يوم، وقد وعدت النّاخُذَاة سليمان بن ناصر وعبد الرحمن الخليل أن أسعى لهما بمكافأة لدى سيدي أمير المؤمنين، تعوّض لهما شيئاً من هذا الغياب الطويل عن عائلتيهما، كذلك وعدت البحّارة بجوائز ودنانير. أمّا أنا فوعدت نفسي أن أطلب يد ابنة عمّي، الشيخ مراد، لحظة وصولي إلى البصرة.

لم تغب صورة ليلى، ابنة عمّي، عن خاطري لحظة واحدة. حتى وأنا أبلغ الدرجات الأخيرة من قمّة سيّدنا آدم، قلت في نفسي: ليت ليلى هنا، فلا يحقّ أن أمتّع النفس وحدي بكل هذه الآفاق من الجمال، وكنت أنوي أن أحدّث أمي بأن تخطب لي ليلى في اليوم نفسه الذي دخل علينا البرمكي ناقلاً أمر سيّدي أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: الأفضل أن ننتظر العودة من بغداد، وحين عدت من بغداد لليلة واحدة، قالت لي أمّ عبد الله وهي تضع يدها على جبيني: «هل تريدني أن أخطب لك أم أنّك انتقيت واحدةً». ثم دخل أخي محمد فقطع علينا الحديث ولا شك أن أمّي كانت تفكر خلال السنين الثلاث الماضية بزوجة لي، وخفت أن يخطر لها أن تنتقي خطيبة غير ليلى، فماذا أفعل آنذاك، إن آخر ما أريده في هذا الوجود، أن أخالف رأي أمّي أو أبي، أو سيّدي أمير المؤمنين.

لم تعد ليلى في ذاكرتي سوى ضفيرتين سوداوين طويلتين تنسحبان خلفها على أرض الدار، وكنت أحياناً أسترق النظر من الشّباك الخشبية التي تفصل حديقتنا عن حديقتهم، فيخال إليّ أنني أرى أجمل بنات الدنيا. وكان لعمّي مراد خمس بنات أكبرهن ليلى، وهي تصغرني بخمس سنين. ولست أدري إن كان أحدٌ من دارهم أو دارنا قد شعر بما أعاني وما أكابد، لكنني ما عرفت في حياتي رعشة في أهداب العين وارتجافاً في أرنبة الأنف، كما عرفتها لحظة أرى ليلى من خلال مربّعات الخشب، وهل كانت ليلى تدري بوجودي أحبس أنفاساً حرّى كمن يحاول القبض على البحر؟ لا أدري، لا أدري، لكنها كانت تسحب جديلتيها وتتظاهر بأنها تنظر صوبنا من دون أن ترى شيئاً، وكنت أتطلّع في عينيها السوداوين

الطالعتين من بياض عميق، فأشعر أنهما وقعتا عليَّ، ثمّ كانت تلفّ خلفها ثوبها وجديلتيها وتدخل إلى البيت وأدخل أنا في لذّة السهو.

لم تفارقني صورة ليلى في الأدغال أو في السهول أو في الليالي المقمرة. وكنت أحياناً أشعر أنها ستخرج إليَّ من البحر كما تخرج الحوريات لمخاطبة البحّارة فوق الصخور، لكنّ ليلى بقيت في الحديقة، يعبر عطرها أحياناً عبر المربّعات وتنبعث أحياناً رائحة مسك من جدائلها السوداء. أو من رموشها أو من منديلها الذهبي.

شهران مضيا حتى الآن، صعدت إلى ظهر السفينة عند العصر أتأمّل، فإذا بي أرى في البعيد سحابة عظيمة من الدخان الأسود القاتم تلتفّ حول نفسها فيكون لها ذيل هائل، كانت مثل شبح مجنون انتصب فجأة في عرض البحر فكاد يسدّ الأفق، وأخذ يدور، في جنون يدور، كأنه يهددني ويهدد السفينة، ثم التفّ كمن يحاول الانقضاض، وملأ الجوّ حرّاً لافحاً، فناديت هلعاً على سليمان بن ناصر فعدا مذعوراً، فلمّا وقعت عيناه على الغيمة المتطايرة خر راكعاً وهو يصرخ: «الله أكبر، الله أكبر». وسمع البحّارة للمرة الأولى النَّاخُذَاة يرتعد فشعروا كأن السماء تمطر سيوف الهلاك. وحين وقف سليمان وكانت الريح قد بدأت تصفر، جمعت شجاعتي وسألته «ما العمل؟». فقال: «لا عمل، الفاتحة، الفاتحة».

تزايدت قوّة الريح وارتفعت الأمواج فجأة وهطل مطر قليل، وصرخ النَّاخُذَاة: «الأشرعة! الأشرعة!». وهتف بنا: «من ليس بحاراً فليربط نفسه بالحبال إلى الأعمدة، أوثقوا أنفسكم بالحبال ما قدرتم، وصلّوا، الفاتحة، الفاتحة». ثم راحت الغيمة الكبرى تحلق صوبنا والريح ترفع الموج، والموج

يهز السفينة كأنها عصفور خائف في قبضة مارد، ثم أخذت الرياح تصفر وتدوّي وهي تجذب الأمطار من فوق فتنزلها أعمدة، ثم تدفع الأعمدة في اتجاه العنقاء، والعنقاء تتلوّى من حافّة إلى حافّة، وكلّما لوتها الأمواج رمت فيها شيئاً منها، واكفهرّ النهار ثم أظلم ثم ازداد ظلاماً، ودخله الليل، ودخل العتم قلوبنا، ثم تجمّعت الغيمة فوق السفينة كأنها صقر يطارد فريسته، إنها اللحظة الوحيدة التي نسيت فيها ليلى، لم نعد نعرف إن كانت هي الساعة أم هي تجربة أخرى من أهوال البحر، وقد أخافني أكثر من العاصفة خوف سليمان بن ناصر والذعر الذي أخذه، لكن هل ننجو اليوم كما نجا سليمان بن ناصر من قبل، أم أنها مواجهته الأخيرة مع التنّين الذي يهجم هذه المرة من فوق.

ازداد عتوّ الرياح، وتحوّل الصفير إلى زمهرير، وهاج البحر كأن شيئاً من أسفله يرعبه فيهرب إلى فوق، ولم نعد نميّز بين غضب السماء وغضب المياه، امتزجا وتعاونا وقبضا على العنقاء من كل جانب، والريح ريحان: واحدة تدفع الأشرعة في اتجاه، وأخرى تدفعها في اتجاه معاكس فتكاد تمزّقها تمزيقاً. «فلما طال علينا الليل ونحن في قبضة الهَلَكة، وقد حكمت علينا الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ومركبنا يئطّ ويئنّ ويتقعقع ويتعتع» توادعنا وظلّ الأمر كذلك طيلة يومين وليلتين «فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأينا بين أيدينا ناراً عظيمة» فاشتدّ خوفنا فهرعنا إلى سليمان النَّاخُذَاة نقول له: هل الساعة آتية؟ حريق أم غريق أم هما معاً؟ فقال: لم يبقَ لنا سوى الصلاة فصلّوا ما استطعتم، وما هي إلّا دقائق حتى هدأ البحر كما هبّ، وهدأت الريح كما عصفت، وعادت

النجـوم إلى سمائها، وعادت النجمة القطبية تنـير طريق النَّاخُذَاة فكبرّ وصلى ونزل إلى النوم، تاركاً العنقاء في أيدي بحّارته.

غاب الشيخ وتزوجت ليلى

شعـرت بارتيـاح ورضى وأنا أتفقّـد المخطوطات النفيسـة التي عدتُ بها من السند ومن سرنديـب، حتماً ستعجب سيّدي أمير المؤمنين، وقبل السنـة الأخيرة، كانـت تصلني أخبار عن أهلي وعـن بغداد مع تجار من البصرة أو سيراف، لكنّ مضت أشهر طويلة الآن ولم نلتقِ أحداً ولا سمعنا خـبراً. وصـار يخيل إليَّ أنني نسيت ملامح إخوتـي، وأتساءل كم كبروا الآن؟ وكان أحبّهـم إليَّ قيـس، الثاني بعدي، ويخامـرني شعور بأن قيساً كان أيضـاً الأحـبّ إلى أمّي وإلى الشيخ محمد، وربمـا كان جميع إخوتي يعرفـون ذلك. لكننـا جميعاً أحببنا قيساً في أي حـال، فقد كان الوسيم، الهـادئ الطباع وهو الوسيط ضمن العائلة، كمـا كان أوّل من سعى بيننا إلى العمـل، فاختار التجّارة يصارع وينافـس ويجاهد ويرفع اسم الشيخ محمد عالياً في أسواق البصرة.

أمضينـا الأيّـام في التأمّل وكسل البحار، وكنا كلّمـا اقتربنا يوماً ازداد سليمـان بن ناصر تبسماً وانفراجاً، إنها رحلتـه الأخيرة في بحر الأهوال، وقـد أصبح يحاورني أكـثر من قبل، ويسأل عن أشيـاء تتعلّق بسيدي أمير المؤمنـين، وكنـت أعتقده بعيداً عن أمـور الدولة لا يفقه فيهـا شيئاً لكنني تبيّنـت، يومـاً بعد يوم، أن الرعيـة تعرف عن أمور المُلـك أكثر ممّا يعرف الملك عن أمـور الرعية، وأذهلني النَّاخُذَاة كم يعـرف عن أخبار القصر. وقـال لي: إن بغداد تتناقل الشائعات في الليـل، كما يتناقل دجلة الأسماك

والناس لا تقول شيئاً، مفضّلةً الانصراف إلى شؤونها، إلّا أنها وإن كانت لا تقول، فهي تهمس، والهمس أكثر وقعاً من الكلام؛ لأن الهامسين يحاولون أن يوحوا إليك بأنهم وحدهم يعرفون الحقيقة.

تراءت لنا البصرة من بعيد، وكانت المدينة كلّها تعلم بمجيئنا وتعرف بعودتنا، وجاء وزير البريد بنفسه من بغداد؛ ليكون في استقبالنا، وأوفد رئيس الشرطة فرقة من مئة خيال يقفون في الميناء لدى رسوّ العنقاء ويهتفون بحياة أمير المؤمنين، وخرج من البصرة قوم كثيرون، ورفعنا على كلّ سارية علماً من أعلام الرشيد السوداء، وكاد البحّارة يرمون أنفسهم في البحر من كثرة الاشتياق فيما النَّاخُذَاة يناور بالعنقاء على مهل وقد أُفرغ لها جانب من الميناء؛ كي تكون وحيدة قرب المرسى.

رحت أطالع الوجوه؛ بحثاً عن عمامة الشيخ محمد وابتسامات إخوتي. وشعرت أن أجمل شيء في الوجود، خلال ثلاثة وعشرين عاماً، هو أن أقبّل يد الشيخ محمد وأن أعانق أخي قيساً، إلّا أن طوفاناً من الناس حال بيني وبين تمييز الوجوه، وصرت كما خيّل لي أن هؤلاء هم إخوتي، أعود فأتبيّن مخادعة نحلة العين، ثمّ هاج الناس وارتفع صياحهم، وصهلت الخيل متململة تحت فرسانها ورماحهم اللمّاعة، وقد أحضرت لي فرس خاصّة فضية اللون، وأحضِر لي مرافقون، وأُعِدّ في البصرة «خان» كامل لإقامة الرجال الذين لا منازل لهم ولا أهل، وخاصةً عبد الرحمن الخليل، الذي سيعود إلى بغداد.

كنت أوّل من ترجّل وسط التصفيق والهتاف، وأحسست أنني ما أزال أعوم قليلاً فوق المياه، فقد نسيت قدماي الشعور اللذيذ بوطء التراب.

تقدّم إليَّ وزير البريد ومرافقوه ورجال من البلاط لم أكن أعرفهم. وهنّأني الجميع وعانقوني، وقال وزير البريد وهو يعانقني: إنه قد بلغتهم الأهوال التي حلّت بنا، فسألته: كيف ذلك؟ فضحك من جديد قائلاً: «هل يُسألُ وزير البريد يا بصري، كيف يعرف؟».

أخذت أبحث عن الشيخ محمد وقد خامرني قلق حزين، وعن إخوتي. وإذا ساعد يلتفّ حول عنقي من الخلف برفق وأخي قيس يقبّل أكتافي ويشمّ ثيابي، وتركت الجميع لأعانقه، ونسيت المراسم، ثم تدافع إخوتي جميعاً من بين الناس وكانت رائحتهم أجمل من رائحة الأرض، وبحثت بين بقية الناس، لكنه لم يكن هناك، ونظرت إلى أخي قيس فرأيته يبكي مثل طفل. وقال: «أم عبد الله تنتظرك في البيت، الشيخ محمد لم يقدر على البراء حتى يكون في انتظارك، لقد ذهب إلى رحمة الله منذ عام».

زحفت البصرة كلها إلى باب بيت الشيخ محمد في حيّ البزازين يدفعها فضول وإعجاب برحلات مبعوث سيّدي أمير المؤمنين، لكنني أغلقت الباب دوننا وانصرفنا إلى الحديقة، وحانت منّي التفاتة إلى السياج الخشبي ومربّعاته، فقلت لأمّي: «نسيت أن أسألك يا أماه، ما أحوال عمّي مراد وعائلته؟». فقالت أمي وهي تطوّقني: «وأنا نسيت يا بنيّ، أن أخبرك، أخوك قيس تزوّج من ليلى ابنة عمك، وأخوك عبد المجيد خطبنا له شقيقتها هند، والآن نريد أن نبحث لك أنت عن زوجة تنسيك البحر.

امرأة من قِمار وحكيم من الصين

أمضيت في بغداد سحابة عام أو أكثر أعد للرحلة القادمة. وكانت عاصمة الرشيد ما تزال تزداد ازدهاراً يوماً بعد آخر، ومُلكُ سيّدي أمير المؤمنين لا يزال ينبسط في أرجاء المعمورة، وعلمت من رجل يقال له: القرطبي إنه عندما يحين الوقت سوف يخرج سيّدي على رأس جيوشه إلى إمبراطورية الروم ولا يعود إلاّ وقد غنمها برمّتها، وقال القرطبي: إن قوّاداً ومهندسين بدؤوا يرسمون الخطط، وقد جاء عدد منهم من الأندلس، وأحدهم من قرطبة.

كان القرطبي يأتي إلى جناحي كل يوم، وكل يوم كان لديه شيء ما عن شؤون البلاط، وقد علمت فيما بعد أنه ليس من قرطبة بل من سهول العراق، وقد حظي بعطف الوزير البرمكي، فأعطاه وأغناه، وأرسله مرّة إلى قرطبة في شأن خاصّ، ومنذ ذلك الوقت وهو يسمّي القرطبي، ولا يكفّ القرطبي عن الحديث عن قرطبة، كأنما أمضى فيها دهراً لا شهراً.

وذات يوم دخل القرطبي عليَّ كعادته وأنا منهمك في عملي، وقال لي: «هل تدري يا بَصْري، ما اللقب الذي أطلقه عليك سيّدي أمير المؤمنين، نصره الله؟» قلت: ما الخبر أيها القرطبي اليوم؟» قال: «كان سيدي الخليفة يحدّث أهل المجلس عن رحلاتك في بلاد الهند والسند ويخبر عن رحلتك إلى الصين، وعن شجاعتك في طلوع البحار، فضحك هذا الماجن اللعين أبو النواس، وقال: «هذا لم يعد بصرياً يا أمير المؤمنين، بعد اليوم يجب أن نلقّبه الهندباد!» غير أن أبا العتاهية قاطع الماجن اللعين كالمعتاد، وقال:

مادام البصري قد بدأ تجواله في بلاد السند فليسمَّ السندباد!». واعرف يا بصري، أن كل من في القصر، يلقبك الآن بالسندباد، فقد قطع سيدي أمير المؤمنين كل قول، إذ قال: حقاً قلت يا أبا العتاهية، إنه السندباد».

خامرني شعور بالاعتزاز وأنا أسمع رواية القرطبي، فأنا لم أعد في القصر مجرد رجل آخر، بل صار لي لقب من الألقاب ورتبة من الرتب. وليس من ينافسني فيهما، فكل الناس في الحاشية نازعة إلى البرّ وخيراته. وهي وفيرة وخير البحر ضئيل، حتّى السمك يحاول أحياناً الفرار من وحدته فيهاجم السفن، علّها تحمله معها إلى اليابسة، ألم تأتكم حكاية «بعض البحريين الذين خرجوا في مركب من عدن إلى جدّة، فجاءت سمكة ونطحت السفينة بحذاء زيلع نطحة منكرة، لم يشكّ أهل المركب أنها كسرته، وانحدر الربابنة إلى قاع السفينة فلم يجدوا للماء أثراً، فلمّا وصلوا إلى جدة نجلوا المركب وأنزلوه وتركوه إلى البرّ، فوجدوا رأس السمكة في قاعه، وقد سجن وسدّ الموضع حتى ليس فيه خلل، وإذا هي نطحت المركب ولم يمكنها الخلاص، فانقطعت من حلقها، وبقي رأسها في موضعه».

خامرني أيضاً شعور آخر، وهو أنني مذ قال سيّدي أمير المؤمنين كلمته، لم أعد عبد الله محمد البصري، بل أصبحت مجرد لقب من مقتنيات القصر وألقابه: مثل وزير البريد ورئيس الشرطة وكاتب الديوان، وأدركت ساعتها فقط أن السنّ قد تقدّمت بي وليس لي زوجة ولا أولاد مع أني بلغت الرابعة والعشرين من العمر، ولم أعد أفكّر في الزواج من بنات أعمامي. ولا حتى بفتاة من البصرة، بل قلت: لن أتزوّج من العراق، بل سأبحث لنفسي عن امرأة في الصين وأطلب إليها أن تعتنق الإسلام، أو امرأة

مـن قِمار، فقد قال كثـيرون: إن في قمار نساء جميلات، وسيطات القامة، مليحات العيون، صافيات البشرة.

لم أعـد أسمـع من النَّاخُـذَاة سليمان بن ناصر، ولا عـدت أسمع عنه. لقـد ودّعنا بعناق محزن ومضى يبدأ حياة جديدة في البر، ولست أدري إن كانـت ساقاه ما تزالان تعرفان كيف تمشيان فوق الأرض، وقد اعتمد وزير البريـد ربّاناً آخر من سيراف، في الخامسـة والعشرين من العمر تقريباً، وعبـد الرحمن الخليل (الأرمني) قـرر أن يذهب مكانه صيدلي من بغداد من أشهر صيادلة الكرخ وباعـة العقاقير، أمّا الملاّحون والطبّاخان فظلّوا بلا تغيير، جميعهم في أعمار تمكّنهم بعد من مقارعة البحر.

كان لابـدّ أن نسلك الطريق نفسها والأمواج نفسها، وأن تحملنا الرياح نفسهـا، فلابـدّ من بحـر القلزم، ولابدّ مـن بحر الهند قبـل الوصول إلى مملكـة قِمار ومنها ننفذ جنوباً نحو الصين، غايتنا الأخيرة، وتذهب سفن العرب إلى بلاد القمار؛ طلباً للعود القماري الشهير.

ويذهـب التجّار إلى الصين طلبـاً «للحرير والفِرنـد والكيمخا والمسك والعود والسـروج والسّمور والصليبنج والدارصينـي والخولنجان والأواني الجميلـة المزينـة». لكنّ «العنقـاء» ذاهبة بأمـر من سيّدي أمـير المؤمنين نصـره الله، لغاية واحدة، عمـلاً بوصيّة رسول الله صلـى الله عليه وسلم «اطلبوا العلم ولو في الصين».

وقد قال لي سيدي الخليفة، وهو يكلّفني، نصره الله، بنفسه هذه المرّة، بنود المهمة: «تحمل هدايانا أيها السـندباد، ورسالتنا إلى ملك القِمار وإمبراطور

الصـين، ولا تحمـل من هناك ما يحمله التجّـار، فإننا في خير عظيم من كل خـيرات الأرض والحمد لله، والصلاة والسلام علـى رسوله، أنت تحمل من هنـاك ما تسـع سفينتك وما يتّسع له عقلك من المعرفـة، وقد قيل لنا: إن في الصين منها الشيء العظيم، واسْعَ أن تحمل لنا: الكثير عن نظام الحكم عند الإمبراطور، ففي ذلك فائدة لنا في حكم بعض أطراف الإمبراطورية إلى أن تكون هذه قد اعتنقت الإسلام وحلّت عليها نعمة الاهتداء».

أبحرنـا مـن مسقط في هـدوء، ولكن في قيظ، وصـرت إذ خرجت إلى ظهر السفينة أشعر كأنني أقف في وجه فرن من أفران الكرخ، وكان سطح البحر هادئاً مثل بساط لكنه بساط من المعدن، ومنذ تركنا الميناء والسمك الطائـر يرافقنـا قافـزاً محاصـراً غاضباً فرحـاً ثملاً يقفـز إلى السطح ويتحوّل إلى وجبة، لكنّ الشمس هذه المرة بدت في إطارها الأبدي الحقيقي حادّة عظيمة ومتباهيـة في صدر السماء على بقية الكواكب تضيء الألوان والأجرام، لكنه نور حارق، وصـرت أخشى أن تقتلع الألياف لكنّ النَّاخُذَاة طمأنني إلى أنها أكثر متانة من الخشب.

كلّما ابتعدنا عن الميناء كانت صخور مسقط البركانية تبتعد هي أيضاً، تاركةً نفسها للزمن وحرارة البر، ومن بعيد يعتقد الناظر أن مسقط واحة في داخل تلال صخرية مثقوبة، ولست أدري متى تمطر في مسقط ومن أين يأتي كلّ هذا الماء العذب، لكنّ ما أدريه الآن هو أن علينا الاقتصاد في المياه إلى أقصى ما نستطيع، الحرّ قهر.

كنّـا قـد اشترينا في مسقط قليلاً مـن ريش النعام، وقـد صنع كل منّا لنفسـه «مروحة» من الريش يحاول أن يولّد بهـا شيئاً من الهواء في الظلّ.

لكن لم يبقَ من هواء تحت كل تلك الشموس، وصارت السرابات تكثر أمام البحّارة، وخفنا على بعضهم من الجنون، وأقسم أحدهم أنه شاهد أربعين رجلاً يعتلون السفينة ويفتكون بنا، وقال الطبّاخ الهندي: إنه شاهد بعد أربعة أيّام من مسقط حيّة طويلة تخرج من الماء وترقص والمياه تنفر من أنفها وأذنيها وعينيها بقوة لو أصابت السفينة لحطمتها، وقال: إنه في هذه المنطقة بالذات يكثر الجان، وفي رحلة سابقة رأى جنّياً في شكل جندب كبير أخضر العينين جلس يحاكيه ويغريه بالذهاب معه إلى دنيا الجنادب، ولّما قبل أخيراً أن يركب ظهر الجندب، ضحك هذا منه ضحكة كبيرة وقفز في المياه محدثاً ضجّة هائلة ورذاذاً شديداً، أليس هو الجندب رحّال الذي رويت حكايته بنفسي للبحارة عند سواحل السند؟

لم يعد في إمكاننا أن نشرب بسبب حرارة المياه، ولم يعد أكثر البحّارة يقوى على الكلام، وبعضهم لم يعد يقوى على الحركة، وقلت في نفسي: هو الهلاك لا محالة، ولّما جاء الليل وهدأ لفح الحرّ قليلاً، واستطاع الملّاحون تناول شيء من المياه والأرز، سألت النَّاخُذَاة إن كان هناك من حلّ؟ فقال: الحل الوحيد أن نؤخر الرحلة بضعة أيّام، وأن نلجأ إلى جزيرة سوقطرة القريبة. ففيها أشجار وارفة وثمر كثير وظلال كثيرة. فوافقته على الفور. وبدأت منذ تلك اللحظة أشعر بشيء من النسائم.

أدار النَّاخُذَاة السفينة في اتجاه سوقطرة، وبعد يومين وصلنا شاطئها في عمق ليل غير مقمر حار كئيب، فقال النَّاخُذَاة: لن نرسو إلا متى طلع النهار، فالأغباب كثيرة في المكان وحيّات البحر كثيرة، والجزيرة غير آمنة لكثرة ما تتعدد فيها المخلوقات.

فلمـا بانت خيـوط النهـار الأولى واقتربنا من اليابسـة راحت تطالعنا مشاهـد من غابات خارقـة الجمال، وكان طول الساحـل مزروعاً بأشجار عاليـة جداً في صف واحـد كأنها سور من الحور يحمي أهـل الداخل، وإذ أخذنـا نتوغّل رأينـا أن السور الطويـل يتكون من ثلاثة صفـوف متساوية وكأننـا في حديقة لا في غابة، وبعد سور الحور أخذت الأشجار تتنوّع ويلتفّ بعضـ أغصانها على بعض، وتطوف جذورهـا القديمة فوق سطح الأرض ممتـدّةً مثـل دوائر متفرّعـة، ولم يكن في المـكان أثر لبشـر، لكن الحقول كانـت مليئة بالغـزلان الشقراء الجميلـة، وللمـرة الأولى شاهدت الجدي البريّ في قطعـان كثيرة الأعداد، ولاحظت أنه لا يكترث بنا كثيراً، فسألت النَّاخُـذَاة، فقال: إن الجدي البرّي مسكـون، وإن في إمكانه أن يقرأ أفكار البشر، فإذا حاول أحد الاقتراب منه عمد سريعاً إلى الفرار، وقال: إنه إذا أخطأ أحدهم وتناول لحم جدْي بري من غير قصد، فإن عليه أن ينام على وسادة تحتهـا قرن ماعز ملفوف بقطعة من القماش المليئة برماد البخور، وإلا فإنه سيبقى حزيناً مدى الحياة وتسقط أسنانه الأمامية سريعاً.

قضينا اليوم الأول نبحث عبثاً عن رجال، ثم نمنا تعبين تحت ظل شجرة هائلـة الحجم، ولم يقوَ أحد منّا حتى علـى البقاء يقظاً من أجل الحراسة. وفي الصبح أيقظنا راعٍ معه قطيع كبير من الأغنام السوداء والحمراء. وبدا خائفاً منا أكثر مما كنا خائفين منه، وحدثته فقال: هل أنتم مسلمون؟ قلت: الحمد لله، ونحن رجال سيدي أمير المؤمنين. وأخبرناه بسبب مجيئنا؛ هرباً مـن الحرّ، فقال: من هو النَّاخُـذَاة بينكم؟ ثم خاطبه قائلاً: «ألم تدرك أن موجة الحر ستكون شديدة من انحراف الشمس واقترابها من سطح الأرض

والمياه؟ لقد فعلتم خيراً بالهرب من المياه، وبعد يومين ستزداد الحرارة حتى تصل إلى ما يشبه الغليان فتغور الأغباب حول الشاطئ وتغلي المياه العذبة التي في قلب البحر، وبعدها تبدأ الحرارة في الهبوط ثانيةً إلى أن تستقرّ خلال أسبوع، فيمكنكم الإبحار من جديد».

سألناه: أليس للجزيرة رئيس وأين يكون؟ فترك الراعي أغنامه في المكان ترعى، وقال: الحقوا بي آخذكم إلى أحد عمّاله على مقربة من هنا، أما السيد الإمام فبعيد من هنا، ولا أعرف طريقاً إليه، واخترنا أن أذهب معه يرافقني خمسة من البحارة، فقد خشينا أن يكون الأمر فخّاً كي نبتعد عن السفينة، وأثارت مخاوفنا كثرة الهدوء المريب، إلّا أن الرجل بدا طيباً. وكان طول الوقت يبسمل كي يبعد الشياطين، وبعد مسافة قصيرة صرنا نرى رجالاً يقطنون الكهوف الطبيعية بين الصخور، وكانوا يبدون سعداء أخفّاء يتنقّلون بسرعة كبرى، وكان بعضهم يلقي علينا التحية من بعيد. فسألنا الراعي عنهم فقال: إنهم قوم غريبو الأطوار، لا يخالطون الناس ولا يخشون الدساكر، وهم يمضون النهار في صيد الفرائس وقطف الثمار وأحياناً يذهبون إلى الشاطئ فيغنمون السمك الذي يقفز خطأً إلى البرّ. وأحياناً يصيدون السمك الكبير بالعصيّ.

كان الطريق ضيقاً تتدلّى عليه الألياف والأغصان، ثم بلغنا قرية صغيرة بيوتها من الأخشاب ولا نوافذ لها ولا أبواب، ورأينا نساءً حاسرات، فسألت الراعي: كيف هذا؟ فقال: إنهنّ من الطبقات الدنيا في القوم، ولا تحتجب هنا سوى نساء العلية، وقادنا نحو عامل القرية وكان بيته أكبر مساحة ومبنياً من الطوب، وقد رفع فوقه علماً ومشكاكاً من أنياب الأفيال وعقوداً

مـن الصدف البحري، وبعض حصى البحر، وبعض حصى الأرض الملونة، كمـا ترى في مـكان آخر عقداً من الزجاج الملون، وكان أمام الباب أربعة أو خمسـة من الحرس، كل منهم بثوب أو لون، ولم يهتموا بنـا كثيراً ولا أثار وجودنـا فضولهم، وتقدمنا الراعي إلى بهو المنـزل فوجدنا الرجل متربّعاً على بساط عادي فوق أرض غير مستوية من الطوب، وفوقها حصير قش، قـال وهو يخاطـب الراعي: «ماذا أتى بـك، فالمغرب لم يحـن بعد؟» وقال الراعـي: «معـي رجال مسلمون مـن أراضي الخليفة اشتـدّ عليهم البحر، فجـاؤوا إلينا وطلبوا أن يسلّموا عليك». فقـال الرجل وهو ما يزال يداعب لحيته بوقار ودون أن يرفع نظره عن الأرض: «ليسوا جميعاً مسلمين. إنهم ستة وأحدهم من بلاد بوذا».

نظـرت إلى المرافقين فرأيت بينهم حقاً الطباخ الهندي، وأشار الرجل أن نجلس فجلسنا، والبهـو شبه معتم في وضح النهار والوسائد قليلة، وما إن تربعنا حتى تبيّنت أنه ضرير، فشعرت بالبرد، كيف عرف هذا الإنسان أننـا ستّة، وأن بيننا هندياً وأن المغـرب لم يحن بعد؟ بدأ الكلام عن الحر الذي حملنا إلى الجزيرة، ثم أطلعته على مهمّتي لدى سيدي أمير المؤمنين وأمر لنا بشراب وتمور، وقال: «لقد جعلتكم الشمس تضلّون الطريق، فأنتم علـى مسافات كثيرة من الطريـق الصحيح إلى السنـد، والريح الساخنة تدفـع السفينة دون أن تـدروا؛ لأن البحارة لا يشعـرون بها، ومن يبحر في مثل هذا الحر فكمن يبحر في سراب».

قلـت للرجـل: «كيف يمكن أن نضـلّ الطريق يا أبا عثمـان، وهذه المرة معنا الأسطـرلاب وثلاثة رجال يحملونه ويراقبونـه ويشرفون عليه»، قال:

«يـا بني، الأسطـرلاب آلة ليست دقيقـة بعد، ورؤوس الرجـال قد أصيبت بالدوار من شدة الحر، ولذا انحرفتم عن الطريق من دون دراية».

أذهلنـي كلام الرجـل الضرير، وسألته إن كان قـد عمل في البحر من قبـل؟ فقال: «لا! كيف لمن ولد ضريـراً أن يذهب إلى البحر؟ لكنني تعلّمت مـا استطعـت من شـؤون الفلك». قلـت: وهل يقـوى الضريـر على ذلك؟ قـال: «البحر يا بنيّ، يحتاج إلى البصر والساعـد، أما الفلك فيحتاج إلى البصـيرة والتبصّر، ومن يفقد النظر تقـوى لديه الرؤيا، وقد درست علم الفلـك عنـد قاضٍ من الجزيـرة وأمضيت سحابة من الزمـن معه إلى أن توفّاه الله، وعيّنت عاملاً على سوقطرة». قلت: ومن يقرأ لك يا أبا عثمان؟ قال: «ابني البكر عثمان، أبنائي الباقون لم نملك أن نعلمهم».

كان أبـو عثمان يتحـدث ويتحرّك في ثقة غريبة، وبعـد قليل نادى على اثنـين من الحرس وأمر أن تعـدّ لنا فرش ننام عليها وأمر بإعداد الطعام. وحين جلسنا إلى مقصف العشاء، قال لي: أعطني يدك، فأعطيته، فلمس باطنهـا وقال: «تكون رحلتكم بعد اليـوم في غاية الهدوء، وتقودكم النجمة القطبيـة إلى الجزر بكل صفاء، لكـن حاولوا مجانبة درب سهيل شرط ألا تضلّوا من جديد».

ثـم أرخى يـدي ومضى يقـول: «وأنت يـا بني، تحمل لقبـاً غير اسمك الحقيقي، وهو لقب غير عربي ومركّب، لكنني لا أستطيع أن أحزر تماماً ما هو، وتنتظرك رحلة سعيدة بعد مياه سرنديب، وسوف تلقى امرأة في جمال بنات البحر تنسيك كلّ من أحببت من قبل، وسوف تتزوّجها وترزقان مالاً وبنين، ولن تتزوّج امرأة غيرها».

تجهـم الرجل كثيراً وتوقف عن الكلام، قلت: يا أبا عثمان، ماذا ترى؟ قـال: «هناك من ربط حياتك بحياة أمير المؤمنين، رجل أو امرأة في قصر الخلـود كتب كتاباً من شدّة غضبه وحسـده ودعا على البصري أن يصيبه مـا يصيب الخليفة». قلت: وهـل يعقل أن يحسدني أحد على ما أنا فيه من تعـب؟ قال: «حاسدك ذو منصب كبير لـدى الخليفة، وإذا كان في القصر رئيس للشرطة فلعلّه رئيس الشرطة، وعليك أن تحذره». قلت: يا أبا عثمان، الرجـل الـذي تتحدث عنه أقرب الناس إليّ، قال: «يـا بنيّ، يحسدك أكثر أقـرب الناس إليـك، وأسوأ أنـواع الضعف البشري هو الحسـد؛ لأنه يؤلم صاحبه ويوجع من نحسد، الحسد خوف الجبناء، انظر حولك جيداً فترى أن الحسـود وحده يقتل، والحسود وحـده يسرق، والغنى الوحيد في الحياة هو غنى القناعة».

شعـرت بقشعريـرة شديـدة، ولم أعد أستطيـع أن أكمـل العشاء، لقد قـال الرجل الضريـر: حتى الآن كل ما هو صحيح، فهل يصحّ أيضاً إدراكه المستقبـل؟ هـل أعيش حقاً ما عاش سيدي أمـير المؤمنين؟ وماذا لو قضى غـداً في قتـال، أو مـاذا لو قضـى في مؤامرة مـن مؤامـرات القصر، وما أكثرهـا، ومن أنا كي يحسدني رئيس الشرطـة الذي يملك مفاتيح الغرف المغلقـة في بغداد، ويدخل إلى مخدع سيدي أمير المؤمنين، ويخافه الجميع حتى سيدتي الكريمة زبيدة، أميرة النساء، أميرة الجمال في أنحاء الأمة. من أنا؟ إنه أذنٌ سيدي تماماً، كما هو وزير البريد عيناه، ألاّ يصحّ أن يكون كلام أبي عثمان تخيلاً لما يجري في القصور.

سوف يتحوّل كلام تلك الليلة إلى هاجس يرافقني طيلة العمر، إلى كل مكان، وصرت أدعو لسيدي الخليفه مرّتين، ولنفسي مرّة.

مئة مظلّة من الذهب

كان ضحى اليوم الثالث من آخر شهور السنة القمرية عندما أطلّت علينا، بسقوفها الخضراء ومعابدها الطاغية الجمال، بنوم بنه، وأخذت ريح هادئة، مالحة، تدفعنا صوب الميناء فيما تصلنا شيئاً فشيئاً أصوات موسيقى لها شجى في النفس، مثل فرح مكبوت، ولم أستطع أن أتبين الآلات الصادحة أو أن أعرفها، فلم أكن أعرف من النغم إلاّ أوتار عود الموصلي، وهو يستجمع رخامة الوتر والصوت، في حضور سيدي، أمير المؤمنين.

عرفنا فوراً أن بنوم بنه كانت في مهرجان ما، وقد تركت السفينة بسرعة مع عدد من بحارة «العنقاء» ونزلنا نتفرّج على العرض المكي. ثمّ بان لنا الملك نفسه «وخلفه الأعلام والموسيقى وفتيات القصر، نحو ثلاث مئة إلى خمس مئة، في رأس كل منهنّ زهرة وفي يدها شمعة مشتعلة حتى في وضح النهار، وخلفهنّ فتيات أخريات يحملن الأواني الذهبية والفضية والأواني المزخرفة، ثم يتبع خلفهنّ الفتيات، حارسات القصر حاملات الرماح، تليهن عربات تجرها الماعز، تليها عربات تجرها الخيول، جميعها مزيّن بالذهب، ثم يأتي الأمراء والوزراء جميعهم على ظهور الأفيال. ونرى أمامهم من بعيد شماسيهم الحمراء التي لا تعدّ، وبعدهم تمرّ زوجات الملك ومحظياته، في العربات وعلى الخيول وعلى ظهور الأفيال، ومعهنّ أكثر من مئة شمسية مرصّعة بالذهب، وخلفهنّ الملك واقفاً على فيل، حاملاً بيده سيفاً من الذهب الذي رصّعت به جوانب الهودج على

الفيـل، وهناك عشـرون مظلّة قاعدتها من الذهب أيضـاً، وكان من حوله أفيال كثيرة تتدافع وحوله حرس كثير لحمايته».

حـين مـرّ فيل الملك مـن أمامي وأنا مذهـول بمـا أرى، لم أنتبه إلى أن علـيّ أن أنحنـي مثل غـيري، فالتفت إليّ في تعجّب، وتوقّـف الموكب فجأة، وأنـا لا أدري ما يحدث، سمعت الفيلة تصـرخ وأحمالها من الذهب ترسل أصواتـاً كالألحان، إلاّ أن الناس همهمـوا وصرخوا بي أن أنحني فلم أفهم مـا يقولون، فأمسك بـي اثنان منهم بقوة ورميـاني إلى الأرض، غير أنني نهضـت غاضباً، فضحك الملك ضحكـة عالية، وضحك الجميع، وضحكت المدينـة، وضحكت الصبايا مثـل العصافير في تغريد واحـد، فلم أتمالك نفسي من أن أضحك مع الجميع، يا لها من لحظة سعيدة!

استمـرّ الموكب ساعـات في طرقات ضيّقـة، تملؤها المعابـد، مرصوفة بالحجارة، فلمّا انتهت المسيرة، شعرت كأنني عبرت قصراً مفتوحاً جُمعت فيه منحوتات الكون، وكانت هناك نقوش في كل مكان لرجال وآلهة صنمية ونساء من الماضي والحاضر، ومشينا في المدينة بغير هدى، فوجدنا الناس لطفاء، يبتسمون لنا بفضول وكأنهم لم يروا غرباء قبل اليوم.

وفيمـا نحن بعـد في أطراف المدينـة وصلت فرقة مـن الفرسان تفرّق أمامهـا الناس وانحنـوا، وترجّل أحدهم وقـال لي بالعربية: «سيدي الملك أرسلنـا؛ كي نعرف من أنتم ولمـاذا جئتم، فهل أنتم من التجّار؟»أجبت: بل إننـا من رُسل أمير المؤمنين سيـدي الرشيد، نصره الله، ومعنا رسالة إلى ملـك بلاد القمار وعلينا مهمّة أن نحمل معنـا إلى دار السلام ما ثَمُن من الكتب، وأن نسلّم إلى الملك الهدايا التي بعث بها الخليفة.

وبـدا الرجل مرتاحاً، ولكن متردداً أيضاً، وقال: إن البلاد في مهرجان لـن ينتهي قبل ثلاثة أيـام، وبعدها يقابلنا وزير البـلاط وينظر في أمرنا. فإمـا أن يسمح لنا بالمقابلة الملكية، وإما أن يتسلّم هو الرسالة وينقلها إلى صاحـب الجلالة، وقلت له في هدوء، وإنما في حزم: إن العادة قد جرت أن يستقبـل جميع الملوك بأنفسهم موفدي سيـدي الرشيد، فهزّ رأسه موافقاً ولكن من دون أن يلزم نفسه بشيء.

وعندما همّ الرجل بالذهـاب وصل فجأة ثلاثة من رجال الحرس على خيولهـم وقالـوا له شيئاً على عجـل، ثم استداروا عائدين مـن حيث أتوا. فتمهّل قليلاً وابتسم:

ـ لقد حللتم في ليلة الحظّ! إن الملك يطلب أن تشاركوه الاحتفالات ثلاثة أيام، وبعدها تقابل الوزير، تأخر الليل في السدول، وراح القمر يتكسّر فوق ميـاه الميناء كأن أشعّته تطارد مثـل عاشق أزهار الفيلوفار، وبعد قليل جاء وفد مكي وحمّالون وحرس يتقدّمهم الترجمان الذي أبلغني أن بيتاً صغيراً في جـوار القصـر المكي قد خصّصـص لإقامتي، ورفض النَّاخُـذَاة أن يترك «العنقاء» وسمح أن يرافقني الصيدلي وعدد قليل من الرجال.

شعـرت كأنني أعرف هذه المدينة الآن، أحـداث كثيرة وقعت واليوم لم يكتمل بعد، وفيما كنا نتجه نحو مقرّ الضيوف كنا نرى أناساً تعبر الطرقات ومعهـا مصابيـح، أو أخشاب بطيئة الاحـتراق، تستخـدم كالشموع بفعل زيوتهـا، وكان آخرون يطلقون الضحكات وهم يتسامرون أمام منازلهم في هناء واضح، وبدا أنها مملكة سعيدة حقاً والناس آمنون وبلا تذمر، وكنت أقـول في نفسـي والخيل تتهادى أمامنـا: إنها مدينة تحـب الحياة وتعرف

كيف تحياها، فإذا كان العيش فناً وطيباً وجمالاً، فهنا محترف هذا الفن. محترف قائم في الهواء الطلق وبين الشجر الهائل الأحجام وعلى ضفاف البحيرات الصغيرة التي تسبح فيها زهور الفيلوفار، كالبجع المنسي، الذي سقفه السماء وأرضه سطح البحيرات.

نمت متعباً فوق سرير مرتفع غُطّي بالحرير الأزرق، الوسادات زرقاء والأغطية زرقاء وستائر الغرفة زرقاء وبلاطها موشّى بالأزرق، وفي زاويتها البعيدة كانت هناك مزهرية عالية ملئت بأنواع الزهر الأزرق، وعلى السرير وضعت لي منامة من الحرير الخالص والأزرق الخالص.

كانت الغرفة شاسعة فسيحة، وحين أفقت في الصباح وفتحت النافذة قليلاً تعالت تغريدات العصافير من كل لون وانبسطت عيناي على جنات تحرس مساكبها الجميلة فرقٌ من التماثيل، وفيما رحتُ أتأمّل هذه البهجة سمعت في الباب صوتاً رفيقاً يسأل في حنان:

هل يسمح سيدي بأن أدخل؟

شقّت الباب وكأنها تعتذر من درفتيه، وبدت أولاً أطراف «مروحتها» المصنوعة من الحرير ثمّ بدا ساعدها الأبيض الصغير من طرف كمّها الواسع، تقدّمت بهدوء، تحني نصفها الأعلى بحيث يظلّ وجهها الجميل بادياً وابتسامتها الهانئة ترمي السحر أمامها، وسبقها فوح ياسمين، ثم ركعت وقد شبّكت يديها وضمّتهما إلى صدرها: أنا راي تي، وسأقوم على خدمة سيدي، الليل والنهار، لقد أمرتُ بسعادة سيدي.

لم أدرِ كيف أجيب، لقد بهرني الزهر وأذهلتني هذه العزوبة التي لم أرَ مثلها من قبل، لا في بحر ولا في غابة ولا في بلاط، وإلى اليوم كانت كل

امرأة رأيتها تراوح في السمرة بين الداكن والحنطة، أمّا راي تي فقد كانت بلون الياسمين، وكان لها عينان واسعتان سوداوان، مثل ابنة عمّي ليلى. وقد أيقظت تحيتها فيّ كلّ ما عرفت من حبّ وكل ما سأعرف، لقد تأهبّت حياتي على حين غرة وساورني خدر.

حاولت التجلد قليلاً، هل من أجل هذا أرسلني سيدي أمير المؤمنين؟ هل من أجل راي تي أتيت؟ ما هذا الخدر الذي دبّ بي بطيئاً، كاملاً، كنزول الليل إلى النهار، كدخول البحر في العتم، أيّ مرحلة من العمر هي هذه المرحلة، حين يتراءى للرجل أنه يكاد يغيب فيما هو في ذروة تيقّظه، حين يتراءى له أنه في أنبل مشاعر الأرض، ولكن أمام امرأة جاءت تخدمه، حين يخيل إليه أنه جاهل مثل يافع، وذليل مثل هرم مسنّ، حين لا يملك حرفاً واحداً يقوله ولا تملك المرأة كلمة واحدة تقولها سوى رموشها المطبقة على نهر صامت كالحقول، هادر كالضفاف، أين أنا يا راي تي وأين بغداد وأين حديقة الشيخ محمد في أماسي البصرة، أين الأسفار والليالي التي بلا طيف، وهل كنت سأعدّ النجوم لو تسنّى لي أن أحصي أهدابك! من أنا يا راي تي وماذا حدث؟ ما هذا الفيضان من العذوبة. ماذا حدث يا راي تي فإنني كائن تجمّل له الكون برمّته فجأة فهل هذا هو الكون، وهل يكون الحبّ هكذا باقة من زهر الحزن، وباقة من ورد الفرح وامرأة من قِمار، كيف أصف لك يا راي تي صورتك وقد تقدّمك ذراعك الصغير الأبيض، وكيف تشكّلت انحناءتُك مثل غصن لوز مشكوك بالزهر لامسته الريح؟ وكيف يا راي تي أصف لك أهدابك حين أغمضت، وأهدابك حين انشقت. كيف يا راي تي؟

قالت راي تي وهي تضع خفّها خارجاً وتعبر الباب منحنية: «لقد أمرتُ بسعادة سيدي وراحته». ثم رفعت رأسها وتراجعت قليلاً مثل سحابة. وقفت إلى الباب وكأنها تنتظر أن أقول شيئاً ما، لكنني كنت ما أزال أتأملها ولم أقل شيئاً، ثم مدّت يدها ففتحت الباب وسيعاً بهدوء، فإذا ثلاثة من الخدم يحملون الصواني الفضيّة على امتداد أذرعتهم، فأمرتهم راي تي بالدخول فتقدموا بانحناء ووضعوا الصواني فوق مساند مزركشة في صدر الغرفة، وأخذت راي تي توزع الصحون فوق رداء مزركش ثم ركعت أمامي وهي تفرش ابتسامتها فوق كل شيء، مذ تلك اللحظة صارت هي كل شيء. لقد أبحرنا من مملكة بنوم بنه ومعي ملكتي.

الأمير الطيّب يحب رعاياه

أقام الإمبراطور، تي تسونغ، مثل جميع الأباطرة قبله، إلى جانب القصر، مكتبة كبرى وقاعة كبرى يستقبل فيها الضيوف، وقبل أن نصل إلى قاعة الاستقبال، مع المرافقين، أبلغني المترجم أن الركوع أمام الإمبراطور فرض ضروري على جميع أهل المسكونة، سواء كانوا من رعاياه أو من ضيوفه. وقال: إن مبعوثين من الخليفة كان قد أرسلهم قبل وصولنا بثلاثة أعوام من بغداد جاؤوا لمقابلة تي تسونغ، فلما طلب منهم الركوع انسحبوا معترضين قائلين: إن المسلم لا يركع إلا لعبادة الله، سبحانه وتعالى، لكن وزير القصر عاد فشرح حقيقة الأمر كما شرح ذلك لموفدي الملوك من أرجاء الأرض، الذين رأوا هم أيضاً في العادات الطيبة القديمة إهانة لهم.

كانت قاعة الاستقبال قائمة على أربعة أعمدة تحمي سطوحها المنزلقة. وفوق السطح، عند زواياه الحادة، وضعت تماثيل لحيوانات صغيرة، وفي أعلى الزاوية العليا وضع تمثال لحيوان ضخم الحجم، لم أستطع أن أتبيّن نوعه، لكن الحيوانات في الصين رمز السنين.

يصعد الناس إلى القاعة على سلم من إحدى عشرة درجة خشبية وتحاط كلها بحاجز من الخشب المنقوش، أما جدار القاعة نفسها فمن المربّعات الخشبية التي تشبه تلك المربعات التي كانت حاجز الحديقة في بيت عمي مراد، لكنها هنا في علو القصر ولم تسدّ إلا من أسفلها، منعاً لتسرب الهواء والناس جلوس.

ربـط الإمبراطور شعـره في ضفيرة إلى الخلف ورفعهـا إلى فوق تحت قلنسوتـه المرخيـة الذيل، وكان يقسم لحيته غير الكثّـة إلى قسمين، واحد تحت الأذن وواحد عند الذقن، أما شارباه فأرخاهما ما استطاع، ولم يكن أصلـع لكنه متراجع الجبين، أما لباسه فـكان عباءة من الحرير فوق ثوب طويل من الحرير ترتفع قبّته إلى ما وراء ذقنه تقريباً.

وكان اللـون الأحمـر طاغياً على كل شيء، لولا بعض الذهب والأواني الصينية الفاخرة جداً، وكان يقف خلف عرش الإمبراطور حارسان هائلا الجسـم كمثل الثيران التـي رأيناها تجرّ العربات في شـوارع سينغان فو، مقرّ الإمبراطور.

سلّمـت الإمبراطور رسالة سيدي الخليفة فلم يـترك لي أن أقرأها بل أمـر بأن تبقى ملفوفة كمـا هي، وتوضع جانباً، وكان أكـثر ما أدهشني أن الصينيـين يحوّرون الأسماء العربية تحويراً كليـاً، فسيدي الخليفة، مثلاً، ليس «هـارون»، نصـره الله، بل غا ــ لون، وقد بـدأ الإمبراطـور حديثه بتوجيه الشكـر إلى سيدي، ثم نقل المترجم كلاماً مقتضباً، وخالياً من أيّ موقف، عن العلاقة بين الصين وأمة الإسلام، وبعد ذلك، أذن لي بالكلام، فقدّمت خلاصة لرسالة سيدي الخليفة وعددت الهدايا التي حملناها على العنقاء، ثم بدأت في شرح أسباب مهمّتي، وقلت: إن سيدي الخليفة أمرني أن أنقـل إليه وصفاً دقيقاً لأصول الحكـم، والحكمة من هذه الأصول، وأن أقـدم للإمبراطـور في الوقت نفسـه نسخة من القرآن الكـريم يهتدي بها وكتباً عن الطبّ عند العرب.

تبسّم الإمبراطور في رضى واضح، فقد راق له الكلام عن حكمة الصين وتوق سيدي الخليفة إلى المعرفة، وكان واضحاً أنه يخشى جبروت الإمبراطورية الإسلامية ويحترمها في وقت واحد، ولم يطل اللقاء كثيراً. فقد قال المترجم: إن الإمبراطور أمر بجناح خاصّ لنا، كما أمر أن يأتي كبير حكماء القصر إلى زيارتي كل يوم من الفجر إلى الضحى، كي يحدثني في كل ما يخطر في بالي من أسئلة، لأحمل الأجوبة إلى الخليفة.

لاحظت اضطراباً شديداً في أرجاء القصر، وحين وصلت جناحي وجدته مفروشاً بالطنافس والحرير، وجدرانه مليئة بالرسوم الصينية الجميلة. وكانت هناك أيضاً لوحات زاهية لفراشات كثيرة، كتلك الفراشات التي رأيتها على قمّة جبل سيدنا آدم عليه السلام.

بعد صلاة الفجر دخل خدم كثيرون يحملون جميع أنواع الطعام، بدءاً بالحساء، وما إن فرغت من تناول الفطور حتى دخل القاعة المجاورة الترجمان الإمبراطوري ومعه رجل ضخم القامة أبيض الشعر، أبيض اللحية تماماً، وقد أرخى شعره على كتفيه يرفعه أو يشده على الطريقة الصينية. عرفت على الفور أنه كبير العلماء، شعرت بالحرج إذ انحنى أمامي حتى الأرض، رجل يذكرني بوقار الشيخ محمد. ثم انتقى لنفسه أعلى كرسي في القاعة وجلس عليه، ويبدو أن الكرسي المرتفع في التقاليد الصينية، للعلماء، وبدلاً من أن أبدأ بطرح الأسئلة قال الرجل في وقار شديد:

«يبدو يا بنيّ، أنك ما تزال في مقتبل العمر، لكن السفر يعلم الشباب الحكمة، والشيوخ الفطنة، وقد بلغني أنك رحالة الخليفة، إنها لمهنة سعيدة.

لقد جئتنا والصين خارجة من اضطراب، لكن شكراً للسماء، فالأحوال اليـوم أفضل من أمس، والأمـل طبعاً في الغد فالأمـس في حساب الزوال. والـزوال البائد لا قيمة له، فقط الأمس الجيـد يعطي غداً جيّداً، الحنطة الصادقة تعطي الحنطة، الزؤان حنطة كاذبة، وشديدة المرارة.

الإمبراطـور تي ـ تسونـغ سوف يقود الصين إلى الهـدوء الدائم، هكذا أرجـو أن تبلـغ الخليفة، لقد هدّتنا الحروب الأهليـة في ظلّ ثلاثة أباطرة. وقـد كان تعدادنا أكثر مـن تسعة آلاف عائلة، أمـا الآن فنحو أربعة آلاف. وجنودنا نحو 768 ألفاً من الرجال.

وقد هدّأ الإمبراطور للتوّ ثورة قام بها حكام الولايات وطالبوا بأن تصبـح وراثية، فلمّا حـاول المماطلة أشعلوا الحـرب، والحرب كلفتنا 1,300,000 تايل كل شهر (نحو ألفي دينار)، ومن أجل إعادة تشكيل فرقة الفرسـان اضطررنا إلى شراء 150 ألف رأس من الخيل. وقد أدت خسائر الحـرب إلى فرض الضرائـب الباهظة، ففرضها أحـد وزراء الإمبراطور الحمقـى علـى كل البيوت، فقـيرة وغير فقـيرة، وابتـزّ التجّـار الأغنياء تحـت ستار الاقتراض منهـم فتوقفت التجارة وشلّـت، فقامت الثورة على الإمبراطـور حتى من جنوده المخلصين، وكل ذلك بسبب وزير رديء حظي بثقـة الإمبراطور، إلا أنه عاد فطرد الوزير السيّـئ وأعلن العفو العام، ثم اعتـذر للشعب متحملاً كل المسؤولية، معلناً أنه هو الذي لم يقدّر كما يجب تلـك الهبة التي منحتـه إياها السمـاء، وأنه لم يكن يشعـر ببؤس الناس. وقال: «أن يصبح المرء إمبراطوراً معناه أنه تلقّى من السماء الأمر بإطعام شعبه، الأمير الطيب يحبّ رعاياه، ليس مثل أولاده، بل مثل نفسه، إن عليه أن يسهر على إطعام الجياع وكسو العراة».

قاطعت الحكيم قليلاً كي أسأل، من كان، في رأيه، أفضل الأباطرة. قال: «دخل مرّة كبير حكماء الصين كونغ ـ تسو إلى «معبد الضوء» وفاجأه وهو يتفقّد أرجاءه أن اللوحات التي تمثل الأباطرة والملوك القدماء وضعت كلها جنباً إلى جنب فجمعت بين الطيّبين والأشرار على جدار واحد. وعندها نظر في تلامذته وقال لهم: هاكم صورة ياو وتشون في مكان واحد مع كي وتشيو، إن ما يجمع فقط بين هؤلاء أنهم جميعاً كانوا أباطرة، الأولان كانا ابني السماء، وقد أدّيا أفضل الخدمة للناس، الآخران خالفا السماء وأرعبا الناس، لكن ماذا نفعل، ففي الحقل الواحد ينبت الشوك والورد معاً».

ولكن، عدت أسأله، أليس هناك إمبراطور مفضّل لديه على الأقل، قال: «وضع الإمبراطور تساي تسونغ كتاباً اشترط ألا ينشر قبل وفاته (649). وبعد الوفاة تبيّن أنه استدعى وليّ عهده قبيل نزعه الأخير بأيام وقال له: «يا بني، كن عادلاً ولكن طيباً، احكم نفسك أولاً، كن إمبراطوراً مطلقاً على مشاعرك، وعندها تحكم قلوب رعاياك بلا تعب، عاقب قليلاً وباعتدال، ولكن كافئ حسني الأفعال بأيدٍ مليئة، لا تؤجّل أبداً إلى غد مكرمة تستطيع أن تفعلها اليوم، لكن أجّل العقاب إلى أن تتأكد بنفسك أنه عقاب حق، لابد لك أن تتخذ أحد الأباطرة القدماء كنموذج تحتذيه، لا تنتقي سوى واحد فقط، ولكن تأكد من أنه الخيار الأفضل، ولا تدع السمعة التي أتمتّع بها تزرع أمامك الأوهام، لقد وضعت الإمبراطورية في عائلتنا. وأخضعت الثوّار، وهزمت التتار، وأعدت إلى الدولة بريقها، وبسبب ذلك كله فضّل الناس ألا ينتبهوا إلى أخطائي، إن موقفهم منك لن يكون مشابهاً، وما دمت لم تحقق الأعمال نفسها، فلا تطمع في الاحترام نفسه».

ثم توقف الحكيم قليلاً، وقال: هل أجبت عن سؤالك الآن؟ فأجبت: يا سيدي الحكيم، لقد أغرقتني في المعرفة وجعلتني أشعر بالخجل من معارفي.

ثم تابع:

«كان لكل إمبراطور حسنات ما، لكن تاي تسوتغ كان كثير الحسنات، وعندما مات وهو في القمر الثالث والخمسين من العمر بكته مملكة الصين على أنه أحد أعظم الأمراء الذين حكموها وملأت الدموع عيون الرعية، وشعر سفراء الدول المجاورة والبعيدة الذين كانوا في العاصمة آنذاك بحزن عميق جداً، فبعضهم قصّ شعره حداداً عليه، وبعضهم غرز في وجهه آلة حادّة، وبعضهم جعل الدماء تذرف من أذنيه فوق نعش الإمبراطور العظيم.

على أن تاي تسونغ كانت عليه أيضاً ثلاثة مآخذ كبرى: الأولى حبّه الشديد للنساء، والثانية شدة تعلّقه بتعاليم فو، والثالثة حبّه الشديد للمجد ولأن تكون سمعته حسنة في البلدان الأجنبية».

هل كان الحكيم يلمّح بطريقته، إلى حياة سيدي الخليفة؟ لست أعتقد فالمرأة في الصين آسرةُ الرجل، ويحقّ للصيني الزواج من تسع نساء، لكن المرأة الأولى فقط تُعد من الفئة الأولى ولا تحلّ امرأة أخرى مكانها إلا بالموت، ثم قال الحكيم: «يجب ألا نحجب العمل عن النساء لكن يجب أن نحجب عنهنّ السلطة، إذا أضفت القوة إلى الدهاء توسعت الممالك، لقد حكمت الصين الإمبراطورة وو ـ هيو فماذا حدث؟ أحبّت ابن شقيقها وأحبّت أميراً تركياً ما لبث أن هاجم البلاد، لكن ليست هي المثال الذي

أريد أن أحدثك عنه، المثال هو الإمبراطور تشونغ. تسونغ الذي رأى أن مسؤولية السلطة كثيرة عليه، فقرر أن يسلّم كل شيء للإمبراطورة «فاي». فماذا حدث؟ كلما كانت سيّدة القصر قوية كان كل شيء يباع ويشرى. كل شيء، الوظائف، العدالة! كل شيء وكانت سيدة القصر تعطي عادة أوامر مناقضة لقرارات الدولة، وكانت الإمبراطورة «فاي» تصرّ على حضور جميع اللقاءات الرسمية فتجلس خلف ستارة وتسمع كل ما يقوله الإمبراطور أو ضيوفه «كل شكاوى الوزراء كان يجب أن تمرّ عليها. ولم يكن الإمبراطور يفعل شيئاً دون استشارتها، وفي النهاية ترك كل شيء وانصرف إلى ملذّاته، فحوّلت سيدات القصر كل شيء إلى تجارة ومخازن، وفي «عيد القناديل» كان يتخفّى في ثياب عامية، ليشارك في الاحتفالات. وفي النهاية دسّت له الإمبراطورة السمّ لكثرة ازدرائها له، أما هي فماتت بعده بقليل.

هذا مثال الإمبراطور الذي يعادي السماء، لكن كي نعود إلى الإمبراطور المثالي، فليس لي سوى العودة إلى الإمبراطور تاي تشونغ، ليس إليه بالذات، فهو كان بشراً ولكن إلى الكتاب الذي وضعه وأمر بعدم نشره قبل وفاته، ماذا في الكتاب؟ «فيه حكمة الحكم، الأشياء التي استطاع أن يحققها وتلك التي لم يستطع، في التضارب بين الرغبة والواقع، دعني أقرأ لك أهم ما ورد فيه «الشرط الأساسي لأي حكم جيد هو ألا يعطي الوظائف الرفيعة إلا لأهل الفضيلة والاستحقاق، والإمبراطور الذي يرفع إلى أعلى منصب يرتقيه رجل يجب أن يحب شعوبه في المقابل، وأن يعمل ليجعلهم سعداء، من أجل ذلك لابد من أمرين: النظام الجيد، والأمن. وفي الأمر الأوّل

يجب أن يكون هو القدوة، أما في الأمن فلا بد من جيش يخيف الأعداء فلا يحاولون عبور الحدود، ففي حين أنه يجب أن يحكم شعبه في الداخل بكل طيبة، لابد من القوة والخوف لإبعاد الهمجيين وضمان الحدود.

الحكم شيء صعب جداً، يقول بعضهم: الحكم شيء سهل جداً، يقول بعضهم الآخر: إن هيبة الإمبراطور تجعل الأمير فوق كل الرجال، إن له سلطة مطلقة، والعقاب والمكافأة بين يديه، وهو لا يحكم فقط على كل ثروات البلاد بل له أن يسخّر أيضاً العلماء ومواهب جميع رعاياه، ماذا يريد ولا يكون له وماذا يطلب ولا يوجد؟

لكن الفريق الآخر يقول: ويل للحاكم إن هو أغضب السماء، وويل له إن أغضب الأرواح، وإذا أراد أن يبني أشياء جميلة كالحدائق والمباني العالية فلا بد أن يهلك الناس بالضرائب فتتضاءل الزراعة وتكثر الشكوى، فإذا لم يصغ الحاكم عُدّ طاغياً جاء إلى الدنيا لإنزال الحزن بالناس.

كنت كل يوم بعد تسيير شؤون الحكم الضرورية في الإمبراطورية، أخصّص باقي الوقت للتنزّه في التاريخ الماضي، أتفحّص سلوك كل سلالة والأمثلة الحسنة والرديئة التي تركها جميع الأمراء، والثورات وأسبابها، وقد استخلصت من كل بحث ثماره، بحيث أستطيع حقاً أن أحكي عنه. الثمرة أو الأمثولة الكبرى أن على الإمبراطور أن يرى ما يحب وأن يواجه ما لا يحب، وإلا عمي عن فروضه، والعمى يؤدي إلى الخسارة.

جعلت من نفسي مرآة، بالقياس مع ما قرأت، بحيث أستطيع أن أرى أخطائي وأصلحها، إن أصعب ما يواجه الحاكم هو اختيار الناس للمناصب

المناسبة وتوظيف كل رجل حسب موهبته، ومن يرفض أصحاب المواهب يرفض الطرق إلى الخلاص، وهناك تبدأ المشكلات الكبرى، حتى الفاضلين يجب ألا نوظّفهم إذا كانوا بلا مواهب، إنها شروط صعبة، لكنها ضرورية للحكم، «التربية أساس كل فضيلة، وقد تعلّمت في فتوّتي أمثولات جيدة. فلم يكتفِ أبي ولا الأساتذة الذين كلفهم تربيتي بتلقيني «كتاب القصائد» و«كتاب التقاليد» بل أطلعوني في الوقت نفسه على المبادئ الكبرى التي يقوم عليها صالح الأمم وحكومة الشعوب، وبسبب ذلك استطعت أن أدمّر أعداء الدولة في قلعة واحدة، وأن أنقذ الناس من الاضطهاد وأضمن لهم السعادة والحرية، وقد ملأت قلبي للرعية دائماً بالطيبة، وإن كنت أظهرت من القسوة أحياناً أكثر ممّا أظهرت من العفو، فلأن هناك من المجرمين مَنْ لا يستحقّون الرأفة على الإطلاق، لم أضع أمامي سوى الصالح العام وراحة الإمبراطورية، لقد كلّفني أبي الإمبراطور، وهو يعتزل على تا ـ نغان، أمر الحكم، وكان علي أن أطيعه.

غالباً ما لا أنام الليالي، وأقوم دوماً قبل بزوغ الضوء، وفي كل كلامي وأفعالي أحاول أن أرضي السماء وأبي، إن قلبي مليء بالرحمة حتى للخاطئين، ولذلك سوف أعيد النظر في العقوبات، وسوف أحاول تخفيف بؤس الناس، وأقمع أولئك الذين يضطهدونهم، كم أفرح حين يقال لي: إن السرقات قد خفّت كثيراً، وإن السجون في مدن كثيرة أصبحت خالية».

قاربت الظهيرة والرجل الحكيم يتحدّث بلا تعب ولا ملل، كان كأنه يختزن كل سنوات الإمبراطورية، مع أنه يتحدث عن إمبراطور واحد، لاشكّ أنه مثاله الكبير وقرّة عين الناس، كان يتحدّث وأنا أنهل بلا ملل

أيضـاً، لكنه خشي على ما يبـدو ألا أعود قادراً علـى المتابعة، توقّف قليلاً ثم أكمل:

«بعـد حوالي الساعة يا بنيّ، سوف أتركك للصلاة، وآمل أنني لم أتعب ذاكرتك فهي شابة، وفيما بعد سوف ندوّن كل شيء بالعربية للخليفة أمير المؤمنين، لكننا أحببنا أن تسمع بنفسك قبل ذلك، وأن نرّد على أسئلتك أو ما يخطر في بالك، لقد حدّثتك عن أقوال الإمبراطور والوصايا التي تركها لمـن يخلفونه، لكن دعنـي أحدثك أيضاً عن شيء مـن أعماله: لقد خفّض الضرائب بنسبة هائلة، وخفّض إلى النصف الضرائب السنوية التي كانت تشـكل دخـل الأباطرة، وأعفى تمامـاً جميع الأقاليم التي تبـور مواسمها. وألغـى معظم القوانين المتعبة بلا فائدة، كمـا ألغى جميع القوانين التي لم تكن سوى مكبلة ومزعجة، وحدد عدد الجنود الذين يجب أن يكونوا دائماً في حالـة تأهّب، وعيّن لهم الأماكن التي عليهم حراستها والمهامّ التي يجب أن يقوموا بها خارج الخدمة.

ضمـن هـذه الترتيبـات جعـل القانـون المـدني مـن خمس مئـة فِقرة وقانون العقوبات من عشرين، خفّض الأحكام وضاعف المكافآت، خصّص مساعدات حكومية للمعاقين والعجزة، إلى الفقراء وإلى الشبان الذين بلا عمـل، إلى الحوامل، وخصّص فوق كل شـيء مساعدات لتشجيع المواهب! ورغم كل حسنات الإمبراطور فقد تعرض مرات عديدة لمحاولات الاغتيال من المتآمرين».

قام الحكيم ومشى وقمـت إلى الصلاة، وحين نزلت إلى غرفة الطعام مـع زوجتي واي تـي وخادمتها نو ـ تسو ـ هي وجدنـا في انتظارنا مقصفاً

يذكّر بمقاصف سيدي الخليفة، وكانت تقوم على خدمتنا فتيات صينيات حسناوات لهن مساحيق واحدة، وتسريحة واحدة، وثوب واحد، وابتسامة واحدة، وعطر واحد، وانحناءة واحدة أيضاً، وكن كمن يؤدّي دوراً مسرحياً أو مثل فرقة عسكرية من النساء.

وقبل أن نبدأ في تناول الطعام دخلت ثلاث مغنيات ومعهن ناي وقيثارة، ورحن يؤدّين ألحاناً عذبة، يبدو أنها أطربت راي تي أشدّ الطرب وأعذبه، ورحت أتأمّل راي تي فأراها تتحرّك مثل فراشة. ابتسامتها العذبة لا تغيب عنها حتى وهي تحمل كوب الحساء وترشف كمثل فراشة صغيرة ترشفه من نهر، ومنذ اليوم الأوّل للزواج لم أفق يوماً إلا لأرى راي تي راكعة على طرف الفراش تنتظر أن أفيق؛ كي تنحني أمامي، وقد قلت لها: إنه ليس من الضروري أبداً الانحناء غير أنها تقول: إن سعادة المرأة هي سعادة زوجها، والبيت السعيد هو البيت الذي لا يشعر بوجود المرأة، لقد خلقت المرأة، تقول راي تي، لتكون عذبة مثل الينابيع، ناعمة مثل فراشة، وصلبة مثل شجر البو.

في البيت القماري، تقول راي تي: الأم تعلّم الابنة كيف تكون قارورة من العطر، والأب يعلم الرجل كيف يكون ربّ العائلة، المرأة يجب أن تتعب لتملأ البيت بكل ما هو جميل ولذيذ، الرجل عليه أن يملأ البيت خيراً وسلاماً، على المرأة، تقول راي تي: أن تتعلم الغناء والموسيقى، وأن تحفظ الشعر والحكايات والأمثال، وعلى الرجل أن يحفظ البيت، وفي بلاد القمار تعرف المرأة موعد عودة الرجل فعليها أن تلقاه خارج العتبة وتنحني أمامه وتطلب منه أن يرمي أحمال الخارج قبل العتبة، «فالإنسان جزء من النظام الشمسي، وحين تجفّ مياه الأنهر تبين الحصى».

ولا تجـرؤ راي تـي على القـول: إنها تحبني، فذلك يقلـل من احترامها لنفسها، وهـي تنادينـي «سيدي عبد الله» وفي المساء تسمّيني «الأمير الذي جاءنـا من بغـداد» وتقـول لي أحياناً: «يا أمـيري الحقيقي يـا عبد الله»، وأحيانـاً أشعـر أن عذوبـة راي تي تـكاد تذيبني، أنا وقسـوة الأسفار وحرّ البحـار والشمس الأبديـة التي تلاحقني من طفولـة البصرة، فآخذ يدها البيضـاء في يـدي وأقول لها: إننـي أحبّك يا راي تي، أنـت مينائي الدائم والأخير، أنت الظلّ اللطيف في هذه الشمس الأبدية، وأنت يا راي تي تعزية الحنين إلى حديقة الشيخ محمد.

وأحيانـاً لا تفهم راي تي كل ما أعنيه، لكنها تفرح مثل فراشة، وتشبك يديهـا وتنحنـي، وتبتسم، وتكاد تـذوب مثل نهر من البلسـم على الأرض. فأشعـر بفـرح عظيم، وأمسـك يدها الصغـيرة البيضاء وأقـول لها: إني أحبك يا راي تي، أنت في هذه الشمس الأبدية.

في المسـاء تكرّر المقصف، والغنـاء، وكان الليل مقمراً فخرجت مع راي تي إلى الشرفة، وشعرت بفيض من عذوبة راي تي يملأ المكان ويغمر الليل، فأمسكـت يدها الصغـيرة البيضاء وقلت لها: أنت يـا راي تي، مثل نجمة الصبح. مثل نجمة الصبح.

خطاف العصافير

عند طلوع فجر اليوم المقبل، أفقت فرأيت راي تي راكعة، بكامل زينتها، عند الفراش، وقالت لي: الحكيم في القاعة ينتظر، ولكن بعد أن تؤدّي الصلاة، سلّمت على الحكيم بالطريقة الصينية وأخبرته أن كلمات الأمس قد سحرتني ورسخت في ذاكرتي، قال: «لقد حدثتك عن الإمبراطور كمثال واليوم سوف نتحدث عن كونغ ـ تسيو حكيم الصين الكبير، إن الحديث كاملاً عنه يتطلّب أقماراً كثيرة من السنة، لكنني سوف أحاول أن أنتقي للخليفة الشابّ بعض الأمثال والأقوال.

دعني أبدأ بحكاية كونغ تسيو وخطّاف العصافير، مرّة كان كونغ تسيو مع تلاميذه، فرأى رجلاً يقبض على العصافير، فطلب منه أن يصنع لها فخاً من شباك، وحين رأى الرجل يوزّع الطيور على أقفاص معينة وكيف أنها تحاول يائسة العودة إلى الحرّية، خاطب خطّاف العصافير قائلاً: إنني لا أرى هنا سوى عصافير صغيرة، أين وضعت الكبيرة؟

أجاب الرجل: إن العصافير الكبيرة أذكى من أن تقع في الشرك، إنها تتفحّص كل غصن قبل أن تحطّ عليه، فإذا رأت شبكة أو قفصاً فرّت بسرعة، ولا تعود أبداً إلى المكان، أما إذا حدث ووجدت عصفوراً كبيراً بين الصغار، فهذا يعني أنه قد تبع صغاره.

ونظر كونغ تسيو في تلامذته وقال لهم: لقد سمعتم ما قال الرجل. إن العصافير الصغيرة تتجنّب الفخّ عندما تتبع الكبار، والعصافير الكبيرة

تسقط عندما تتبع الصغار، هكذا هو أيضاً حال الرجال، الشبّان يميلون إلى الغرور، مجرّد معرفة بسيطة ويظنون أنهم صاروا حكماء، مجرد أمر صغير ويعتقدون أنهم بلغوا الذروة، هذا الغرور يجعلهم لا يشكّكون في شيء ولا يتردّدون في شيء، إنهم يتصرفون بحمق دون استشارة الكبار فيخطئون الطريق ويقعون في أوّل فخّ يرسم لهم، وبعض الكبار يقلدون الصغار ويتبعونهم، لقد سمعتم ما قال خطّاف العصافير.

كان كونغ تسيو يجعل الحقيقة في خدمة البشر، وليس البشر في خدمة الحقيقة، ولذلك أعاد النظر في جميع الكتب القديمة وأبقى منها ما يعايش الأضواء الجديدة، فقد اختصر مثلاً «كتاب السنوات» من مئة فصل إلى خمسين فصلاً، واختصر «كتاب الأشعار» من ثلاثة آلاف بيت إلى 311. وكانت شرائع «مانو» الهندية تقع في 200 ألف، ثم خفضها إلى أربعة آلاف، ثم إلى 2,685 بيتاً.

ولم يكن كونغ ـ تسيو يكتفي بالكلام الطلق الذي يقوله الحكماء بعد تأمّل، بل كان يتفقد أحوال الأقاليم والمقاطعات في الإمبراطورية بنفسه. وذات مرّة ذهب إلى إقليم تسي، فعرف بقدومه الملك وخرج إلى مدخل القصر لاستقباله، وقال له: «لقد عرفت أنك جئت من مملكتك العظيمة إلى دولتي الصغيرة من أجل أن تراني وتعلمني الحكمة، إنني هنا لأعرب أمامك عن امتناني الشديد، تعال أيها الغريب المحترم، وعلّمني شيئاً من الحكمة التي لديك».

قال هذه الكلمات، وطلب من الفيلسوف أن يمشي أمامه، إلاّ أن كونغ تسيو تراجع، قائلاً: إنه لا يمكن التقدّم على الملوك، فأجاب الملك: «حين

يكـرم المرء حكيمـاً لا تكون انحناءتـه انحناء، إن الحكمـاء يتقدّمون على الملوك»، فأجاب الفيلسوف: «لكل شيء في هذه الدنيا قواعده، فإذا تقدّمتك خالفت أنت قواعد الملوك وخالفت أنا قواعد الحكماء».

في النهايـة اتفق الاثنان على السير جنبـاً إلى جنب إلى داخل القاعة، حيـث عقـدا اجتماعاً مطولاً عرض خلاله الملك علـى الفيلسوف منصب وزيـر متقدّم لديـه، وخصّص لإقامته نزلاً يحل فيه عـادة سفراء الممالك المجاورة، لكن مـا إن بدأ عمله حتى بدأ الوزراء الأشرار حملتهم، وأصرّوا لـدى الملك على إخراجـه، وكانت ردة فعل الفيلسـوف أن الملك رجل طيّب أراد أن يفعل خيراً، لكنه لم يستطع.

ذات مـرّة سـأل وزير كبير يدعى ليو-ون-كونـغ الإمبراطور كينغ-وانغ عمّـن يكـون كونغ تسيو، فأجـاب: إنه رجل لا قرين لـه في أيامنا وملامحه تنبـئ بأرقـى درجات الحكمـة، عيناه مثـل نهرين من النـور، وقامته ستة أقدام وذراعاه طويلان، وظهره منحنٍ قليلاً.

كان يقـول: ليس هنـاك ما هو أبسـط وأكثر بداهة مـن تعاليمي، إنها مأخـوذة من ملوك الأقدمـين وعليها تبنى علاقة الملـوك بالرعية، والآباء بالأبناء، وهي تختصر بثلاث قواعد: الإنسانية، أيّ معاملة الواحد للآخر. العـدل، الذي يعطـي لكل فرد ما يستحـق من دون تمييـز، واتباع الأصول والقواعـد المألوفـة، بحيث يعيش أولئـك الذين يشكلـون المجتمع بتجانس واحـد. والاستقامـة، وأخـيراً الإخلاص أو النية الحسنـة، أيّ الصراحة وصـدق الطوية وطيبة القلب، تلك هي خلاصة فلسفة كونغ تسيو وحكمته. لعلّها تكون ذات فائدة لبعض حكمائكم أيضاً».

ودّعنا الحكيم ومضى، ولولا مرور أكثر من ألف عام على كونغ تسيو، لكنت قلت هذا هو.

بدأنا نستعد للعودة إلى بغداد، كنت أتوق إلى أن تشاهد أمي راي تي وتباركها، وأن تعلمها ليلى، ابنة عمي، قواعد الحياة في بغداد، وستعلّمها أمّ عبد الله كيف تكون أماً وصارمة وعادلة، ولكن كيف لهذه الكتلة من الأثير أن تشتد، وكيف لهذا القرص من البخور أن يقوى؟

حزمنا الحقائب، ووضعت هدايا الإمبراطور في حقائب مذهبة الزوايا والأطراف، وقال لي كبير مرافقي: إن الإمبراطورية حليفة للعرب ولا تنس دورهم في الصراع مع أهل التيبت الذين لا يكفّون عن مهاجمة الإمبراطورية، وتهديد أمنها وسلامتها ووجودها.

مساء ذلك اليوم، تناولنا طعام العشاء وخرجت مع راي تي إلى الشرفة؛ كي أتأمّل وجهها في انعكاس هدوء القمر على عينيها، لكن بعد لحظات، ومن دون استئذان دخل الجناح رجل ينادونه السيد «تاو»، وبقدر ما كانت ملامح الرجل الحكيم توحي بالطيبة والوقار، كانت ملامح هذا الرجل وعيناه توحيان بالخبث والشرّ، ومثل الرجل الحكيم، كانت ابتسامته لا تغيب، لكن الخبث كان حاضراً معها دائماً، وخيّل إليّ، قبل أن نسافر، أن الإمبراطور أراد أن يعرض علينا بطريقة غير مباشرة، مثل تعاليم كونفوشيوس، النصف الطيب والنصف الشرّير لوجه واحد.

لم يكف الرجل عن الابتسام، وقبل أن أدعوه إلى الجلوس كان قد تربع بينما بقي مرافقاه واقفين، وبدأ الكلام بلا مجاملات وبلا تعابير ودّية أو

احترام، وقال: «أحب أن تنقل إلى سيدك الخليفة سراً لا يعرف به أحد حتى الآن، فالصين التي اخترعت للإنسانية أشياء كثيرة من قبل قد اخترعت الآن شيئاً نسميه المدفع، إنه سلاح الإمبراطورية الجديد والحاسم، بعد اليوم لن نترك للممالك الدنيئة المجاورة حلم القفز فوق حدود الصين، لن نترك لأهل التيبت والتتار أحلامهم المشينة، ولن نسمح للأتراك بالعجرفة والغرور، سوف يعلّمهم المدفع ما لم تعلّمهم الخيول والسيوف».

قلت في أدب شديد، وقد حجبت راي تي وجهها ولكن ظلّ القلق بادياً في عينيها الجميلتين: «لكن سيدي الضيف لم يمنحني شرف المعرفة بعد، مع أنني أدرك بلا شك أنك من رجال الإمبراطور السعيد».

قال: «لا يدخل غريب إلى هذه المدينة المحرّمة، فلابد أن أكون طبعاً من رجال أمير الأمراء، لست وزيره الأول، لكنني وزير البريد لديه».

حين قال: إنه وزير البريد، أدركت معنى كل شيء... إنه، إذن، وزير الرجل الذي يعرف كل شيء ويراقب كل الرسائل، لكن الفارق بينه وبين وزير البريد لدى سيدي أمير المؤمنين، كالفارق بين الطيبة والشرّ.

عاد يتحدث عن التحالف مع أمة الإسلام: «لا نريد مع التاتشي (العرب) سوى علاقات حسنة، لكن ما تزال تصلنا أخبار عن تعاون بين التاتشي والترك، إن هذا يسيء كثيراً إلى العلاقات».

سارعت أوضح لوزير البريد أنني لست سوى رحالة في خدمة أمير المؤمنين، أبحث له عن الكتب والمعرفة ولا علاقة لي بالدولة وشؤونها، ولا يحقّ لي أن أرفع لسيدي الخليفة، نصره الله، إلا ما أمرني به وكلفني به.

لكـن الوزير أكمل كلامه، رافضاً أن يسمع مـا قلت: «لا نريد السيطرة علـى أمة الإسلام بعد اليوم، لكن بغداد مطامحها كثيرة، ونحن نعرف أن الخليفة يفكّر في إخضاع بيزنطة، فلتكن له بيزنطة، فليتّجه غرباً ما يشاء، نحن هنا سوف نتكفّل بذلك».

قلت: «يا سيدي الوزير، وهل المدفع عجيبة من عجائب الدنيا؟».

قـال في كبريـاء وازدراء: «لا حـدود للعلـم الصيني، وسـوف نضع كل هـذا العلم في خدمة جنودنا الذين أهلكتهم الحروب، وبعد ذلك ننصرف إلى تطويـر الاختراعات في الزراعة من أجـل أن تسعد الشعوب، ولا تبقى المحاصيـل تحت رحمة متغيّرات الطقس البارد، وعندما نفعل سوف نرسل إليكـم كثيراً من هذه المخترعات»، ثـم أضاف في ضيق: «لقد قيل لنا: أيها السندباد، إنك تزوّجت امرأة من قمار، أليس في مثل جمالها في بغداد؟».

قلت: مـن أبلغ سيدي الوزيـر أنني ألقب بالسندبـاد؟ فضحك ضحكة ساخرة وقال: «وهل يُسأل وزير البريد كيف يعرف ما قد عرف؟».

رافقتنـا قافلة كاملة إلى «العنقاء»، ووضعنـا عليها الكتب والهدايا وما اشترينـا من عقاقير، وحين صعدنـا إلى السفينة فوجئت بأن النَّاخُذَاة قد تـزوّج امرأة من الصين، وكذلك فعـل ثلاثة من البحّارة، وأبحرنا في رياح هادئـة وجـوّ شديد المرح، وقـد طلبت من راي تـي أن تبدأ تعلّـم العربية؛ لتعرف كيف تقبّل يد أم عبد الله وتخاطبها.

كما روتها شهرزاد

عدت إلى بغداد فوجدت المدينة في وجوم، والوجوه حزينة والعلم الأسود كثير، فسألت إن كان حادث جلل قد وقع فلم ألقَ جواباً، ولِمَ الحزن إذن؟ سألت: كيف سيدي الرشيد؟ فقيل: بألف خير، فلمَ الحزن إذن؟ سألت ما أخبار سيدتي زبيدة؟ فقيل: تصلي وتقرأ عليها آيات الله في كل الأوقات، فلمَ الحزن إذن؟

ولما قابلت أخيراً وزير البريد سألته أن يخبرني ماذا يجعل مدينة السلام في هذه الكآبة، فقال: «اتفق مرّة أن أمير المؤمنين مرّ بولده الأوسط، الذي كان في السادسة عشرة من العمر يعيش حياة الزهّاد والعبّاد، وكان حول الرشيد وزراؤه وكبراء دولته وأهل مملكته، فرأوا ابن أمير المؤمنين وعلى جسده جبّة من صوف، وعلى رأسه مئزر من صوف، فقال بعضهم لبعض: «لقد فضح هذا الولد أمير المؤمنين بين الملوك، فلو عاتبه لرجع عمّا هو فيه». فكلّمه في ذلك وقال له: «يا بنيّ، لقد فضحتني مما أنت عليه». فنظر إليه ولده ولم يجبه، ثم نظر له: «بحقّ الذي خلقك اسقط على يدي». فأقلع الطائر وحطّ على يد الفتى، ثم قال له: ارجع إلى مكانك، فرجع، ثم إنه قال له: «والآن اسقط على يد أمير المؤمنين». فرفض، فتطلّع الابن إلى أمير المؤمنين وقال له: «أنت من فضحني بين الأولياء بتهافتك على الدنيا وقد اقترحت أن أفارقك ولا ألقاك إلّا في الآخرة.

ثـم ذهب إلى البصرة وانخرط بين عمّال الطين والطوب وكان لا يعمل كل يـوم إلا بدرهم ودانق، فيتقـوّت بالدانق ويتصـدق بالدرهم، وقد روى لنـا أبو عامر المصري فيما بعد الأيام الأخيرة من حياة الابن في البصرة، فقـال: «وقـع في داري حائط فخرجت إلى موقـف الفَعَلَة؛ بحثـاً عن رجل يساعـدني فيـه، فوقعت عينـي على شاب مليـح صبيح الوجـه فجئت إليه وسلمـت عليه وقلت له: «أتريد الخدمة»؟ قـال: أجل ولكن بشروطي، قلت: ما هي؟ قال: «الأجرة درهم ودانق وإذا ما أذّن المؤذن تتركني إلى أن أؤدي الصلاة مع الجماعة، قلت: نعم، وأخذته إلى المنزل فأدّى عملاً لم أرَ مثله مـن قبـل، وعرضت عليه الغداء فقال: إنه صائم. فلمـا سمع الأذان توضّأ وضـوءاً لم أرَ أحسن منه، ثم ذهب يصلّي مع الجماعة، وعاد فبدلاً من أن يخدم إلى العصر خدم إلى الليل فأعطيته درهمين، فرمى بهما إليَّ وقال: «لا زيادة على ما اتفقنا عليه».

فلما أصبح الصباح بكرت إلى الموقف فلم أجده، فسألت عنه فقيل: إنه لا يأتي هنا إلا السبت، فلما كان السبت الثاني وجدته، فقلت له: «بسم الله تفضّل إلى الخدمة»، فقال: على الشروط التي تعلمها، فذهبت به إلى داري ووقفت أنظره وهو لا يراني فأخذ كفاً من الطين ووضعه على الحائط، فإذا الحجارة تركب بعضها على بعض، فقلت هكذا أولياء الله».

فلمـا جاء السبت الثالث أتيت إلى الموقف فلم أجده، فسألت، فقيل: إنه مريضـ يرقد في خيمة امرأة عجـوز من الصالحات، ولها خيمة من قصب في الجبانة فسرت إلى الخيمة ودخلتها فإذا هو مضطجع على الأرض وليس تحتـه شيء، وقد وضع رأسه على لبنة ووجهه يتهلّل نوراً، فسلّمت عليه فردّ

علي السلام فجلست عند رأسه أبكي على صغر سنه وغربته وتوفيقه لطاعة ربّه، فقلت له: ألك حاجة؟ قال: نعم، إذا كان الغد تجيء إلي في الضحى فتجدني ميتاً، فتغسلني، وتحفر قبري، ولا تعلم بذلك أحداً، وتجعل كفني الجبّة التي عليَّ بعد أن تفتقها وتفتّش جيبها وتخرج ما فيه وتحفظه عندك، فإذا صلّيت عليّ وواريتني التراب فاذهب إلى بغداد وارتقب الخليفة هارون الرشيد حتى يخرج وأعطه ما رأيت في جيبي وأقرئه مني السلام.

في الضحى جئت الخيمة فإذا هو ميت، فغسّلته وفتقت جيبه فوجدت فيها ياقوتة تساوي آلاف الدنانير، وبعدما دفنته توجهت إلى بغداد فوصلت دار الخلافة، ولمّا خرج الرشيد دفعت إليه الياقوتة فلما رآها خرَّ مغشياً عليه، فقبض علىّ الحرس، فلما أفاق قال: «أطلقوه وأرسلوه برفق إلى القصر»، فلمّا رويت له ما حدث جعل يبكي ويقول: «لقد انتفع الولد وخاب الوالد»، ثم دخلت امرأة فرمى إليها الياقوتة فلما رأتها صرخت صرخة عظيمة وهوت مغشياً عليها، وعندما أفاقت قالت له: «يا أمير المؤمنين، ماذا فعل الله بولدي؟» فقال لي: «أخبرها بما حدث»، فبكيا معاً، فقلت: «يا أمير المؤمنين، أهو ولدك؟».

قال: نعم وقد كان يزور العلماء، ويجالس الصالحين، فلما ولّيت الأمر نفر مني وباعد نفسه عني، فقلت لأمه: إن هذا الولد منقطع إلى الله تعالى وربما تصيبه الشدائد ويكابد الامتحان فادفعي إليه هذه الياقوتة يجدها عند الحاجة إليها، ثم غاب عنا ولم نعد نراه إلى أن لقي وجه ربّه».

ثم طلب إلىّ أمير المؤمنين أن أريه قبر ولده ففعلت وبكى بكاء عظيماً.

رحلة إلى إفريقيا والسودان

أتعبني البحر وأضناني البرّ، وبعد أشهر غير قليلة في بغداد اشتقت مجدّداً إلى الخباب والغابات، وقد انتهيت للتوّ من إطلاع علماء الديوان على كل ما جمعت من علم ومعارف، وبقيت لمدة حديث القصر والمدينة. وكنت أسمع ما ترويه مخيّلات الناس فأضحك، وقد صدّق بعضهم أنني عدت وبعضهم الآخر ظنّ أن البحر لن يعيدني، غير أنني انصرفت بكل ما أوتيت من قوة إلى إنجاز عملي، والإعداد للرحلة المقبلة، وحضر إلى بغداد إخوتي وأم عبد الله وقطنوا معنا في الجناح الذي قدمه لنا الخليفة، حفظه الله وسدد خطاه.

هل لاحظتم أنني استخدمت صيغة الجمع فقلت «قطنوا معنا»؟ لقد بلغ حسن الحفيد الآن الشهر الثالث، وراي تي تكاد لا تراه إلا فقط من أجل أن ترضعه، وباقي الوقت هو مع أم عبد الله تهدهد سريره الخشبي الصغير وتعلق في كتفه كل مرّة المزيد من الأحجبة وتقرأ فوق رأسه الآيات.

وفي الأمسيات الهادئة فوق دجلة قمران: البدر المتهادي أبداً صوب غروبه، ووجه راي تي التي تملؤني سعادة وتوزّع الفرح الجميل على أمي وإخوتي، كنت قد خشيت أن تعترض أمي على زواجي من غريبة، وكنت أخشى أن تشعر راي تي بغربة كبرى وسط القصر وضجيج بغداد، لكن راي تي تعلمت العربية مع تمور الصباح وبلكنتها زادت الكلام رقّة وعذوبة، وكلما فكّرت في البحر وفي واجبي حيال سيدي الخليفة أعود،

فأحلم بالذهاب إلى البصرة؛ لأستقرّ هناك مغموراً بحنان أم عبد الله وبفرح هذه العذوبة التي من قمار.

لكن أمامي عملاً كثيراً بعد، وقد علمت من وزير البريد أن خطّ السفر سوف يتغيّر، لا رحلات إلى الهند أو الصين الآن، بل يريدني مولاي القيام برحلة طويلة إلى إفريقيا، حيث كثر العرب لكنهم ظلوا مشتّتين، وقلت للوزير: إنني في خدمة مولاي رعاه الله ورهن إشارته، لكنني قبل أي شيء أريد أن تذهب راي تي إلى مكة المكرّمة للتبرّك بأرض الله، فقال الوزير: لك ما تشاء يا عبد الله، لكن الوقت يدهمنا فكيف الحل؟ قلت: يذهب معي إخوتي والحاجة أم عبد الله فيعودون بعد أداء العمرة، وأكمل مع رجالي الرحلة من جدة إلى عيذاب ومن عيذاب في اتجاه الحبشة ومملكة سنار.

خرجنا نسهر جميعاً في الحديقة ذلك المساء، تسامرنا مياه دجلة ونسامرها، وفجأة، دخل حرس كثيرون ووزير البريد، وقال الرجل: «سيدي الخليفة يريدك الآن»، كان الوزير واجماً على غير عادته، فقمت بسرعة فوجدت الخيل في الانتظار، فركبنا ومضينا صوب جناح مولاي.

كان سيدي الرشيد جالساً يحيط به كبار القادة ووزير الخزانة والجوّ ساكن، وقد فُرشت أمامه خرائط ووضعت كتب كثيرة، أشار عليّ أن أجلس قبالته ففعلت، وبادر فوراً بتوجيه الحديث إلي: «اسمع يا عبد الله، لقد ركبت بحاراً كبيرة وأهوالاً كثيرة وبلغني عن شجاعتك الكثير، وإني أريدك الآن في مهمة غير الأولى، وأريد أن أأتمنك على أمر عظيم، لقد بلغنا أن عرباً كثيرين فرّوا إلى بلاد الحبشة، وقد أرسلت إلى النجاشي أطلب منه أن يعيد قادتهم إليّ، لكن يبدو أنه لا يريد أن يخرق وعده بالحماية، فليكن له ما يشاء، على أن لي حلماً جميلاً في إفريقيا، فهل تعرف ما هو؟».

قلت: ما هو حلم سيدي ومولاي؟ قال الخليفة حفظه الله: «أريد يا عبدالله، أن أبني أندلساً أخرى في تلك البلدان، أريد أن أجعل هناك قرطبة أخرى وطليطلة وقشتالة، وسوف تكون مهمتك أن تستطلع لنا الطريق وتتعرّف إلى أحوال البلاد وتتفقّد أمور المسلمين».

فوجئت مفاجأة لذيذة حقاً: أندلس آخر في إفريقيا وأنا من يمهّد له؟ إلى هذا الحد يثق بي مولاي؟

جهزنا سفينة أخرى تقرر أن تسبقنا إلى عيذاب فيما نهبّ براً إلى مكّة المكرّمة، ومع أن بغداد مدينة الإشاعات الطائرة والعائمة فقد اكتشفت أن أياماً قد مضت، وسرّ الأندلس الإفريقي بقي بين جدران الديوان.

● ●

عشر سنين مضت من عهد الرشيد العاطر، حسن الحفيد في الشهر العاشر من عمره الآن وصداحه يملأ البيت والحديقة، وراي تي في الشهر الأوّل من حملها الثاني، سعيدة بما حولها ونحن سعداء بحضورها الباسم، كلما فكرت أنني سأغيب طويلاً عنها أشعر بالحزن والغمّ، لكنه قدر الرحالة والمسافرين ورجال سيدي الخليفة.

أمضينا ثلاثة أيام في عيذاب نتأكد أن كل ما في المركب كما نشاء ويفترض، وعيذاب «بلدة صغيرة على شاطئ بحر جدة يعدّي منها الركب المصري المتوجّه إلى الحجاز على طريق قوس فيصل إلى جدّة في ليلة واحدة». وهي «مدينة حسنة وهي مجمع التجار براً وبحراً، وأهلها يتعاملون بالدراهم عدداً ولا يعرفون الوزن». وهي «غير مسورة وأكثر بيوتها أخصاص

وكانت من أعظم مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحطّ فيها البضائع، وتقلع منها مع مراكب الحجّاج الصادرة والواردة».

أبحرنا في حرّ لاهب حقاً، وكانت المياه ساخنة تكاد تغلي وفرق كثيرة من سمك القرش تطوف على سطح المياه طالبة شيئاً من البرودة وآملة أن يصل إلى جوفها غريق تبتلعه، وبقينا نحو عشرة أيام ترافقنا الحيتان كما ترافق الذئاب الجائعة القوافل، فترسل أصواتاً كأنها أصوات البشر. وأدركنا خوف هائل، واقترحت أن نرمي إليها شيئاً من زادنا، فقال النَّاخُذَاة: إننا إن فعلنا فسوف تزداد افتراساً، وتظلّ تضرب السفينة بأنيابها ورؤوسها الحادة إلى أن تهلكنا جميعاً، وأخذنا نتجمّع ونصرخ بها ونولول عليها ونقرع على الخشب، وبعد حوالي عشرين يوماً بدا لنا برّ مصر من بعيد ففرحنا، لكنّ فرحنا ما لبث أن تحول إلى هلع حين شاهدنا على مسافة فرسخ أو أقل، مركباً وسطي الحجم مليئاً بالركاب تلاحقه الحيتان وتنقره وتدور حوله كأنما أصابها جنون أو هوس أو افتراس، وظلت تلاحقه والربّان يحاول الهروب، والسواري ممزّقة، والركاب يصرخون وينوحون.

غيَّر النَّاخُذَاة وجهتنا بسرعة، فصحت به: ماذا تفعل يا رجل؟ قال: هذه سفينتي وأنا أعلم منك بظلم البحار وخداعها، قلت: ألا نستطيع أن نفعل شيئاً لإنقاذها، قال: ألا ترى أن هلاكها وشيك وقدرها محيق؟ فكل ما يمكن أن نفعله هو أن نحاول النجاة بأنفسنا، وإذ نحن ندبر والهلع يتملكنا كانت الحيتان قد مزّقت أسفل السفينة المنكوبة فدخلتها المياه، فتهاوت على جنبها وسط صراخ الهالعين، وما هو إلا وقت قصير حتى كان الخشب قد غرق وأفواج الحيتان قد التهمت الركاب أمام أعيننا وتغيّر لون

المياه وحمدنا الله أننا لم نكن على مقربة، فترى أعيننا عن كثب ما لا تطيق على تذكّره ذاكرة، ولا تتحمّل رؤيته عين.

عندما هبط الليل لاحظت أن السفينة ما تزال تبحر في اتجاه العودة. وكان الخوف ما يزال يعقد الألسنة، فسألت النَّاخُذَاة عما نفعل، فقال: إننا لن نكمل الطريق إلى وجه مصر البحري، بل علينا أن نتراجع من جديد حتى «سواكن» لأن الموسم موسم هجرة الحيتان وهي تحاول الاقتراب من البر المصري طلباً للأكل، قلت له: ولكن الآن وقد قطعنا كل هذه المسافة هل يمكن أن نعود؟ قال: أمامنا خياران: إما الطريق الطويلة إلى الحياة أو الطريق القصيرة إلى أنياب الحيتان.

صباح اليوم المقبل جلست في غرفتي أغير كل الخطط من جديد. إننا الآن سوف نبحر إلى سواكن ومن هناك نأخذ طريق البر حتى بلاد الحبشة، أما كان أحرى بنا أن نفعل ذلك من البدء.

«وجزيرة سواكن أقل من ميل في ميل وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير، وصاحب سواكن من المسلمين وله ضرائب على التجار، وسواكن صغيرة جداً بقدر ضيعة صغيرة».

واسجماه

عندما عـرف صاحب سواكن من نكون جاء بنفسه يلقي السلام، وأبى أن تؤخـذ الإتـاوة على السفينـة، وأمر أن نكون في ضيافتـه ثلاثة وثلاثين يوماً، فاعتذرت باسم سيدي، فقال: نجعلها ثلاثة.

وحدثت لنا في سواكن الحـوادث، فيوم استقبال هائل وموسيقى، ويوم فرح، إذ صادف عرس ابن صاحب المدينة، ويوم حزن إذ مات أحد أعيانها وقد كان في علة طالت به وكمدت نفوس أهله أيّ كمد.

تنـازل لنـا صاحب المدينة عن منزلـه مصرّاً ألا نبيـت إلا عنده، وكان هـذا أكبر البيـوت إلا أنه كان أيضـاً مبنياً من الطين ولـه قبب مخروطية من القش والقصب من أجل تحمّل المطر ولو قليله، وتُرفع المنازل هنا عن الأرض بشعب متينة خوفـاً من الزحّافات، وهي تُفرش بجلود البقر وتُبلّط بـترابٍ يُخلط بلحاء الشجر فيصبح كالحجـارة، وفي كل منزل آلة لطحن الحبـوب مؤلّفة من حجرين وتُعرف بـ«المرحاكـة»، وطعام سواكن عصيدة الذرة واللبن والمرق واللحم، وعسلهم وفير.

كان العرس في الليلـة الثانيـة والعريس كمـا رأينا في نحـو السادسة عشـرة من العمر وعروسـه في ثلثي عمره، والعرس في بيـت أبي العروس، حيث يسكن الزوجان أربعين يوماً ومنهم من يبقى إلى أن تلد عروسه، وقد عزفـت في العرس جميـع الآلات الموسيقية من الطنبـورة إلى الأمباية إلى المندكولة والصفارة، وحدث أيضاً رقص كثير.

وقد زُفَّ العريس إلى بيت العروس على فرس تقودها بنتان وتسير النساء أمامه يغنين وينقرن الدفوف والطبول، والرجال وراءه يتباطؤون والعريس يهزّ سوطه في الهواء استحساناً للراقصات والمغنيات.

وبعد العشاء دخل العريس ومعه شابان من أصحابه يعرفان بالوزيرين فصفّقت النساء ترحيباً به فقام فأتحف وزيرنا العروس وماشطتها بهدية من المال، ثم جاء إلى العروس فقطع رهطها وألبسها القرباب وراح يرقّصها الدلع والجلّع، وذلك بأن غمز خنصرها وخز خاصرتها بظفرٍ ربّاه خصيصاً، فتلوّت العروس إذ ذاك بخفّة ورشاقة وأدارت ظهرها، وهي تصيح واي واي، متبعةً ذلك بأنّات رخيمة وشهيق عذب». وقد حضر العرس الكثير من الأرقّاء، وهم يلقّبون بألقاب التكريم لأسيادهم مثل، مرّ الجواب، وعبد الأسد، ودكّام (شجاع)، وعجب سيده، ومفتاح الخير، وشطة، وعبد الرجال، وصباح الخير.

وإذ نحن في سواكن نتأهّب للرحيل توفي رجل من كبار القوم وخرجت المدينة بأعيانها إلى جنازته، وكنا قد سمعنا أمس أن الرجل المعتل شارف على مفارقة الروح، فاجتمع عليه أهله من الرجال فأبعدوا عنه النساء وأحاطوا به يعللونه حتى فارقته الروح فوضعوه على عنكريب، وغطّوه بثوب نظيف ثم راحوا يرفعون أصوات البكاء والتعديد، كما يفعلون دائماً، فتعلم النساء أنه فارق الروح فيصحنَ وينتحبنَ ويحثون التراب على رؤوسهن ويلطّخنَ وجوههنّ بالسجم والرماد ثم يدخلنّ غرفة الميت ويجلسن حوله للنحيب والبكاء، ويخرج الرجال فينعونه إلى البلاد المجاورة ويجلسون في فناء المنزل لاستقبال المعزّين، وعند مجيء الجيران تخرج النساء

بالميت إلى بهو الدار لعمل المناحة، وتأخذ النادبات النحاس للضرب عليه ويأخذن قرعة يابسة فيضعنها في طستٍ فيه ماء وبجانبه طست آخر لا ماء فيه، فيضربن على الطستين ضرباً محزناً ويشرعن في ندب الميت وتعديد مناقبه، وإذا حضر المأتم نساء حديثات العهد بالحزن ندبت النادبات موتاهنّ أيضاً، وفي أثناء ذلك ترقص الحزانى بالسيوف والعصي، ويصحن صيحات تفتّت الأكباد.

ومن أقوالهن في التعديد: «واسجماه، واحزناه، وامصيبتاه، يا حليلك هاي، يا شديد الحيل، يا جمل الشيل، يا مقنّع الكاشفات، ياللي تفرج الضيقات، يا واجل الحكام».

أبقينا السفينة في سواكن وقمنا في قافلة إلى داخل البلاد، واتخذنا لأنفسنا مرافقين من العرب من أهل البلاد، وإفريقيين شديدي السمرة طويلي القامات، ولاحظنا في سواكن أن النساء غير المسلمات كنّ سافرات. ونحاسيات اللون مجدولات الشعر الأعقد، وفي آذانهن حِلَق فضية مزينة بالياقوت، وقد حذّرنا صاحب سواكن من الأفاعي الضخمة التي قال: إنها تخرج من الغابات عندما تجوع وتطلع من الأرض عندما تشعر بالحرّ. وسألني: ما الهدف من الرحلة صوب النيل؟ فقلت: إن سيدي أمير المؤمنين يريد أن يعرف إن كان في إمكاننا أن نستفيد من المياه كما فعل النيليون القدامى، غير أنني شعرت بأنه لم يصدق ما قلت.

بدأنا أولاً في بادية، «فلا مدن ولا قرى ولا مزارع، ومعيشة الناس هنا مما ينقل إليهم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة، وقيل في أصلهم: إنهم قبيلة من الحبشة ويتزيّون بزيّ العرب، وهم كالعرب قبائل وأفخاذ

لكل فخذ ريّس، وفي أوديتهم شجر المقل والإهليلج والإذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان وغير ذلك، وبأقصى بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين وغير ذلك مما لم يزرعه أحد، وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الأرض وقط الزباد ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء إذا صيدت.

ومن الطيور الببغاء والنقيط والنوبي والقمري أو دجاج الحبش وحمام بازين وغير ذلك، وتعظم الحيّات ببلدهم وتكثر أصنافها، ورأيت حيّة في غدير ماء قد أخرجت ذنبها والتفت على امرأة وردت فقتلتها من شدّة الضغطة، وبها حيّة ليس لها رأس وطرفاها سواء، منقشة ليست بالكبيرة، إذا مشى الإنسان على أثرها مات، وقتلت حية منها بخشبة فانشقت الخشبة، وإذا تأمل أحدهم هذه الحية وهي حيّة أو ميتة أصابه ضررها. وأوّل بلد البجة في قرية تعرف بالخربة معدن الزمرد في صحراء قوس. وبين هذا الموضع وبين قوس نحو من ثلاث مراحل، والزمرّد في هذا الموضع في مغاور بعيدة مظلمة يدخل إليها بالمصابيح ويستدلّ بها على الرجوع خوف الضلال، ويحفر عليه بالمعاول، فيوجد في وسط الحجارة وحوله غشيم دونه في الصبغ والجوهر، وفيها عدا من الزمرد السالف الذكر الذهب في وادي العلاقي، وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغناطيس والمرقشتيا والجمست وحجارة شطبا».

زودنا صاحب سواكن رجالاً مسلّحين بالنبال قال: إنهم من الحبشة. وكان هؤلاء يعقدون نبالهم حول رؤوسهم فيشكون أطرافها في الشعر حتى تبرز رؤوسها فوق جباههم كالأشعّة ويكوّن منها إكليلاً، وهؤلاء القوم

عرفـوا بـأن نبالهم لا تخطئ، يدربون أطفالهم علـى رميها وهم صغار ولا يطعمونهم إذا أخفقوا، وكانوا يتحدّثون لغة لا أعرفها إلاّ أنهم كانوا لطفاء أوفيـاء يقدّرون ما يعطـون أحسن تقدير، وكانوا إذا حلّ الليل شعروا بفرح وغنـوا غنـاء شجياً وقلدوا أصـوات الطيور، ولو لم يكن ليـل لما عرفنا أنها ليسـت الطير، فإن طيوره تعالى عاشقة النهار ومتوقّدة بالشمس فلا تكف عـن التغريد مـا دام النور ساطعاً والأشعة غامرة، ومـا إن يبدأ الغياب في الحضـور حتى يحضر معه نعاسها فتلفّ أجنحتهـا حول أجسامها وتنادي علـى النوم وتستودع أنفسها حتى فجر اليـوم المقبل، حين تقوم إلى الغناء هبّة واحدة وتغريداً واحداً تمجّد خالقها وتهلل لأرضه.

وقـال لي أحد مرافقينا الذي من سواكـن: إن هؤلاء النبّالين من قبيلة شديـدة الفقـر في الحبشة، وتعيش على طرف واحـد عميق يملؤونه حطباً وينتظـرون الريـح الجنوبية حتـى تقذف رجـل الجراد إلى ذلـك الوادي فيشعلـون النار بالحطب فيختنـق الجراد ويقع إلى الأرض فيغطّيها على بعد مسافات، فيجمعونه ويقدّدونه ويخزّنونه للتقوّت به.

بعـد مسيرة أيام وليـالٍ على حـداء النبّالين وغنائهـم أدركنا الظلام ونحـن على مرتفـع صغير فاسترحنـا وتأدّمنا واستسلمنـا جميعاً إلى نوم عميق، فيما قام النبّالون بالحراسة، كنت تعباً لدرجة أنني لم أسند رأسي إلى يدي أو أتخيل راي تي كما أفعل كل مساء، إلا أنها تلك الليلة حضرتني في الحلم فتركت فرحاً ومضت، وإلى الآن لا أدري إن كانت راي تي حلماً أو حقيقة، كليهما، صعب أن يصدّق.

أفقت فجر اليوم المقبل على طبقة من الندى تغطّي جبيني، مسحت جبيني وفركت عيني فظننت أن الحلم لم ينته بعد، فتحت عيني من جديد ونظرت عبر الوادي فقمت صارخاً: الله أكبر، الله أكبر، فقامت على صرختي القافلة، إنه النيل! بحر أخضر اللون يتجه في هدوء وكبر بعكس اتجاهنا، وأفق يمتدّ أمامنا بكل سهوله وجباله وهذا النهر الوسيع الجارف النابع من عين البَركة وينبوع الخير.

الرَّخ الرَّخ!

وقفت أتأمّل المشهد كمن بان له شيء من الجنّة، وقال النَّاخُذَاة: إننا قد أصبحنا على مقربة من الحبشة، فنكمل الطريق براً بدلاً من العودة إلى البحر، وقال: ما علينا بعد الآن إلا اللحاق بعكس مجرى النيل، ثم طلب أن نتهيّأ، لكنني قلت: لماذا نترك هذا السكون الجميل على عجل؟ إننا سنمضي نهاراً كاملاً هنا، وفي الصباح نستكمل.

تفرّقنا حول المكان كالصبية، وجلست أدوّن لسيدي الخليفة ما حدث منذ الكارثة التي كادت تحلّ بنا قبالة الوجه البحري لمصر، غرقت في الكتابة حتى الضحى، وإذا بنا جميعاً نشعر بخوف واحد، فقد عمّ ظلام فجأة أو غيم داهم، وشعرنا أن الدنيا أظلمت أو كادت، وتطلعنا فإذا طير هائل الحجم يهبط على مقربة منا من دون اكتراث، كان لون ريشه خليطاً من الأسود والأبيض وكانت مخالبه قوية، إذا حرك جانحه سمعنا صوت رفرفة سرب أو سربين، وإذا حرك رأسه بدا منقاره مثل رمح معكوف. وتأملنا ملياً ونحن على خوف شديد فإذا هو رابض فوق حية ضخمة سوداء يصارعها ويلتهمها.

وقال النَّاخُذَاة بعدما فُكّت عقدة لسانه: لابدّ أنه الرّخ، إنني لم أره من قبل، لكن ربابنة كثيرين حدثوني في أمره وكنت أظنهم يغالون فيما يروون، لكن ها هو حقاً الرّخ، ولابد أن أوجاره قريبة فهو لا يقرب المدن والقرى، تأمّلت الرّخ من جديد فخيّل لي أن طول جانح من جناحيه أربعة أذرع، أمّا

رأسه فكان في حجم رأس آدمية، وقد ظلت الحية تصارع بين مخالبه إلى أن سكنت وأتى عليها، وفجأة وقعنا في ذهول آخر، فقد لمع الوادي العميق أمامنا كأنه أرض من الماس وذهبت أشعته في كل مكان، فأغمضنا جميعاً خوفاً من العمى، وقلت لمرافقنا من سواكن: ماذا يحدث في هذه الأرض من عجائب، وهل هذا هو وادي الماس؟ فقال: إنها أرض غنية بالمعادن، ولدى انقلاب الشمس عند الظهيرة تكون المعادن قد حميت كثيراً فترسل وهجها، وقال: إن بعض الطين مخلوط برمال الذهب وهو أيضاً يرسل البريق واللمعان، وروى أن أناساً كثيرين هلكوا وهم يلحقون بالذهب من مكان إلى مكان، كمن ينتقل من سراب إلى سراب.

● ●

كان مترجم سيدي ومولاي الذي أفرد له الخليفة جناحاً خاصاً في القصر، قد قرأ عليه الكثير مما كتبه هيرودوتس عن النيل، وقبل الرحلة إلى بلاد الحبشة أعطاني الخرائط ونسخاً من كتب التاريخ، وقال لي: تذهب إلى أثيوبيا وتبحث لنا عن النهر العجيب وتتحقّق من صحّة ذلك. وكان هيرودوتس قد روى أن «أكثر الأثيوبيين يدرك سنّ المئة والعشرين وطعامهم اللحم المسلوق، وشرابهم اللبن، ولما أظهر الرسل (رسل ملك الفرس) دهشتهم من طول حياة الأثيوبيين أتى بهم إلى نبع ماء عجيب إذا اغتسل به أحد أصبح جلده ناعماً لامعاً كأنه مرخ بالزيت وفاحت منه رائحة كرائحة البنفسج، وقال الرسل: إن ماء تلك العين كان خفيفاً جداً حتى لا يطفو عليه شيء بل كل ما يلقى به يغرق إلى قعره، فإن كان هذا الماء كما قالوا فليس بعيداً أن يكون سبب طول أعمارهم، ثم سار الملك

بالرسل إلى السجن فرأوا المسجونين مقيّدين بقيود ذهبية؛ لأن النحاس عند هؤلاء الأثيوبيين كان أندر المعادن».

وصلنا عاصمة النجاشي يتقدمنا النبّالون، وعلى مدخل المدينة رأينا أفيالاً كثيرة قيل: إنها تربّى للملك وقوّاده وحروبه، وما إن أصبحنا في الأسواق الداخلية حتى لاحظت وجوهاً عربية كثيرة وأناساً يتكلمون العربية بلهجة أهل دمشق، ومررت بجماعة فسمعنا همهمة لست أدري سببها، ثم تقدّم مني أحد أفرادها وقال: «بغداديون أنتم؟» قلت: أجل كيف عرفت؟ قال: «عرفت من لباسكم، فماذا يجيء بكم إلى هنا في هذا الوقت؟»، قلت: فما شأنك في أمرنا؟ قال: «لقد بلغنا أن الرشيد يطلب عرب الحبشة ويدعوهم إلى طاعته، فمن قال: إننا نتمرّد على بلاطه؟» قلت للرجل: ومن تكون كي تتحدث بذلك؟ قال: «أنا العبّاد بن رشد وقد هربنا إلى هنا من جور العباسيين، فلا أظن الخليفة يطلبنا إلى هنا، وقد أبلغنا قبل أيام أن وفدكم على وشك أن يدخل حمى النجاشي، فجئنا نحذّركم ألا تعكّروا علينا صفو هذا المنفى، فإننا هنا مواطنو النجاشي».

حاولت أن أهدّئ من مخاوفه، وقلت: يا عبّاد، أمهلنا أن ندخل المدينة وبعد ذلك نبحث كل شيء، ونحن لسنا هنا في أثر أحد ولا في عقب أحد. لقد أرسلنا الخليفة لتفقّد أحوال المسلمين ومعرفة أمورهم، والخليفة لا يريد أن يعكر على النجاشي حالاً أو أمراً، وبدا أن العبّاد لم يطمئنّ كثيراً. وقد راعني أنه عرف بأمر وصولنا، وبالطريق التي سلكناها.

وإذ كنت أفكر فيما وقع سمعنا صوت خيول وقرقعة، وإذا فرقة نجاشية بثيابها المزخرفة ورماحها تتقدّم، ترجّل آمرها أمامي وسأل: هل أنت

مبعوث هارون الرشيد؟ فقلت: نعم. قال: لقد جئت أرحّب بكم باسم الحبشة وممالكها، وأدعوكم إلى ضيافة مولاي النجاشي الأكبر، ثم نظر إلى عبّاد نظرة ذات مغزى فانصرف مع جماعته وما عدت رأيت له وجهاً.

في اليوم المقبل جاءنا إلى بيت الضيافة وزير البلاط وحوله حاشية وحرس، ورحّب بنا بتأدّب ولطف، وقرأ علينا جميعاً رسالة الديوان، ثم قدم لنا الهدايا كما أمر رجاله بوضع هدايا الخليفة في المخزن، وبعدما انتهى من ذلك طلب الخلوة بي ومعه مترجمه وهو رجل من أسوان.

شرع فوراً فيما أراد أن يقول، قال: «دعني أرحّب بك من جديد في ممالك النجاشي، والسلام والتحية إلى أمير المؤمنين، ويؤسفني أن أطلعك فوراً على سرّ شخصي أرجو أن يظلّ بيني وبينك ولا يصل حتى إلى مسامع الخليفة، إن النجاشي غير قادر على استقبالك؛ خوفاً من أن تتقدّم منه بطلب ولا يستطيع أن يرفضه، فقد أصبح لدينا في أثيوبيا كما تعرف مسلمون كثيرون جاؤوا جميعاً من دمشق وحواضرها؛ خوفاً من ملاحقة العباسيين، وقد طلبوا جميعاً الحماية ولا نستطيع النكث بالوعود، إنهم الآن رعايا الملك، وقد بلغه، حفظه الله، أن الرشيد يريد عودتهم إلا أنهم لا يريدون ذلك، لقد أصبحت لهم هنا أسر وعائلات ولهم مساجدهم وكتّابهم، وإننا نريد أن نظل مع الفتح العربي على أحسن العلاقات، فكل شيء آخر يريده الخليفة سمعاً وطاعة».

خلعت عمامتي ووضعتها جانباً، وقلت: يا سيدي الوزير، لعلك أخطأت الظنّ بي، فما أنا سوى خادم من خدم سيدي ومولاي الرشيد، لا أنا وزيره ولا أنا سيفه، وإنما رحالته ومأمور خاطره، يأمرني أن أبحر فأبحر، يأمرني

أن أعـود فأعود، أنا رجل يحمل الكتب والخرائـط والانطباعات والهدايا، أمّـا الرسائـل الحقيقية فيحملها رسل سيدي الخليفـة الذي ما هاب يوماً ملـكاً أو ديراً، إني لم آتِ إلى الحبشة خلف الهاربين العرب، فهم مسلمون مثلـي، والمسلم في رعاية الله وفي حمى سيدي، أينما كان، وما سمعته أمس مـن عبّاد بن رشـد عرفت فوراً أنه مكلّف بأن يقوله، وإلا كيف له أن يعرف بوصول القافلة!

اعتـدل الوزير قليلاً، ثم قـال: «دعني أقاطعك قليـلاً، إنك حقاً سعيد الحـظ، وعلى ذكر القافلة دعني أخبرك أن جميع النوق على الطريق التي سلكتموهـا قد نفقت بسبب ذبابة السروت، فلم يبقَ في المنطقة شيء سوى الأبقار، ولذا ترى الناس تدلّلها كما يدلّلها أهل الهند».

قلـت، وأنا أيضاً أحاول أن ألطّف الحديث قليلاً وأنتقل به من السياسة إلى المعرفـة: هل صحيح مـا يقال من أن بعض القبائـل لا تغسل ثيابها إلا ببـول البقر وأنها تتعطّـر بروثه؟ قال: «أيها السندبـاد، وهل نخبرك نحن عن أحوال العالم وقد رأيت ما رأيت؟ أجل، هناك في الماضي من كان يفعل ذلك، ولكن في زمن القهر والمجاعات، فهؤلاء كانوا أناساً يبعدون عن المياه مسافـة مراحل وفراسخ، وما من كائنات حيّة حولهم سوى البقر والأفاعي وبعض طيور الرّب».

قلـت له، وقد انتشر جو مـن الود فيما بيننا، أسهـم في قيامه المترجم الأسـواني الظريف: إنني لن أضيع الوقـت في بلاد النجاشي، وسوف أنقل لسيدي ما أستطيع من أمور البلاد وحضارتها، ثم استجمعت جرأتي فجأة وقلـت: هل صحيـح أيها الوزير الطيـب، أن في بعض بـلاد الحبشة قبائل تقضي بأن يدفن الزوج مع زوجته إذا ما ماتت!

ضحك الرجل ضحكاً طويلاً، وقال: «عندما تتناقل الخرافة من مكان إلى مكان لا يعود للمخيلة حدّ، وأما حكاية وأد الزوج مع الزوجة فقصّة قديمة عمرها نحو ألف عام، يوم كان حبّ الملوك هو أكبر حبّ بين الناس. وفي مرحلة كان إذا مات الملك اضطرّ جميع خدمه، اتباعاً لعادة مستحكمة، أن يقتلوا أنفسهم كشاهد على ولائهم التامّ، أمّا الرجال فلم يكونوا يوأدون مع زوجاتهم».

ثم إن الوزير قال: ما دمت تبحث عن أوجه الحضارة في البلاد فعليك مع صحبك بجولة حول معالم الآثار التي تركها لنا المصريون وملوك مصر من الخرائب والأهرامات، وخاصةً ما هو في أثيوبيا السفلى، وفيما قضيناه بعد ذلك من أيام لاحظنا حقاً كثرة المتحدّرين من جذور مصرية إلى جانب السود وشبه السود وبني كوش.

وكانت نساء البلاد جميلات، ورجالها يرتدون في الغالب جلوداً بعضها من جلود النمور والأسود، ولم تطل إقامتي في أثيوبيا، فقد أرسل إلي النجاشي بعد أيام هدايا من الحجارة المنقوشة أيام الفراعنة وأسلحة حجرية هدية إلى سيدي أمير المؤمنين، وكانت هدايا عظيمة إلا أنني شعرت أن الحاكم متوجّس من وجودنا، وكان شوقي إلى محمد الحفيد وإلى راي تي قد تدفّق كشلالات النيل التي رأيناها في الطريق، فحزمت أمري وعدت إلى بغداد.

● ●

عادت السفينة إلى البصرة تدفعها رياح الخريف، وهذه المرّة كان معي، إلى جانب الهدايا، النبّالون الذين طلبوا أن يكونوا في أرقّائنا، وكان

معي جوارٍ جميلات من الجزيرة في السودان التي عرفت بأنها ذات أجمل النساء، ومقاييس المرأة الجميلة في السودان أن تكون «مربوعة القامة قمحية اللون، طويلة الشعر، غزيرته، واسعة الجبين، زجّاء الحاجبين، دعجاء العينين، سادلة الأهداب، قنياء الأنف، معتدلة الفم، عريضة الشفة السفلى، موشومتها، مفلّجة الأسنان بيضاءها، مشلخة الخدّين محفوضة الذقن، طويلة العنق، منخفضة الكتفين، ناهدة، رقيقة الخصر، قصيرة الظهر، مجدولة الساعد والساق، رقيقة الأصابع، بارزة الردفين، صغيرة القدم، رشيقة الحركة، لينة الأعطاف، إذا رقصت انثنت إلى الوراء حتى يصل رأسها إلى قدميها، وإذا مشت تمايلت كالغصن، خفيفة الروح، باسمة الثغر، مصونة الحجاب».

وقد أعطيت كل جارية أثوابها ونعالها المحبوكة، وأعطيت حلاها من الأساور والخواتم والحجول والعقود والأقراط والأقراص والخزائم والعصائب، وكانت أحلى الجواري «تاج الملوك» وأظرفهن «الصبر جميل» وأحلاهن «جيبة» و«بحر النيل» و«بحر الأمان» و«الحي يشوف» و«العزّ وهاط» و«يمامة» و«كعب الغزال» و«كي الحاسد».

لم تخرج البصرة هذه المرة إلى استقبال رحّالة الخليفة ورجاله، كانت هناك أم عبد الله التي أعرفها عن بعيد من حجابها، وكعادتها أمسكت بي من أذني وجعلتني أنحني لأقبّل يدها، وإذ قبّلت يدها النقية لاحظت لأوّل مرة أن العمر بدأ يترك صداه خلفه، ثم قدم لي أخي حسن ولديّ محمد وعبد الكريم، ثم عانقت إخوتي وأولادهم، ما شاء الله، وفي نهاية الصفّ كانت تقف راي تي، الآن «أم محمد» للجميع.

امتطيت فرسي واتّجهت العائلة نحو حي البزازين، أتقدّمها مع أخي حسن، وما إن سرنا قليلاً حتى سألته إن كان حدسي صحيحاً حقاً: إن جوّاً ملبّداً يخيّم على البصرة، بل على البلاد برمتها، قال حسن: والإمبراطورية في شقاق، فقد دخل الرشيد في حرب مع البرامكة، والناس لا يعرفون ماذا يدور، والموت شائع كالحياة، والناس توالي في النهار وتحارب في الظلام، والمواقف تتغيّر، والرجال يموتون بسبب اعتقادهم، والعائلات تنقسم، واللصوص يكثرون، والكذبة يتقدمون، وأهل الخُلق يغلقون دون أنفسهم الأبواب، والاحتيال شديد.

قال حسن، ونحن نترجل أمام الدار: ليتك أخّرت عودتك قليلاً يا عبد الله، فالبلاد حزينة ولا ندري إلى أين، والسجون مليئة والمرتزقة تملأ شوارع بغداد، ثم همس: والرشيد لم يعد الرشيد، كان يوزّع علينا الفرح فصار يأمر بالسجون، وكان يرسل جواسيسه إلى بلاد الروم فصار يرسلهم إلى بيوتنا، وكان يأمرنا بالحريّة فأصبح لا يطيق حوله سوى أذلاء النفوس وأرقّاء الضمائر وقساة القلوب.

بدلاً من أن أفرح بعودتي تغمّدني الكرَب، ولم أنم الليل وأنا أفكّر بما يمكن أن أفعل، لكن لم يكن هناك ما أفعله، وفي الغد قمت إلى بغداد وأنا ربّ عائلة للمرّة الأولى، وعندما وصلت كان رجال من القصر في استقبالي؛ كي يبلغوني أن منزلي قد انتقل إلى جناح في القصر الجديد، وما هي إلا أيام حتى ينتهي العمل في جناح سيدي الخليفة وتنتقل بغداد والإمبراطورية من مكان إلى مكان.

كان أوّل من جاء إلى زيارتي ذلك المساء عبد الرحمن الخليل، وكان باسماً كالمعتاد فرحاً ضحوكاً، مع أن السنّ قد تقدمت به في وضوح، قال

الخليل: عرفنا بقدومك القريب منذ أيام وهذا الصباح انتشر موعد وصولك في القصر، ثم قال: لماذا لا تدلنا على غرف بيتك؟ قلت: إنني مازلت لا أعرفها، فغمزني، فقلت: اتبعني، كانت تلك فرحة أن أرى الجناح بنفسي وأن أمتّع النظر بغرفه الفسيحة ووسائده الحريرية المنتشرة بسخاء في كل مكان، وما إن أصبحنا في عمق البيت حتى أمسكني الخليل من ذراعي، وقال: لقد عدت في وقت عصيب يا عبد الله، ظاهر الحال انتصار والنفوس منكسرة والخاطر بائس، لقد تغيّر كل شيء منذ أن أصبحت النميمة سيدة القصر، إننا بلاد خائفة اليوم، الخليفة خائف والشعب خائف والجواري خائفات، في النهار الناس جواسيس وفي الليل الناس عسس، والكلمة التي لا تقال خطرة مثل الكلمة التي تقال، الأب يخشى ابنه والابن يخشى أخاه وأهل الضفة اليمنى، وضفاف دجلة تخشى ضفاف الفرات، إنني حزين يا عبد الله، إنني حزين.

عدنا إلى صحن الدار وأنا شديد الاكتئاب لكل ما سمعت، وفجأة أدركت عظمة الفارق بين أن يكون المرء حراً في البحار والغابات وبين أن يتحول إلى مخلوق ضعيف يخاف كل ما حوله ويخشى كل من يراه، وزاد اكتئابي عندما استطرد عبد الرحمن الخليل يحذرني: لا تأمن لأحد! لا تطمئن لأحد! احذر الرجال والنساء والأولاد والجدران، احذر المبالغة في الولاء؛ كي لا يقال: إنك مخادع، واحذر الاعتدال في الولاء؛ كي لا يقال: إنك خائن. ولا تمتدح سوى الخليفة فكل من عداه زوال، ولا تمتدح وزراءه فمن يَنَمْ وزيراً يصْحُ سجيناً، لقد تحوّلنا فجأة يا عبد الله، من أمة خلاّقة إلى أمة لا تعرف سوى الخوف، ومن أمة تطمح أن تتقدم الأمم إلى شعب

يخاف من نفسه ومن نجاحه، إن بعضنا يخشى أن يحكي، وبعضنا يخشى أن يفكر، وبعضنا أصبح يخاف أن يشعر، إنني شديد اليأس يا عبد الله.

لم يترك لي أن أطرح عليه سؤالاً واحداً، لمَّ ثوبه ومشى، وأمضيت العشية مع ولدي على الشرفة، وراي تي تنشر عذوبتها في كلّ اتجاه.

● ●

طلبت من وزير البريد أن أقدم إلى سيدي الخليفة ما حملت من الهدايا وانطباعات، فقال: إنه سيفعل ذلك بنفسه، فوقت سيدي ضيّق، وسألته عما أفعل وما هي مهمّتي القادمة، فقال: ما عليك سوى الانتظار، قلت: أريد أن أكون في خدمة سيدي بكل ما أستطيع، قال: سوف نبلغك بأوامر سيدك عندما تبلغنا أوامره.

انصرفت إلى الحياة مع عائلتي، وبعد أشهر قليلة جاءت ابنتنا سليمى. وقد أردنا أن نسميها زبيدة على اسم سيدتي، لكن القابلات قلن: إن ذلك سيزعج خاطر الخليفة، ثم مرّ عام آخر، وأنا متكاسل في القصر العامر، أقرأ وأكتب وأنشئ أولادي على تعاليم القرآن ومبادئ الإسلام، وكان جمال راي تي يزيد وعذوبتها تملأ كل ما حولي كالبخور والمسك، والأطفال يكبرون على علم وخلق، لكن لا خبر من سيدي ومولاي الخليفة ولا كلمة. ونادراً ما عدت أخرج إلى بغداد، إلا أننا في الأعياد كنا نركب النهر إلى البصرة؛ كي نمضي العيد مع أم عبد الله وإخوتي وعائلاتهم، ولم يعد في كلام راي تي لكنة أو أثر من لكنة، ولولا اشتقاق عينيها لما عرف أحد أنها ليست من حي البزازين، وكانت أكثرنا ورعاً، بعد أمّ عبد الله، وحرصت دائماً أن أطلب خمارها وأثوابها من حرير قمار.

بقينا في هذه الرتابة نحو أربعة أعوام، وكدت أنسى البحر بعد كل هذه السنين، لكن فجأة أطلّ من جديد عبد الرحمن الخليل، وهذه المرة كانت قد زادت انحناءته وابيضّ شيبه مثل ثلوج بلاد الروم، وحمل معه عصاً يتوكّأ عليها، محاولاً أن يسند إليها ضعفه، وعندما دخل على هذه الحال عرفت أن في الأمر عجلة.

بعد الترحيب قلت: ما الذي يجيء بك هذه المرة يا عبد الرحمن؟ قال: هل لنا بالخروج إلى الحديقة يا أبا محمد؟ سار أمامي حتى وقفنا خلف الشجرات الثلاث، وهي ثلاث نخلات باسقة تظلّل ثلاث شجرات صغيرة من الأكاسيا، خلفها ثلاث شجرات من الرمّان، وخلفها ثلاث دوال، ونظر عبد الرحمن حوله متفقداً المكان ثم تأكّد أنه ليس خلف الدوالي أذن ولا عين ولا مخبرٌ، وقال: أنت تعرف يا عبد الله، أنني أصبحت منذ عامين كبير الصيادلة في القصر، وليس لي من مهمّة سوى العناية بصحّة سيدي الخليفة. إلا أنه أصبح رجلاً مرهقاً رغم شبابه، كل شيء يرهقه، الحروب ترهقه، الدسائس ترهقه، الذين يحبونه يرهقونه والذين يكيدون له يرهقونه، الأعداء يقضّون مضجعه وهم كثيرون، والخصوم يقضّون مضاجعه وهم غير ظاهرين. والمتآمرون يقصّرون ليله وهم أقرب الناس إليه.

قلت: وما العمل يا عبد الرحمن؟ قال: لا حلّ، فليفعل كلّ منا ما يستطيع. أنت تفعل ما تقدر عليه وأنا أفعل ما يقدّرني الله، لقد جئت أطلعك على سر، إن جاوزنا هلك كلانا: إن الإرهاق قد أصاب سيدي الخليفة بعلّة لا يعرف بها أحد سواي، حتى أطباؤه لم ينتبهوا إلى أن قلبه ضعيف.

كدت أصرخ في فزع، عندما قال ذلك، لكنه وضع يده على فمي بسرعة. وقال: اسمع يا عبد الله، هناك أولاً، رحمة الله، وهناك اثنان يمكن أن يساعدا سيدي الخليفة هما أنت وأنا.

شعرت أن عبد الرحمن يثقل كاهلي بمسؤولية لا طاقة لي بها، فاعترضت قائلاً: وما شأني بذلك؟ قال مهدّئاً من خوفي: اسمعني قليلاً ولا تخف، أما أنا ففي إمكاني أن أفيد سيدي الخليفة بالعقاقير من دون أن أدعه يعرف ماذا أصابه، وأما أنت فعليك القيام برحلة مرة أخرى إلى بلاد بعيدة؛ لتحمل إلى سيّدي شيئاً من شجر الشفاء.

قلت: وما هو شجر الشفاء هذا؟ قال: شجرة سحرية لا تنبت إلاّ على الجزر.

وفي الجزر لا تنبت إلا في قلب الغابات، وفي قلب الغابات لا تنبت إلا إذا سقيت من جذور ما حولها، ويلزم من أجل ذلك أن تكون في دائرة من شجر الكافور والصندل والتيك والصنوبر والحور والسرو، وهي تلقح نفسها بنفسها فتبدأ زهرة صغيرة أرجوانية اللون، ثم تصبح جذعاً، ثم تطوف بها الأغصان ولا تسقط براعمها في صيف أو في شتاء ويعظم أمرها وتطرد من حولها أغصان الشجر الآخر، وتظلّ أزهارها رطيبة كأنما المطر سقط عليها للتوّ، ويسيل منها عصير كالعسل، مرة في الصيف ومرة في الشتاء، ويتجمّد هذا السائل كالأقراص ويدوم سنوات طويلة، ومن كانت فيه علّة وأعطيت له هذه الأقراص لمدة طويلة طاب، وعادت له العافية وتفتّحت شرايينه، إنها الأمل الوحيد.

قلت: يا عبد الرحمن، كل شيء يهون في سبيل الخليفة ولكن كيف أتدبّر أمر الرحلة، فأنا منسيّ هنا منذ سنتين والخلافة العظيمة مأخوذة بأمورها الصعبة والدماء قانية أو سوداء، وأكاد لا أعرف أحداً من وجوه القصر، جميع من عرفتهم ماتوا أو ذهبوا، ومن لا يصل إلى أذن الخليفة لا يصل إلى قلبه، والسفر في المجاهل يتطلب مالاً كثيراً ورجالاً كثيرين. فكيف أمخر بحاراً لا أعرفها، وكيف أعبر براً أجهله، وكيف أصل إلى شجرة مسحورة لا تقوم إلا خلف عالم البحار والأشجار.

قال عبد الرحمن: عليك أن تنسى أيام السفر المريح والرفاق الطيبين، فليس أمامنا من حل سوى أن تترحّل على رسلك، فتبحث عن قافلة من قوافل التجار فتذهب في رفقتها، شرط ألاّ يعرفوا بأمرك أو بغرضك. قلت: وماذا إذا عرف أهل القصر بغيابي وهم لا شك سيعرفون، قال، يا عبد الله، لابد من المخاطرة هنا ومن المغامرة هناك، أمّا عائلتك فتنقلها إلى البصرة من دون ضجيج وتتركها في رفقة أمك وإخوتك.

ثم قال: أمّا الخيار الآخر فهو أن تنسى كل ما قلت لك، فينصرف كل منا إلى شأنه ونترك الخليفة إلى علّته والإمبراطورية إلى رحمة أعداء الداخل وأعداء الخارج.

● ●

عدنا إلى البصرة بلا جلبة، وحتى إخوتي وأمي لم أطلعهم على شيء. فقط راي تي أخبرتها بأمر الرحلة المقبلة إلى المجهول، وصرت في كل يوم أتنكّر في زي رجل بسيط وأنزل إلى الميناء وأتسقّط أخبار المراكب

المسافـرة، وكان أكثرهـا إلى بلاد فارس أو بـلاد الهند، لكنني كنت أطلب سفينـة مسافرة إلى الجزيـرة التي فيها شجرة الشفـاء وهي على مسافة أميال ومراحل وفراسخ من الهند على الطرف الآخر من بحرها العظيم.

إلا أن جميـع المراكب كانت تبحر في الاتجـاه الآخر، وبعد عذاب طويل برقـت لي بارقـة: لماذا لا أحـجّ إلى ديار الله مرة أخرى، ومـن مكّة ألتحق بقافلة من قوافل إفريقيا؟

صادف السعي إلى عرفات هذا العام في مناخ مؤاتٍ، وقامت الأضاحي والجوّ ما يزال بارداً، وقبل أن يهلّ العيد رحت أتسقط أخبار القوافل، وكان أكثرها آتياً عن طريق دمشق، غير أن قافلة كبرى كانت قد جاءت من بلاد الحبشة، فسألت صاحبها إن كان في إمكاني الانضمام؟ وقلت له: إنني من بلاد الشام، وأريد العودة إلى بعض أهلي في أثيوبيا، فرحّب.

شجرة الشفاء

تركت القافلة في أثيوبيا بعد مشاق طويلة، وكانوا قوماً لطفاء طيّبين. وبدأت أتدروش بين الناس؛ كي أتسقّط أخبار شجرة الشفاء وإن كان هناك من يعرف مكانها وفي أيّ أرض تكون، وكنت ألبس ثوباً قديماً وألفّ حول خصري حزاماً عريضاً من القماش، وضعت فيه من المال ما يكفيني لمفاجآت الرحلة، وأيّ رحلة هي هذه المرة، فلا مال كثير ولا رجال، لا حماية سيّدي أمير المؤمنين، ولا شيء سوى شوقي إلى راي تي وأولادي الذين يكبرون في رعاية الله فيما أنا تائه في دياره الشاسعة.

كنت في كل يوم أدهن بشرتي بالزيوت من أجل أن أعمّق سمرتها ولا يُكتشف أمري، وكنت أخشى خاصةً أن يلمحني أحد من العرب أو من رجال العبّاد فيظنّون بي سوءاً، كما خفت أن يتعرف إليَّ أحد من رجال وزير النجاشي الذي قد تساوره هذه المرة شكوك كثيرة.

وهذا تماماً ما حدث.

فقد قال رجال القافلة: إن أعرابياً جاء معهم من الحجّ واختفت آثاره. فامتلأت المدينة بالإشاعات، وكانت تضحكني الخرافات التي تقال، بعضها كان يقول: إنني أحمل سيفاً بتاراً في رأسه السمّ، وبعضها كان يضاعف طول قامتي وبعضها كان يكفي لإرسال الرعب في قلوب الناس، وسرعان ما بلغ الأمر أسماع الوزير، فأطلق شرطته في تحرّي أمر الرجل الغريب،

إلاّ أن رجـال الشرطة كانوا يمرّون بي من دون أن يلاحظوا وجودي؛ لأنهم كانوا يبحثون عن رجل عملاق لا وجود لوصفه إلا بالمخيلات.

منحنـي ذلـك المزيد من الوقـت في البحث عن أخبار شجـرة الشفاء، فالوقـت يمضـي وأنا قلق علـى صحة سيـدي الخليفة، والنـاس تردّد هنا أنـه طلع في غزوة أخرى صوب بلاد الروم، سـدّد الله خطاه، وحوله تروى الأساطـير، وتبني المخيـلات صوراً زاهيـة لبلاطه وأخبـار فتوحاته، وفي الأسواق أسمع فقراء كثيرين يحلمون بالسفر إلى مدينة السلام؛ بحثاً عن الرزق والسعادة.

هـل أخطـأت بالمجـيء إلى هنا؟ لا خبر عـن شجر الشفـاء في هذه البـلاد، وكل ما أسمع هـو الكلام عن شجر البلسم في جبال اليمن، فهل هـذا ما عنـاه عبد الرحمن الخليـل؟ لا، إنني أعرف دقـة عبد الرحمن الخليـل، ولو كان شجر البلسم هو ما يريد لما أرسلني في الديار والمشاقّ؛ بحثاً عن عقارٍ لمولاي.

كاد اليأس يـدبّ فيّ بعد هذه الأيام الطويلة، فلم يكن هناك من يعرف شيئاً عن شجـرة الشفاء، الجميع سمعوا بها، لكنهم لم يعرفوا أحداً وصل إليهـا، ولا هناك من يعـرف مواصفاتها الدقيقة التـي أعطاني إياها عبد الرحمن الخليل، ولا عرف عبد الرحمن في أي جزيرة تكون بين الجزر، كلّ مـا قاله لي: إنها جزيرة ليسـت في إفريقيا تماماً ولا في آسيا تماماً، لا هي قريبة من أطراف بلاد الروم، ولا هي بعيدة عنها.

فأين هي؟ أين هي؟

خطر لي، وقد أصبحت الآن هنا، وتحمّلت ما تحمّلته من عناء أن أفضح أمري بنفسي وأذهب إلى الوزير؛ لأطلب مساعدته، فالعودة إلى بغداد خالي الوفاض صعبة وحزينة، وإضاعة الوقت والأيام هنا لا جدوى منها، وفيما أنا في حيرتي وتألّمي أمضي الأيام والليالي في أسواق أثيوبيا سمعت رجلين في ناحية المدينة يتحدثان عن «البحّار الحكيم»، فسألتهما من يكون هذا؟ قالوا: رجل من الأحباش كان يعمل بين الرق في السفن التي تبحر إلى البلدان البعيدة، فلما تقدّمت به السّن ابتنى لنفسه كوخاً فوق تلة قريبة واعتزل إلى نفسه وربّه، وقد علّمته الأيام الكثير من الأمثال، وعلّمه السفر الكثير من المعارف، والناس تسعى إليه فتقطع عليه وحدته من أجل شيء من حكاياته الجميلة.

قلت في نفسي: هذا هو! وسألت: كيف الوصول إليه؟ فقالوا: الطريق إلى كوخه مسافة يومين على دابّة، وبعد يومين كنت أمام الكوخ، كان الرجل يغسل أثوابه في وعاء حجري ملأه بالماء والرماد ثم يعلّقها على أغصان شجرة هائلة جعل كوخه في ظلّها، ولم يأبه كثيراً لوصولي متعباً على دابّتي والعرق يتصبّب مني، ولما لم أستطع أن أدهن بشرتي بالزيت في اليومين الماضيين خفّت سمرتي قليلاً برغم الحرّ والشمس، فتوقّف قليلاً عن الغسل وقال في لا مبالاة: «هل أنت من بلاد العرب؟» قلت: السلام عليكم ورحمة الله، فإني من ديار أمير المؤمنين ولكن كيف عرفت؟ قال: «لرعايا الرشيد ملامح لا تخطئ»، ثم دعاني إلى الجلوس على مقعد من الخشب والقش، وقدّم لي حليباً بقرياً وتيناً مجففاً وقطعة من الخبز اليابس، ولما أدرك أنني استرحت قليلاً، أوقد ناراً خفيفة؛ كي يطبخ عليها شيئاً من الأرز واللحم، ثم سألني: «ماذا يأتي بك من بغداد إلى هذه التلال؟».

قلت: كنت في قافلة وصلت إلى أثيوبيا وسمعت عنك، فأنا بحار شابّ وأنت بحار قديم، فتوقف فجأة عن إشعال الحطب والتفت نحوي، وقال: «هل أنت السندباد، رحالة الرشيد؟».

قلت: أنا في سرك أيها الحكيم، أجل أنا هو، ولكن كيف لك أن تعرف؟ قال: «ومن يمكنه أن يصل إلى هنا سواك؟ لقد سمعت بأخبارك في آخر رحلة لي، وكانت في بلاد الهند، وكان الناس يحكون أخبار السفينة العظيمة التي أرسلها الرشيد، لكن ماذا حل بك يا سندباد؟ أين سفينتك وماذا حل بك؟ هل حل عليك غضب الخليفة؟»، قلت: معاذ الله، معاذ الله، رضى الله ورضى سيدي ومولاي الرشيد، قاهر الأباطرة ومُسعِد الرعية، معاذ الله، إنما أنا في مهمّة كبرى أيها الحكيم، فهل أستطيع ائتمانك؟

قال الرجل العجوز الذي طالت لحيته وطال شيبه وكثرت هيبته وكبُرت حكمته وتضاءلت قواه: «وهل للشجر آذان؟ فعلى أي سرّ تخاف»، قلت: علّمتني وشايات بغداد أن للمياه آذاناً وللشجر آذاناً، قال: «ما عليك فلا آذان حيث لا حسد، ولا وشاية حيث لا مطامع، ولا نميمة حيث لا سياسة».

قلت: أيها الرجل الحكيم، أيها الرجل الحكيم، ما أنا سوى خادم للرشيد مولاي، ومنذ أكثر من سنة وأنا أطوف؛ بحثاً عن شجرة الشفاء. فقد قال لي كبير صيادلته: إن صحّة سيّدي في خطر التعلّة ولا شيء ينفع تهاوي صحته سوى شجرة الشفاء، لكنه لم يستطع أن يبلغني أين تقع ولا في أي أرض تكون، بل كان يعرف فقط أنها في مكان من جزيرة لا هي في إفريقيا ولا في آسيا، وهي على بحر الهند، حيث الجزر كثيرة والموج مزبد. فهل تعرف شيئاً عنها؟.

قال الرجل الحكيم بدوره: «وهل أنا في سرك يا سندباد»، قلت:طبعاً، طبعاً، قال: «أنا ممن لامسوا شجرة الشفاء وعادوا بسواحل من ثمارها. ولولا ثمرتها لفقدت ساقي تماماً، فقد وطئت قدمي خطأ على رأس تمساح فراح يحاول أن يقطعها إلى أن فعل، وكنت آنذاك على مقربة من إحدى أشجار الشفاء في غابة كثيفة، فاستعدت قدمي من بين فكيه، وألصقتها في ساقي من جديد، وتناولت ثمرة ورحت أمتص عصيرها ثمّ غاب عني الوعي وأنا مستلقٍ في ظل الشجرة، وربما بقيت كذلك يومين أو أكثر، فلمّا أفقت كنت جائعاً وكانت قدمي في مكانها سالمة إلاّ من آثار تورم وجرح بسيط».

قلت: وفي أيّ بلاد هي؟ قال: «إنك منها على بعد بعيد يا سندباد، أمامك الكثير من البرّ والعظيم من البحر، وما رأيت إلى الآن من مسافات ومن هول المياه لا يقاس بما ستشهده، فهل أنت عازم ومصرّ؟».

قلت: إنني متوكّل، والله رحيم قدير، قال: «إن شجرة الشفاء في بلاد طائر الرخ، فهي لا تنمو إلاّ هناك؛ لأنها لا تتغذى إلا من التراب الذي لا يتغذى إلا من روث ذلك الطير، وهو لا ينتقل منها إلى أي جزيرة أخرى».

قلت: لكننا شاهدنا طائر «الرّخ» على أحد منابع النيل وهو يلتهم حية عظيمة، فضحك الرجل الحكيم وقال: «ما شاهدت كان نسراً عظيم الخلقة، لكنه لم يكن طائر الرخّ، فالرخّ كما قلت لك: لا يترك جزيرة مدغشقر؛ لأن حمله عظيم ولا يستطيع التحليق طويلاً، إنه قادر على حمل فيل صغير والتحليق به عالياً لكن ليس طويلاً، فمخالبه هائلة القوة غير أن جناحيه ضعيفان وعدده قليل وبيضه قليل لشدة ما هو ضخم».

قلت: فما العمل؟ قال: «البحر بعيد من هنا الآن. لكنني أعرف ميناء يبحر منه بعض التجّار إلى جزيرة مدغشقر بعد أن يعبروا بحر إفريقيا. ولي صديق عند النّاخُذَاة بلغني أنه سيقوم برحلته الأخيرة إلى تلك الأصقاع، إن أنت حملت هذه الرسالة إليه اهتم بأمرك». ثم قام إلى داخل الكوخ وعاد ومعه قطعة من الجلد مكتوب عليها أحرف لم أستطع قراءتها ومرسومة عليها صور لطيور غريبة.

أمضيت الليل نائماً على مقعد القش أمام الكوخ، وفي اليوم المقبل بدأت في براري الله وبحاره أطول رحلة قمت بها من أجل مولاي.

ركبت جميع الدواب، امتطيت الخيول والحمير والبغال، وقبل أن أبلغ البحر على أطراف الحبشة رأيت جماعة من الزنج حاملي الحراب والنبال يركبون طيراً طويل العنق عظيم الريش سريع الحركة، فركبت ذلك الطير الذي كان ركوبه أصعب من ركوب الخيول، وكان أهل الغابة يفزعونني بادئ الأمر بسبب قاماتهم الطويلة ورماحهم الحادّة، غير أنهم قوم طيبون، وما كانوا يستخدمون تلك الرماح سوى في صيد الحيوانات أو في قتل المفترس منها، وقد اصطادوا الكثير من البقر الوحشي والوعول وأكلوها نيئة، فعلّمتهم كيف يوقدون النار وكيف يضعون اللحم فوقها.

وكنا نتخاطب بالإيماءات، فما كانت لهم لغة معروفة بل أصوات يتفاهمون بها، بعضها مأخوذ من طيور الغاب وبعضها شبيه بأصوات الوحش، لكنهم قوم طيبون، وكانوا شبه عراة، يرتحلون بغير هدف ولا يقيمون في مكان ولا يسعون إلى المدن، ولم تكن لهم حياة منتظمة أو مواسم، ولست أدري كيف كانوا يولدون.

وبدا لي أنهم لا يستريحون أبداً سوى في الليالي حين كانوا يفترشون أي شيء وينامون مع حلول الظلام، ولم يكن لهم غناء أو حداء، وعندما كنت أردد في العشاء آيات كريمة كانوا يصغون بدهشة واضحة ويأنسون ويعبّرون لي عن سرورهم، بأن يشبكوا سواعدهم الطويلة ثم يتحدّثون إلى بعضهم في همهمة تنمّ عن الارتياح.

أمضيت نحو ثلاثة أشهر قبل أن أبلغ الساحل، وقد شعرت بشيء من الافتقاد إلى أهل الغابة لما قامت بيننا من ألفة لا أستطيع تفسيرها، وبعدما تركت الجماعة أدركت معنى تلك الألفة التي تقوم بين أهل الغابات المسحورة حيث لا لغة سوى لغة التكاتف في وجه الظلام والغدر.

بلغت الشاطئ عند بلدة صغيرة يسمّيها أهلها مومباسا، فيها مرفأ صغير وبيوتها مسقوفة بالقش وفيها قوم ناحلون طوال القامات وهم الأكثر احتراماً للبشر، بين كل من رأيت إلى الآن، وبعد أيام قليلة عرفت أن في البلدة عرباً من اليمن فذهبت أطلبهم، ولم أخبرهم بمن أكون، غير أنهم عرضوا علي كل مساعدة في أي حال، والأكثر شأناً بينهم لم يكن من اليمن بل من صحار، وهو نَّاخُذَاة قرر أن يستقر هنا بعدما تزوج أكثر من امرأة من أهل البلاد، وله عائلة كبيرة وأولاد كثيرون يساعدونه في أعماله. وهو قوّام على المدينة وصاحب المرفأ فيها، يزوّد السفن بحاجتها.

ينادونه أبا سعيد، وقد أكرم وفادتي كمن يرحّب بأي مسلم، وسألني من أين أتيت؟ فقلت: من بلاد الحبشة وإنني أقصد بلاد المالاغاشيين. فقال: بلاد بعيدة وصعبة ولم يبلغها من المسلمين أحد بعد، فماذا يحملك إليها؟ قلت: الرغبة في التجارة، قال: مجاهلها كثيرة، والناس تغرق في

مستنقعاتها لكثرة الأنهار والبحيرات، وتماسيحها كثيرة أيضاً، قلت: الله يرعى عبيده ويحرس مخلوقاته، وإذا لم يكن بدّ من أن يصلها مسلم ذات يوم، فلماذا لا أكون أوّل المسلمين هناك، وأخبرته أنني سوف أمضي بعض الوقت؛ كي أنتظر مركباً أعرف صاحبه، فقال: تقيم بيننا ما تشاء. وأعطاني قرب منزله كوخاً وأمر لي بجاريتين وحمّالين وأرسل إليّ زاداً وطعاماً وعنزتين أشرب حليبهما في الصباح، وخمّاً للدجاج.

كان موسم الحرّ قد اشتدّ على المكان ولم تمر بالميناء سوى مراكب قليلة طوال مدة، وكان الرجل من صحار يؤذّن فينا ويؤمّ الصلاة، وافتتح في ساحة البلدة كتّاباً لتعليم الكتابة والقرآن، وكان رجل خير صالحاً، يهتم بشؤون الناس وخاصةً المسلمين.

ما هي إلا أشهر حتى أرسل إليّ من يخبرني أن السفينة التي أنتظرها سوف تصل الشاطئ عند الغروب، إلا أن الريح دفعتها إلى الميناء عند العصر فخرجت في قارب صغير صوبها ومعي رسالة «البحار الحكيم». وصعدت إلى السفينة وسلّمت قطعة الجلد إلى ربانها فرأيت على وجهه علامات الغبطة، وسألني: كيف وصلت إليّ؟ فرويت حكايتي كما هي.

بعد ثلاثة أيّام كنّا نبحر في مياه حارة شديدة الهدوء، ولم يكن بحر الهند يرغي ويزبد إلاّ على الشواطئ، وقد اتفقت مع النّاخُذَاة أن أدفع له عشرة دنانير بعد وصولي إلى الجزيرة، ولذا كنت أنام طوال الوقت والمال تحت وسادتي؛ خوفاً من طمع البحارة الآخرين، لقد علمني البحر أن أحذر كل شيء وكل الناس، من يركب البحر لا يترك مكاناً للمصادفات.

فجـر يوم رائق لذيذ كنـت غافياً على سطح السفينـة أرى حلماً ممتعاً مليئاً براي تي عندما أيقظني النَّاخُذَاة برفق، وأشار بيده إلى الأفق قائلاً: «هذه هي مدغشقر»!.

فركـت عيني، وأنا حزين على انقطاع حلمـي وتأمّلت الأفق فإذا أمامنا جبـال زرقاء تغطـي رؤوسها الغيوم، خـط طويل طويل، من جبـال زرقاء، متفاوتـة الارتفاع يتدلى منه سهـل انحداري من التـلال إلى البحر مغطى بالخضـرة والزرع، وكلما اقتربنا كان المشهـد يزداد بهاءً، وأخذت تبدو لنا بوضوح أكثر تلك الأشجار الباسقة التي تغطي الأكواخ في مدينة تاماتاف.

إلا أننا ما إن اقتربنا من الشاطئ حتى أخذت الأمواج ترغي وتزبد، ولم نعـد نرى تلك الجـزر المرجانية التي رأيناها من بعيـد، وأخذ الموج العالي يلاطم السفينة، كأنه يحاول أن يمنعها من الرسو، ونظرت في بعض المراكب الراسيـة فشاهدتها تتراقص كورق الشجر في الريح، واعتراني هلع هائل. ورأيت بعضـ المراكب الصغيرة ينقلب ويحمله البحر، فهل قطعت كل هذه المسافات من أجل أن تنتهي رحلتي حيث يجب أن تبدأ، وعلا صوت الريح. وأخـذت الأمواج تعلـو بنا ثم ترمينا في سفح الموجة المقبلة، تلوت الآيات في صـوتٍ عـالٍ، وحاولت أن أوثق نفسـي بعمود الساريـة، إلا أن بحاراً نهاني عـن ذلك بعنف، فحاولـت أن ألفّ جسـدي حول العمـود والمطر يغمرني. وفي لحظـات هدأ كل شـيء وسكن البحر وتهادت السفينـة نحو تاماتاف، حيث وقف قـوم نصف إفريقيين نصف آسيويـين، مربوعو القامات ناحلو السيقان، بعضهم بدافع الفضول، بعضهم من أجل أن يعرض نفسه للعمل أو الـرقّ، وكان تاجـر رقّ أو أكثر، أيضاً هناك، تعرفهـم من لباسهم ومن وقاحة أعينهم.

ترجّلنا من السفينة إلى مراكب صغيرة محفورة من بطون الشجر نقلتنا إلى الشاطئ، وقد تبينت على الفور أن البيوت مبنية بالخشب والخيزران ومسقوفة بنوع عجيب من سعف النخل أكثر عرضاً بكثير من نخيل بلادنا، وبعد قليل وصلنا إلى سوق المدينة، حيث كانوا يبيعون الجراد المجفف والأسماك وحيوانات البحر والأرز والبطاطا والموز والبطيخ والبرتقال والإجاص، وكانت هناك أيضاً لحوم البقر والضاني والدجاج كما في أسواق الكرخ.

لم تكن هناك بيوت من الحجارة أو من الطين في تاماتاف، فلا حجارة هنا ولا شيء سوى الرمال، والمزيد من الرمال، وقد عثرت لنفسي على منزل صغير أبيت فيه قرب منزل صاحب المدينة، ووجدت صعوبة هائلة في التفاهم مع الناس، فهي لغة أسمعها لأول مرّة ولم أستطع أن أميز شيئاً من ألفاظها، وقد حاولت بعض الكلام الهندي وبعض الكلام الفارسي، إلاّ أن أحداً لم يفهم ما أقول.

وأخذت أبحث عن وسيلة أذهب بها إلى الغابات؛ بحثاً عن شجرة الشفاء فوجدت أن النقل هناك يتم على خشبة طويلة يحملها أربعة رجال، اثنان من كل جهة، فقلت في نفسي: لعلها الطريقة الوحيدة، فاتخذت قافلة من عشرين رجلاً يتناوبون حملي عبر الغابات الجميلة، وأنا لا أفهم شيئاً مما يقولون، ولا يفهمون شيئاً مما أقول.

لم ينقطع المطر الخفيف منذ أن وطئنا الأرض في تاماتاف، وكان يزداد قوّة كلما توغّلنا في الغابات بين التلال الخضراء والزرقاء، وطوال الوقت كانت تخرج إلينا التماسيح فيتجنّبها الرجال ويفرون منها، ومن الأشجار

كانت تتدلى غالباً أفاعٍ فظيعة الأحجام، لكن لا حيوانات كبرى في هذه الغابات، لا أفيال، لا وحيد القرن، لا شيء سوى البقر والحمار الوحشي. وتخشى الناس أن تقتل التماسيح لاعتقادهم أن فيها قوة انتقامية، وقيل: إن رجلاً طعن تمساحاً فهاجت التماسيح وهجمت على قريته فأبادتها كلها.

لكن لا حيوانات كبرى على الإطلاق، صادفنا بعض الذئاب والهررة الوحشية فحسب، أما الحيوانات ذات الجلود السميكة التي كنت أراها في إفريقيا كيفما تلفّتّ، فلا أثر لها هنا، يبدو أنها لم تعبر البحر مع الإنسان إلى هذه الجزيرة، ولا خيل ولا نوق، لا سعادين تقفز فوق الأشجار كما رأيت في السند والهند، حتى الماعز والخرفان صغيرة الحجم، وحدها الطيور والنباتات والزواحف هائلة الأحجام غريبة الألوان متعددة الأشكال. وكان هناك أبقار وثيران في كل مكان وبعضها ذو سنامين وهائل القرون، وكان النخيل العريض السُعف، باسقاً عالياً في ارتفاع شديد، والمطر لا يترك ورقاً يجفّ، وكل الأوراق تلمعُ تحت الرذاذ ويُسمع لها حفيف على الدوام، وكان في الغاب جنّ كثير يغنّي ألحاناً جميلة ولكن بأصوات غير مفهومة، وقد حاولت عبثاً أن أتبيّن ماذا يقول الجان الذي رافقنا طوال الطريق، وكان كلما غاب يوماً أو يومين أعود فأسمع صوته وغناءه الشجيّ من جديد، وقد حاولت في الليل أن أنام بعيداً عن القافلة؛ لعله يريد رؤيتي على انفراد، إلا أنه في الليل كان يبتعد وتأتي إليَّ من خلف الأشجار أصوات جنّ آخرين. ولم أكن أعرف أحداً منهم، وقد تأملت أن يطلع لي جنّ صديق مثل جندب بحر الهند، ولكن بغير جدوى.

قطعنا مسافات طويلة وأياماً كثيرة ولا أثر لشجرة الشفاء، ألوف الأشجار وغرائب الثمار وألوف الزهر، لكن هي لم تَبِنْ بعد، وكان في

القافلة اثنان من الأدلاّء فلم نخشَ أن نضيع طريق العودة، إلا أن الخوف استبدّ بي في أي حال، ومنذ مدة لم يعد في إمكاننا أن نحصي الأيام؛ لأننا أضعنا الشمس بين الأشجار الكثيفة وظل النور يتسلل من خلال الأغصان العالية كأنه يأتي من سُرُجٍ خفيفة النور معلّقة في السماء.

وشعرت بوحدة شديدة، فلا كلام مع الرجال ولا شيء متبادلاً سوى الطعام، وكنا، بين حين وآخر، نمر بقبائل متفرقة فنجالسها ويصدر أهلها أصواتاً غريبة، إلا أنهم كانوا قوماً طيبين، ويتزوج الرجال والنساء هنا وهم في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر، وتراهم معاً شبه عراة في كل مكان ومعهم أولادهم، وتنام العائلة كلّها في غرفة واحدة من الكوخ أو البيت فلا حرج في ذلك، وهم يمضون معظم النهار في الخارج بين المطر والشمس ولا يكترثون لحرّ أو برد.

انكشفت أمامنا الغابة من جديد في سفح تلة زرقاء أخاذة المنظر. وإذ جلسنا بعد ظهر ذلك النهار نستريح قليلاً اكفهرت السماء فجأة فوق رؤوسنا وسمعنا صوتاً قوياً وكادت الريح تدفعنا، فنظرت إلى فوق، فإذا طائر في حجم عشرة نسور يحطُّ بكل ثقله على مسافة منا، وهالني المنظر. أما الحمالون فبدا أنهم لم يكترثوا وقد رأوا هذا الكائن من قبل.

عندما حطّ، تطاير من حوله العشب، وقد أدار ظهره لنا، فلاحظت أن رأسه ضخم مثل رأس آدمي، وقد ربض هناك طويلاً يتململ ويهزّ جناحيه ولا يتحرك، وقرّرت بدوري أن نبقى بلا حراك؛ كي لا نثيره. ثم ادلهمّ الليل، وهو هكذا فاستسلمنا إلى النوم.

وعندما أفقنا في الصباح رأيناه قد ذهب، فاتجهنا إلى حيث كان فرأيناه ترك خلفه بيضة عملاقة رحت أدور حولها وأحاول أن أقيسها فكانت في حجم 148 بيضة عادية.

لم يكن لديّ شك هذه المرة بأنه الرخ حقاً، وقد أدركت من لونه الذهبي البراق أن الطائر الذي رأيته عند النيل لم يكن الرخ بل هذا هو، هذا هو، يحلّق ببطء مثل فيل ويهبط بثقل مثل فرس ذهبيّ ضخم، وقد راح الحمالون يردّدون في صوت واحد لدى رؤيته «الرّخ، الرّخ» ولكن بلغتهم غير المفهومة، وبدا لي أنهم ينظرون إلى الطير الهائل بشيء من التقديس كما يقدّسون الأصنام الأخرى، وقلت في نفسي: سبحان الله في خلقه إنه لعلى كل شيء قدير.

أكملنا مسيرتنا في العراء الأخضر ولا أثر لشجرة الشفاء بعد، لكن بدأنا ندخل الآن في حقول تملؤها الفراشات الرائعة الألوان كما في غابات سرنديب، وكانت إحداها ذات لون أخضر جميل تقلّمت أجنحتها باللون الذهبي البراق مثل لون الرخ، وكانت هناك فراشات حمراء الأجنحة وقد قطّعت عند أطرافها كأن يداً نحتتها، وكان بعض الفراش يأخذ لون العشب أو الشجر حيث نمر، يأكل من الأوراق ويشرب من الرذاذ العالق بها على الدوام، وقد أشعرتني الفراشات بشيء من الفرح والسلوى وهي تقفز فرحةً بما حولها تمجّد الخالق في ألوانها وأشكالها، إلا أن هذا المشهد الجميل كانت تقطعه علينا غالباً مشاهد العقارب السوداء وبيوت العناكب الضخمة، التي يقطعها الحمالون بالعصي الطويلة.

بدأ اليأس يدبّ بي من جديد، وشعرت أن قواي بدأت تضعف، وكان صوت الجان الذي سمعته أول مرة في تاماتاف يلاحقني ويطلق أغاني

حزينـة، وكلمـا غنّى كنـت أتذكر راي تـي وأولادي وأم عبـد الله، وأخذت تسـاورني شكـوك مضنية أيضـاً، فهل وقعت ضحية عبـد الرحمن الخليل ومؤامـرة سرية في البلاط، فلفّـق الحكاية، مرض مـولاي وحكاية شجرة الشفـاء؟ هل هناك حقاً شجرة شفاء؟ وهل هي على هذه الجزيرة وليست علـى جزيرة أخرى؟ دبّ في حـزن شديد وجلست أبكي أمام الحمّالين مثل طفل، واستسلمت إلى النوم.

أفقنـا في اليـوم المقبل والمطـر يرافقنا، وقـد اعتدنـا الآن عليه وصار مثـل تعرّق الجسـم، ولكن شجرة الشفاء لم تبدُ بعـد، الأيام والليالي تبدو فحسب. وطائر الجنّ يؤنس النهار أما الليل فظلام وخوف، وحنين إلى راي تـي وإلى حي البزازين، لقد أصبحنا تقريباً في منتصف الجزيرة وفي قلب غاباتها، ولم نعد نسمع صوت طيور البحر، أنهار خلف أنهار، أحياناً تتحول إلى شلالات، وأحياناً تتقاطع، وأحياناً تهدأ مثل البحيرات فلا نسمع سوى صوت خريرها عند الحفاف والضفاف، وطائر الجنّ يغنّي ولا أراه.

ما إن أفيق في الصباح حتى أسمعه، وما إن أسند رأسي إلى جذع شجرة أو كومة من العشب حتى يغيب، وكأنه يرافق الشمس في رحلتها اليومية إلى ما خلـف الأفق، والأفق هنا ذو ألوان كثـيرة يتّخذها الغياب؛ ليرسم حوله أشكالاً مختلفة وخيالات مختلفة، وما إن يمّحي آخرُ ظل من صحن الشمس في بركة من البنفسج حتى يصمت طائر الجن، وأقوم إلى الصلاة.

ثم نخلد جميعاً إلى النوم في ظلام كليّ إلا في الليالي المقمرة حين يأتي الشعاع الذهبي الجميل مبلّلاً هو الآخر بالرذاذ، إلّا أن ورق النخل العريض يغطّينـي تمامـاً فيما ينـام الباقـون شبه عـراة، لا خوف يأكلهـم ولا هم

يضحكـون ولا يبكون، ولا حنين لهم ولا آمال، الغابة توفّر الطعام والسقف. ولا مهمّـة من أجل سيدي مولاي، تراه يـدري في أيّ أرض أنا ومن أجل مَنْ أتيت؟ تراه نسي كل شيء عن ذلك الشابّ الذي جاء به من حي البزازين؛ ليطلـب منه أن يجوب العالم؟ كيف هي البصرة اليوم؟ في أي بلاد يحارب سيدي وأيّ أرض يطلب؟

تسلّقنـا تلـة عالية قضينـا الليل عليهـا، وفي صباح اليـوم المقبل بدأنا الانحـدار إلى السفح، ونظرت من فوق إلى المنبسـط أمامنا فرأيت مرجاً من شجر الصنوبر والسرو والحور، وشعرت بخفقان شديد، هل هي هنا؟

ترجّلـت من فوق المحمـل ورحت أعدو بين الأشجـار، وشعرت أن المطر توقّـف فجأة بعـد كل تلك الشهور، فجأة اكفهرت السمـاء فوقنا كأن غيماً كثـيراً قد سُحِب، ورأيت الحمالين يرتجفـون وأبدانهم تتراقص وعصيّهم الطويلـة تسقط مـن أيديهم، ونظـرت إلى فوق، فرأيـت خمسة من طيور الرخ الذهبيـة تحلق فوق المرج ثم تهبط في آخره، ولمعت أجنحتها الذهبية تحـت الشمس كأنها كنز من الذهب والماس وأدركت أن مبيت الرخ في هذا المكان، لقد تهادت في هيبة وجلال فاكفهرت الأرض بظلالها ولمعت بلمعان أجنحتهـا العظيمة، هبطت معاً ثم حلقت معـاً من جديد، وشعرت بالهواء يبرد حين قامت، وأصابتني رهبة عظيمة.

كان ذلـك على مسافة فراسخ منا، وخاف الحمالون أن يكملوا الطريق فتجمّـدوا في أمكنتهم، فانتظرت إلى اليوم المقبل، وبعد مسيرة قليلة رأينا فجـأة صفّاً من الأشجار الشديدة الارتفاع مليئـة جميعها بأغصان عارية مـن الـورق مليئة بزهر بنفسجي خـلاب، وإذ اقتربنا أكـثر منها شاهدت

في جذعها ثغرة على شكل الفم يسيل منها لحاء كالعسل، تقدّمت في وجل وفرح وأخذت أتذوّق شيئاً من هذا السائل البنّي اللون، فوجدت طعمه لذيذاً، وشعرت على الفور أن تعب السنوات قد زال وأخذت خلاياي تتفتّق وجسدي يقوى واشتدّ نظري، وهاجت نفسي بالشوق، وتمنّيت لو أستطيع أن أغرف هذه الغابة كلها؛ كي أعيدها معي إلى سيدي ومولاي، وأمرت الحمالين أن يعبّئوا الضرف الجلدية التي معنا، وفي اليوم المقبل غرفنا المزيد وعدنا إلى تاماتاف.

جلست في تاماتاف شهوراً طويلة أنتظر سفينة مبحرة إلى إفريقيا. وكان قلبي على سائل الشفاء؛ خوفاً من أن يهترئ فخبّأت الضرف تحت المياه وربطتها بوثاق، وأخيراً أطلت من بعيد سفينة كبيرة مبحرة إلى إفريقيا، ومن هناك أبحرت في سفينة أخرى إلى عُمان، ومن عُمان أبحرنا إلى الأبلّة ثم البصرة وعندما وصلت أخيراً إلى حي البزازين ركعت أصلي وأقبل الأرض، ولم يعرفني أهلي، وحدها راي تي عرفتني رغم الشيب والنحول وما حل بي من أهوال السفر، ورأيت إخوتي كبروا وأولادهم شبّوا وأولادي أصبحوا في مثل قامتي، وركعت راي تي تقبل يدي وكأنها لا تصدق عينيها.

وتفقّدت أم عبد الله، فلم تكن هذه المرة هناك، لم تستطع أن تنتظر حتى عودتي!

● ●

أمضيت أسبوعاً في البصرة أستعيد قواي وبعض ما ضاع من عمري. ولم أخبر أحداً بأمر سائل الشفاء وما في الضرف سوى راي تي، وركبت القارب إلى بغداد متنكّراً، وذهبت فوراً إلى رئيس الشرطة عبد الله بن

مالـك، ولما عرفتـه بنفسي ذهل لما حل بي من تغير، وقـال: لقد قطعنا كل أمل أنك ما تزال على قيد الحياة، فقد قال بعضهم: إن البحار قد ابتلعتك، وقال بعض آخر: إن البراري قد أضاعتك، وقال بعض ثالث: إنك شوهدت في بلاد الحبشة فقيراً في شوارعها.

سألتـه عن وزير البريد، فقال: تغير، وسألته عن رئيس الأطباء، فقال: مات، وسألته عن عبد الرحمن الخليل فقال: قضى، وجلست أروي له كل ما حصل، وارتعدت وأنا أكشف له السر الذي لم يعرف به أحد سوى راي تي. وقلـت له: إنني أحمل معي سائل الشفـاء إلى أمير المؤمنين ويجب أن أنقله إليـه في أسرع وقت، فتنهّد طويلاً، وقال: «أخبارنا سيئة يا عبد الله، صحة الأمير متعبة كثيراً، وهو الآن في خوراسان والطريق طويل».

قلـت: لا يهمّ، لا يهمّ، لقـد قطعت كل هذه البحار والغابات والصحاري مـن أجل العثـور على عقار لسيدي، فهل نتوقـف الآن وقد عدت إلى بغداد ومعـي هذا السائل الساحر، وقـال الوزير: هل نخبر سيدتي زبيدة بالأمر؟ قلت: لا، لا، المرأة لا تؤتمن على سر، ولو كانت سيدتي زبيدة، والبلاط بئر للإشاعات والدسائس.

قـال: هل تشك في ولاء سيدتي زبيدة؟ قلت: أيهـا الوزير، علي الأمان، فأنت تعرف أكثر مما أعرف وتدري أكثر مما أدري، وما حدث أيام سيدتي الخيرزان يتكرر اليوم، إن السيدة زبيدة تعد ابنها الأمين للخلافة وحده ولا تريـد أن يليه المأمون، وهي من أجل ذلك تجمـع أموال الخزينة لابنها من كل مكان ومن كل الناس؛ كي يشتري بها ولاءهم عند الساعة الحاسمة.

مـن قَلَب قلْب أمير المؤمنين غير النساء؟ من أباد سعادته؟ ألا تذكر ما قالتـه له أخته عليّـة: «لم أرك يوماً سعيداً منذ حكمت على جعفر البرمكي بالموت، لماذا فعلت ذلك؟ لماذا فعلت ما فعلت»؟

لكنهـا الوشايـة وأذن الخليفة الضعيفة، كل ما فيه قويّ إلا أذنه، كل ما فيه نبيل إلا انفعاله، كيف لسيدي أن ينكّل بالمسلمين الآخرين كما فعل؟ ألا تـرى أيها الوزير، أي حرب تنتظر الخلافة؟ أي انشقاق ينتظر الفتوحات؟ أي فرق سوف نفرّق، كدت أنهار باكياً وأنا أرثي تلك السنوات التي أضعتها مـن أجـل سيدي، وإذا بـي أعود لأسمـع حكايات الرشيد مـع الرعية ومع الأصدقاء ومع المعترضين! لقد هرب سيدي إلى الرقة من بغداد؛ كي يبتعد عـن الوشايات والدسائس، لكنها لحقت بـه إلى هناك، وكم كان يقول: إن أجمـل أربع مدن في العالم هي الريّ ودمشق والرقّة وسمرقند، وإنه سعيد؛ لأنـه سكن ثلاثـاً منها، لقد آلمتـه ذكريات بغداد وضاقت بـه فيما اتسعت لآلاف الآلاف من الناس والغرباء.

كيـف العمـل؟ لابـد أن نبلغ سيدي قبـل أن يحصل ذلـك المكروه الذي كان عبـد الرحمن الخليـل أول من أدركه، أمر عبد الله بن مالك أن تجهّز لي فرقـة من الخيالة، ولم أنتظر لأجمع مـا يكفي لمؤونة الرحلة، بل جعلت الخيـل تنهب الأرض نهباً وأنا أصلي طـوال الطريق، بلغنا مدينة طوس في الرابع من جمادى الثانية 193، الواقع في 25 آذار 809.

كانت المدينة في السواد والصمت، والحزن بادٍ على كل الوجوه، والخوف ظاهـر في النفوس ولا أحد يدري أيّ حرب سوف تقوم أو أيّ سلام سيأتي! وكان هنـاك مـن يقول: إن الفضل بن سهل هو الـذي أقنع مولاي بالخروج

إلى خوراسان لتأديب التمرّد رغم معرفته التامة بالعلة التي تفتك في جسم سيدي ومولاي رحمه الله، وقد قيلت روايات كثيرة فيما حدث، وقيل أيضاً: وافى هارون جرجان في صفر، فوافاه بها خزائن علي بن عيسى على ألف وخمس مئة بعير، ثم رحل من جُرجان ــ فيما ذكر ــ في صفر، وهو عليل، إلى طوس؛ فلم يزل بها إلى أن تُوفّي. واتّهم هرثمة، فوجّه ابنه المأمون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة إلى مَرْو، ومعه عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وأسد بن يزيد بن مزيد، والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، والسندي بن الحَرشيّ، ونعيم بن حازم، وعلى كتابته ووزارته أيوب بن أبي سُمَيْر، ثم اشتدّ بهارون الوجع حتى ضعف عن السير.

«وكانت بين هرثمة وأصحاب رافع فيها وقعة، فَتَح فيها بخارى، وأسر أخا رافع بشير بن الليث، فبعث به إلى الرشيد وهو بطوس؛ فذُكر عن ابن جامع المروزيّ، عن أبيه، قال: كنت فيمن جاء إلى الرشيد بأخي رافع. قال: فدخل عليه وهو على سرير مرتفع عن الأرض بقدر عظم الذراع، وعليه فرش بقدر ذلك ـ أو قال أكثر ـ وفي يده مرآة ينظر إلى وجهه. قال: فسمعته يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! ونظر إلى أخي رافع، فقال: أما والله يابن اللّخناء؛ إني لأرجو ألا يفوتني خامل ـ يريد رافعاً ـ كما لم تَفُتْني. فقال له: يا أمير المؤمنين، قد كنت لك حرباً، وقد أظفرك الله بي، فافعل ما يحبّ الله، أكن لك سلماً، ولعل الله أن يلين لك قلب رافع إذا علم أنك قد مننت عليّ! فغضب وقال: والله لو لم يبق من أجَلي إلا أن أحرك شفتيّ بكلمة لقلت: اقتلوه، ثم دعا بقصّاب، فقال: لا تشحذ مُداك، اتركها على حالها، وفصّل هذا الفاسق ابن الفاسق، وعجّل، لا يحضرنّ أجلي وعضوان من

أعضائـه في جسمه، ففصله حتى جعله أشلاء، فقال: عُدّ أعضاءه، فعددت له أعضاءه، فإذ هي أربعة عشر عضواً، فرفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم كمـا مكّنتني من ثأرك وعـدوّك، فبلغت فيه رضاك، فمكنّـي من أخيه، ثم أغْمِيَ عليه، وتفرّق مَن حضره، وفيها مات هارون الرشيد».

ذكر الخبر عن سبب وفاته والموضع الذي توفي فيه:

«ذُكـر عن جبريل بن بختيشوع أنه قال: كنت مع الرشيد بالرّقّة، وكنت أول مـن يدخل عليـه في كل غداة، فأتعرف في حاله في ليلته، فإن كان أنكر شيئـاً وصفه، ثم ينبسـط فيحدثني بحديث جواريه ومـا عمِل في مجلسه، ومقـدار شربه، وساعات جلوسه، ثم يسألني عـن أخبار العامة وأحوالها، فدخلـت عليـه في غداة يوم، فسلمت فلـم يكد يرفع طرفـه، ورأيته عابساً مفكـراً مهمومـاً، فوقفت بين يديـه مليّاً من النهار، وهـو على تلك الحال، فلما طال ذلك أقدمتُ عليه، فقلت: يا سيدي، جعلني الله فداك! ما حالك هكذا، أعلّة فأخبرني بها، فلعله يكون عندي دواؤها، أو حادثة في بعض مَنْ تحبّ، فذاك ما لا يُدفع ولا حيلة فيه إلا التسليم والغمّ، لا درك فيه، أو فَتْق ورد عليـك في مُلْكك، فلـم تخلُ الملوك من ذلك، وأنا أوْلى من أفضيت إليه بالخـبر، وتروّحت إليه بالمشورة، فقال: ويحك يا جبريل! ليس غمّي وكربي لشـيء مما ذكرت، ولكن لرؤيـا رأيتها في ليلتي هذه، وقد أفزعتني وملأت صـدري، وأقرحت قلبي، قلت: فرّجت عني يا أمـير المؤمنين، فدنوت منه، فقبّلـت رجله، وقلـت: أهذا الغم كله لرؤيا! الرؤيا إنمـا تكون من خاطر أو بخـارات رديئـة أو من تهاويل السوداء، وإنما هـي أضغاث أحلام بعد هذا كلـه، قال: فأقصّها عليـك، رأيت كأني جالس على سريـري هذا، إذ بدتْ

من تحتي ذراع أعرفها وكفّ أعرفها، لا أفهم اسم صاحبها، وفي الكفّ تربة حمراء، فقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التي تُدفن فيها، فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: بطوس، وغابت اليد وانقطع الكلام، وانتبهت فقلت: يا سيدي، هذه والله رؤيا بعيدة ملتبسة، أحسبك أخذت مضجعك، ففكرت في خراسان وحربها وما قد ورد عليك من انتقاض بعضها، قال: قد كان ذاك، قال: قلت: فلذلك خالطك الفكر في منامك ما خالطك، فولّد هذه الرؤيا، فلا تحفِل بها جعلني الله فداك! وأتبع هذا الغم سروراً، يخرجه من قلبك لا يولد علة، قال: فما برحت أطيب نفسه بضروب من الحيل، حتى سلا وانبسط، وأمر بإعداد ما يشتهيه، ويزيد في ذلك اليوم من لهوه، ومرت الأيام فنسيَ، ونسينا تلك الرؤيا، فما خطرت لأحد منا ببال، ثم قدر مسيره إلى خراسان حين خرج رافع، فلما صار في بعض الطريق، ابتدأت به العلة، فلم تزل تتزايد حتى دخلنا طوس، فنزلنا في منزل الجنيد بن عبد الرحمن في بستان له في ذلك القصر، إذ ذكر تلك الرؤيا، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط، فاجتمعنا إليه، كلّ يقول: يا سيدي، ما حالك؟ وما دهاك؟ فقال: يا جبريل، تذكر رؤياي بالرّقّة في طوس؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور، فقال: جئني من تربة هذا البستان، فمضى مسرور، فأتى بالتربة في كفه حاسراً عن ذراعه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتُها في منامي وهذه والله الكفّ بعينها، وهذه والله التربة الحمراء ما خرمت شيئاً، وأقبل على البكاء والنحيب، ثم مات بها والله بعد ثلاثة، ودفن في ذلك البستان».

من هذه الأقوال ولدت رواية شهرزاد

«فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له: صحار عمان، فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها، وهناك فيه غنم من بلاد عمان، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند، وتقصد إلى كولم مَلَى، والمسافة من مسقط إلى كولم مَلَى شهر على اعتدال الريح، وفي كولم مَلَى مسلحة لحماية الميناء والبلاد التي تحت حكمها، ومنها تؤدّي السفن ما يفرض عليها، فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن الأصغر ما بين عشرة دنانير إلى دينار... وبها يستعذبون الماء من آبار».

التاجر سليمان

فلما أيسوا من الربان ضجّوا بالبكاء والعويل وندب كل منهم شجوه، وصار الربّان إذا أمر مناديه أن ينادي رجاله بجذب حبل أو إرخائه يصلح شأن المركب، فلا تسمع الرجال ذلك من دويّ البحر وحسّ تلاطم الأمواج وهدير الرياح في القلوع والشراع والحبال وضجيج الخلائق، فأشرف المركب على التلف بعطلة الرجال وعدّة المركب من غير حادث عليهم من بحر أو ريح.

بزرك بن شهريار

ومن البحار الخبيثة الصعبة الشديدة التي تقلّ السلامة فيها بحر أغباب سرنديب وهو ثلاث مئة فرسخ، وفيه من التماسيح أمر عظيم، وفي ساحل هذا البحر النمور والبوارج الذين يقطعون هذا البحر، إذا ظفروا

بمركب أكلوا أهله وهم شرّ قوم، وليس في سائر الأماكن من يقطع البحار مثلهم، فالمركب الذي يقطع هذا البحر متى أخذوا البوارج أكلوا أهله، وإن غرق لم تمضِ عليه ساعة حتى يأكل أهله التماسيح، وإن انكسر بقرب البر وصعد أهله إلى الساحل قطعهم النمور في ساعة واحدة.

بزرك بن شهريار

(جزيرة جاوة وسومطرة)

في طريق العودة من الصين إلى الجاوة، ركب ابن بطوطة الجنك من مدينة لازيتون (تو- تونج) وسار به عشرة أيام بريح طيبة، ثمّ تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر، وأقاموا عشرة أيام لا يرون الشمس، ثم دخلوا بحراً لا يعرفونه، وجعلوا يضربون فيه أربعين يوماً لا يعرفون في أي البحار هم، «ولما كان في اليوم الثالث والأربعين ظهر لهم بعد طلوع الفجر جبل في البحر بينهم وبينه نحو عشرين ميلاً، والريح تحملهم إلى صوبه. فعجب البحرية وقالوا: لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا، فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجدّدوا التوبة، وابتهلوا إلى الله بدعاء، وتوسّلوا بنبيّه صلى الله عليه وسلم، ونذر التجار التصدّقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطّي، وسكنت الريح بعض سكون، ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر ضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذاك وبينه أقلّ من عشرة أميال، ثم إن الله تعالى منّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته، وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا إلى الجاوة ونزلنا إلى سومطرة».

● ●

سمع ماركو بولو في بلاط قبلاي خان إمبراطور الصين بحكاية الرّخ، وفهم ابن بطوطة من بحارة الجنك أن الغمامة السوداء التي ارتفعت عن الأفق بعد أن حسبوها جبلاً، كان طائر الرخ.

ابن بطوطة

«وذكروا أن عمر العنقاء ألف وسبع مئة سنة، وتتزاوج إذا أتى عليها خمس مئة سنة، فإذا حان وقت بيضها يظهر بها ألم شديد، فيأتي الذكر بماء البحر في منقاره، ويحقنها به فتخرج البيضة عنها، فيحضن الذكر، والأنثى تتمشّى وتصيد، ويفرخ البيض بمئة وخمس وعشرين سنة، فإذا كبر الفرخ فإن كان أنثى فالعنقاء الأنثى تجمع حطباً كثيراً، والذكر يوقد بمنقاره ناراً ويضرم ذلك الحطب، والأنثى تدخل تلك النار وتحترق، والفرخ يبقى زوج الذكر، وإن كان الفرخ فالعنقاء الذكر يفعل مثل ذلك ويبقى الفرخ زوج الأنثى».

القزويني

«ربما رئي في بحر هركند وبحر شلاهط سحاب أبيض يظلّل المركب فينشرع منة لسان طويل رقيق، حتى يلتصق ذلك اللسان بماء البحر فيغلي له ماء البحر مثل الزوبعة، فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته، ثم يرتفع ذلك السحاب مطراً فيه قذى البحر، فلا أدري أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا».

سليمان التاجر

ذكر لي جماعة من النَّاخُذَاة أنهم ربما رأوا في هذا البحر سحاباً أبيض قطعاً صغاراً يخرج منه لسان أبيض طويل، حتى يتّصل بماء البحر، فإذا

اتصل به غلا البحر لذلك وارتفعت منه زوابع عظيمة لا تمر زوبعة بشيء إلاّ أتلفته، ويمطرون عقب ذلك مطراً سهكاً فيه أنواع من قذى البحر».

المسعودي

شجرة الوقواق

«جزائر الوقواق من جملة قمير (أي بلاد كامبوجيا في الهند الصينية) وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كرؤوس الناس تصيح».

أبو الريحان البيروني

«الوقوقة نباح الكلب، والوقواق كثير الكلام، وهي بلاد فوق الصين يجيء ذكرها في الخرافات».

ياقوت الحموي

في كتاب «نخبة الدهر» ما يأتي: «وأما جزائر الوقواق الداخلة في المحيط فإنها خلف جبل أصطيقون بالقرب من ساحل البحر ويوصل إليها من بحر الصين.

والواق شجر صيني شبيه بشجر الجوز وخيار الشنبر، ويحمل حملاً كصورة الإنسان، فإذا انتهت الثمرة سمع السامع منها واقواق مرّات، ثم سقطت».

الدمشقي

«إن هناك شجراً كباراً له ورق مدوّر، ومنه ما هو إلى الطول، يحمل حملاً على مثال القرع، إلا أنه أكبر منه، وصورته صورة الناس، تحركه الرياح فيخرج منه صوت، وإن داخله منفوخ مثل حمل العشر، فإذا قطع

عن الشجرة خرجت الريح من ساعته وصار مثل الجلد، وإن بعض البانانية رأى الحمل فتعشّق صورة من الصور فقطعها؛ ليحملها معه فلما قطعها خرجت الريح منها فبقيت كالغراب الميت».

محمد بن بابشاد

● ●

إن جزائر الوقواق متصلة بالزابج، وهي ألف وسبع مئة جزيرة عامرة. والذهب بها كثير، ملكتهم اسمها دمهرة رآها عيسى بن المبارك السيرافي عريانة على سرير من ذهب، وبين يديها أربعة آلاف وصيفة أبكار حسان، وفي رؤوسهن أمشاط إلى عشرين مشطاً، وبهذه الجزائر شجر يحمل ثمراً كالنساء أجساماً وسيقاناً، صباح الوجوه، معلقات بشعورهن يخرجن من غلف كالأجربة الكبار، فإذا أحسسن بالهواء صحن: واق واق حتى تنقطع شعورهن، فإذا انقطعت سقطن أمواتاً، وقد رأى المسافرون بعض نساء تلك الأشجار أكبر من النساء، وأطول شعوراً، وأرشق قواماً وأطيب ريحاً. إذا قطعن شعورهن عشن يوماً أو أياماً، عرف الرحّالون بقربهن نعيماً لا مثيل له، وأرض الجزائر كثيرة الطيب، غنية بالذهب والأبنوس والطيور، لا يعرف ما بعدها سوى علاّم الغيوب.

ابن الوردي

«جزائر الذكور والإناث»: «ففي جزائر الذكور لا يسكن غير الرجال... يذهبون في شهر مارس إلى جزائر النساء حيث يقيمون ثلاثة أشهر مع زوجاتهم، ثم يعودون لتجارتهم وزراعتهم، وتستبقي الأمهات بناتهن. أما الذكور فيرسلون إلى الآباء عند بلوغهم سن الرابعة عشرة»، وهذه

هي الحكايـة التي رددها الدمشقـي والإدريسـي والقزويني وغيرهم من جغرافيـي العرب، ولو أنهـم اختلفوا في تحديد موضـع الجزائر، فهي آناً ببحـر فارس، وآناً إلى الجنوب من زنجبار، ومن قائل: إنها بأقصى شرق الصـين، أو هي في عرض البحر الأخضر فيما وراء بلاد الصقالبة، وربما كانت خوريا موريا.

ماركو بولو

من كتاب «عجائب الهند»: «فقد انتهينا من ذلك الحديث إلى أن وصل ركاب سفينة أبي الزهر إلى جزيرة بع أهوال، وجعلوا يطرحون على الرمال ويتمرغون على الأرض، شوقاً إليها.

ورد عليهـم نساء من داخل الجزيرة لا يحصـي عددهن إلا الله، فوقع علـى كل رجـل ألـف امـرأة أو أكثر، وحملنهـم إلى الجبـال، وهناك مات الرجال واحداً إثر واحد، إلا أبا الزهر البرختي فقد أنقذته واحدة منهن، وخبأتـه، وكانت تزوره وحدها في الليل، وتحمل له قوته وشرابه، والناخداة يدبـر وسيلة للسفر «بقارب المركب الذي يسمى الفوك»، فلما فطنت المرأة إلى ذلـك أخذت بيده وجاءت به إلى موضـع فنبشت في التراب بيدها عن معدن تبر، ونقلت هي وهو ما صبر به القارب، ثم أخذها معه وأسرى حتى عاد إلى بلاده، وأقامت المرأة معه حتى تنصحت وأسلمت ورزق منها أولاد وسألها عن نساء تلك الجزيرة وانفرادهن دون رجال، فقالت له:

«نحن أهل بـلاد وساعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة، ومسافة مابـين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها. وكل مـن في أقاليمنا ومدننا من الملوك يعبدون هذه النار التي تظهر لهم بالليل

في هـذه الجزيرة، ويسمونها بيت الشمس؛ لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقي، وتغرب في جانبها الغربي فيظنون أنها تبيت في هذه الجزيرة، فإذا أصبح وأشرقت الشمس من جانبها الغربي، خفيت نارها وماتت، وارتفعت الشمس فيقولون: هي هي، وإذا غربت في جانبها الغربي وأمسى ظهرت النار فيقولون: هي هي، فيعبدونها ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات، ثمّ إن الله جعل المرأة في بلدنا تلد أول بطن ذكراً، وثاني بطن اثنين، وكذلك بقية عمرها، فما أقل الرجال في بلادنا وأكثر النساء! فلما كثرن وأردن التغلب على الرجال صنعن لهم المراكب وحملوا منهم آلافاً وطرحوهم في هذه الجزيرة، وقالوا للشمس: يا ربهم، أنت أحق بما خلقت، وليس لنا بهم طاقة ومنذ ذلك الوقت ما سمعنا ولا مرّ بنا أحد من الناس غيركم، ولا يطرق بلادنا أحد على مرّ الأزمنة وبلادنا في البحر الأعظم تحت سهيل لا يقدر أحد أن يجيء إلينا فيرجع، ولا يجسر أحد أن يفارق الساحل والبرّ؛ خوفاً أن تشربه البحار».

أبو الزهر البرختي

(السودان)

«وحدثني بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة أن في بحر الحبشة سمكاً له وجه كوجه ابن آدم، وأجسامهم لها الأيدي والأرجل، وأن الصيادين المتغربين الفقراء، المتطرفين في أطراف السواحل المهجورة والجزائر والشعاب والجبال التي لا تسلك، المعالجين فيها طول أعمارهم، إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبني آدم اجتمعوا به، فتوالدوا بينهم نسلاً شبيهاً لبني آدم يعيش في الماء والهواء، وربما كان الأصل في هذا السمك من بني

آدم اجتمعـوا بجنس من أجناس السمك فتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبنـي آدم، ثم كذلك على مر الدهور والأزمنة، كمـا يجتمع الآدمي ببعض الوحشـ مثل الضبع والنمرة وغـيره من حيوان البرّ، فيتوالد بينهم القردة والنسانيس، وغير ذلك مما يشبه ابن آدم».

أبو محمد الحسن بن عمرو

الكوزموغرافيـة «عجائب المخلوقات»: قـال صاحب «تحفة الغرائب»: «بأرضـ الهنـد بحيرة مقـدار عشرة فراسـخ في مثلها، ماؤهـا ينبع من أسفلها، لا يأتيها شيء من الأنهار، وفي تلك البحيرة حيوانات على صورة الإنسـان، إذا كان الليـل خرج منها عدد كبير يلعبـون على ساحل البحر ويرقصـون ويصفقـون باليدين، ومنهم جـوارٍ حسنـاوات، ويخرج منها أيضا حيوانات على غير صورة الإنسان عجيبة الأشكال، والناس في الليلة القمـراء يقعدون من البعد وينظرون إليهـم، وكلما كان النظار أكثر كان الخارجـون أكثر، وربما جـاؤوا بالفواكه الكثيرة أكلوهـا وتركوا ما فضل منهـا علـى الساحل، وإن مات منهـم أحد أخرجوه مـن البحيرة وستروا سوأته بالطـين والناس يدفنونه، وما دام يبقى على الساحل لا يخرج من الماء أحد البتة».

القزويني

«وأقمت عند ملـك الخزر أياماً، ورأيت أنهـم اصطادوا سمكة عظيمة جداً وجذبوها بالحبال، فانفتـح أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمـراء طويلـة الشعر حسنة الصـورة، فأخرجوها إلى البـر وهي تضرب وجههـا وتنتـف شعرهـا وتصيـح، وقد خلـق الله تعالى في وسطهـا غشاء

كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبتيها كأنه إزار مشدود على وسطها، فأمسكوها حتى ماتت».

أبو حامد الأندلسي

«أهم جزر البحرين جزيرة أوال، وهي على مسيرة خمسين مرحلة من بر الفرس، وأربع مراحل من بر العرب، طولها ستة أميال في عرض ستة أميال... وحاضرة جزيرة أوال اسمها البحرين، وهي مدينة عامرة... وفي هذه الجزيرة يسكن غاصة اللؤلؤ، في المدينة التي يصل إليها التجار من جميع أنحاء الأرض ومعهم المال الوفير، ويترقبون شهوراً طوالاً موسم الغوص، ويستأجر التجار الغاصة مقابل جعل معلوم يتفاوت مع جودة الصيد واعتقاد التجار بمهارة الغاصة، ويكون الغوص في أغشت وشتنبر وقبل هذا إذا كانت المياه صافية، ويصطحب كل تاجر الغواص الذي اكتراه، وتخرج المراكب جماعة من الميناء فيما ينيف على مئتي دونج، وهي فلك أكبر من الفلك العادي يقسم التجار سطحها إلى خمس أو ست بلنجات منفصلة. ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه المصفى له نصيب في الكراء، ويخرج مع الغاصة أدلاء حذاق يعرفون المواضع؛ لأن للأصداف مواضع تغشاها، تذهب إليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها، فاذا خرج الغاصة من جزيرة أوال قادهم الدليل حتى إذا وصلوا إلى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر، فإذا وجد المكان مناسباً خرج وأمر بطيّ الشراع ورمي الأنابر، وكذلك تفعل بقية الدوانج، ويبدأ الغواصون في العمل.

الإدريسي

ومن عجائب ما سمعنا من أبواب الرزق أن أعرابياً ورد البصرة في قديم الأيام ومعه حبة لؤلؤ تساوي جملة مال، فصار بها إلى عطار كان

ألفه فأظهرها له وسأله عنها وهو لا يعرف مقدارها، فأخبره أنها لؤلؤة، فقال: وما قيمتها؟ قال: مئة درهم، فاستكثر الأعرابي ذلك، وقال: هل أحد يبتاعها مني كما قلت؟ فدفع له العطار مئة درهم فابتاع بها ميرة لأهله. واتخذ العطار الحبة فقصد بها مدينة السلام فباعها بجملة من المال، واتسع العطار في تجارته، فذكر العطار أنه سأل الأعرابي عن سبب اللؤلؤ، فقال: مررت بالعمان وهي من أرض البحرين بينها وبين الساحل مدينة قريبة، فرأيت في الرمل ثعلباً ميتاً، على فيه شيء قد أطبق عليه، فنزلت فوجدت شيئاً كمثل الطبق يلمع جوفه بياضاً، ووجدت هذه المدحرجة فيه فأخذتها، فظهر أن السبب في ذلك خروج الصدفة إلى الساحل تستنشق الريح، وذلك من عادة الصدف، فمر بها الثعلب فلما عاين اللحمة في جوفها وهي فاتحة فاها وثب بسرعة، فأدخل فاه في الصدفة وقبض على اللحمة فأطبقت الصدفة على فيه، ومن شأنها إذا أطبقت على شيء وأحست بيد تلمسها لم تفتح فاها بحيلة حتى تشق من آخرها بالحديد، ضناً منها باللؤلؤ وصيانة له، كصيانة المرأة لولدها، فلما أخذت بنفسه فمات وماتت، وظفر بها الأعرابي فأخذ ما فيها وساقه الله إلى العطار فصارت له رزقاً.

أبو زيد حسن السيرافي

في «نزهة المشتاق»: والمندب جبل يحيط به البحر من جميع جهاته، وطرفه الأعلى مما يلي الجنوب، ويمر إلى جهة الشمال مع تغريب يسير، وطوله نحو من اثني عشر ميلاً، وظهره مما يلي الحبشة، كله أقاصير وجزائر متصلة حتى ينتهي إلى زالغ وأقنت وباقطي، فلا يقدر أحد على

خوض هذا البحر من هذه الجهة، ووسط هذه الأقاصير والجزر يقوم جبل ممتد عرضاً حتى زالغ من ناحية الجنوب، ويعرف بجبل موروقين.

الإدريسي

إن بعض شيوخ الهند حدّث بسرنديب أن مركباً كسر له فسلم نفر من أهله في القارب، ووقعوا إلى جزيرة بقرب الهند، فبقوا بها إلى أن مات أكثرهم، وبقي منهم سبعة، وكانوا مدة مقامهم قد رأوا طيراً عظيماً يقع في الجزيرة ويرعى، فإذا كان وقت العصر طار فلم يدروا إلى أين يمضي، فأجمع رأيهم على أن يتعلق واحد منهم برجليه؛ ليحمله لما ضاقت صدورهم، وعلموا أنه لابد من الموت، وتعلقت نفوسهم بأمر الطائر، وإن كان يطرحهم بقرب بلد فهو الذي يتمنونه، وإن قتلهم فهو الذي يتوقعونه. فطرح واحد منهم نفسه بين الشجر، وجاء الطائر على الرسم فرعى، فلما جاء وقت انصرافه تلطّف الرجل في الدنو منه، وتعلّق آخذاً برجليه، وشد نفسه على ساقيه بقشور الشجر، فطار به في الهواء، وهو متعلّق بفخذيه، وجعل رجليه مشتبكة برجليه، فتبر بحراً وطرحه وقت غروب الشمس على جبل، فحلّ نفسه وسقط كالميت مما تعب وكلّ، ومرّ به وعاين من الأهوال. فمكث لا يتحرك إلى أن طلعت الشمس من غد، فقام ينظر فإذا راعي غنم فسأله بالهندية عن الموضع، فذكر قرية من قرى الهند وسقاه لبناً، فتحامل حتى دخل القرية، ولم يزل الطائر ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم في القرية، وتسببوا إلى النفوذ إلى بعض بلاد الهند التي يوجد فيها المراكب، وركبوا في مركب، وإنهم حدثوا بأمر مركبهم والجزيرة التي

وقعـوا إليها، ومقدار مسافة ما حملهم الطائـر إلى تلك القرية، فوجدوا زيادة على مئتي فرسخ.

أحمد بن علي بن منير الناخوذاة السيرافي

وبتلـك الجبال حيّـات عظام من أشد الحيّات سمومـاً، ويذهب التجار إلى تلك الجبـال ومعهم اللحوم يلقون بها في الأودية والهوات بين الجبال، فتأتـي نسـور بيضاء، وتنقضّ عليهـا، وتحملها إلى قنـاة الجبال، فيجري التجار ويتصايحـون، حتى تنفر الطيور، تاركة قطع اللحوم وقد علقت بها حجارة الماس».

ماركو بولو

في كتـاب «سي شي كي» وصف رحلته من منغوليا إلى غرب آسيا، حيث أرسلـه «مانجوخـان» إلى أخيه «هولاكو» في سنـة 1529م، بعد أن استولى الأمير التتري على بغداد، وقضي على آخر الخلفاء العباسيين:

«والماس يأتي من بلاد الهند، ويأخذ الناس اللحم ويلقون به إلى الأودية العظيمة، فتأتي الطيور وتأكل اللحم، ويوجد الماس بعد ذلك في روثها».

وجـاء في كتاب «عجائب الهند»: «حدثني بعض من دخل بلاد الهند أنه سمـع أن الماس الجيد النادر المرتفع يجلب مـن نواحي قشمير، وأن هناك واديـاً بين جبلـين فيه نار توقـد طول الدهر ليـلاً ونهاراً، وشتـاء وصيفاً، والألماس فيـه، وليس يطلبه إلا طائفـة من الهند سفلـة، يحملون أنفسهم علـى المهالـك، فيجتمع جماعـة منهم ويقصـدون هذا الـوادي ويذبحون الغنـم الهزلـة، ويقطعونها قطعـاً، ويقذفون بالقطعة بعـد القطعة في كفة منجنيـق يعملونـه، لأن التقرب مـن المواضع لا يمكنه لجهـات شتى، منها

أن وهج النار يمنع من ذاك، ومنها أن حول النار من الأفاعي والحيات ما لا يوصف، وفيها ما لا يمهل حتى يتلف، فإذا قذفوا باللحم انحدرت عليه النسور وهي كثيرة فتخطفه إن وقع بعيداً من النار فترفعه فإذا رأوا النسر قد أخذ اللحم اتبعوه حيث يمضي، ربما سقط من قطعة اللحم التي أخذها شيء من الألماس، وربما انحدر في موضع فيأكلها، فيجدون في ذلك الموضع الألماس، وربما سقطت قطعة اللحم في النار فتحترق، وربما وقع بعض الناس على قطعة لحم بقرب النار فيحترق ويشيط، وربما اختطفها النسر قبل وقوعها إلى الأرض حسب ما يتفق، فهكذا يؤخذ الألماس، وفي أكثر ما يتلف طالبه بالأفاعي والحيات والنار، وملوك الناحية يطلبون الألماس، ويشددون في الطلبة من يلتمسه، يفتشونهم أشد تفتيش لجلالة الألماس وعظم خطره».

تشانج تي

«والموضع الذي فيه الماس لم يصل إليه أحد، وهو وادٍ بأرض الهند لا يلحق البصر أسفله، وفيه الأفاعي التي لا يراها أحد إلا مات... وقيل: إن الإسكندر راقب وقت غيبتها، وألقى بالوادي قطع اللحم، فتشبثت بقطع الماس، وجاءت الطيور من الجو، وأخذت اللحم، وأخرجته من الوادي. فأمر الإسكندر باتباع الطير، والتقاط ما ينشر من ذلك اللحم...».

القزويني

«وبعد سرنديب (سري لانكا) جزيرة الرامي... وبها ناس عراة في غياض لا يفهم كلامهم؛ لأنه صفير، وهم صغار يستوحشون الناس، طول

الإنسان منهم أربعة أشبار... شعر رؤوسهم زغب أحمر، يتسلّقون الأشجار بأيديهم من غير أن يضعوا أرجلهم عليها».

ابن خردذابة

في «مروج الذهب»: «بحر الصين ويعرف ببحر صنخى، وهو بحر خبيث كثير الموج والخب، وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر... وذلك أن البحر إذا عظم خبه وكثر موجه ظهر منه أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار أو أربعة، كأنهم أولاد الأحابيش الصغار شكلاً واحداً وقداً واحداً، فيصعدون على المراكب ويكثر منهم الصعود من غير ضرر. فإذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة، فإن ظهورهم علامة الخب... وما ذكرنا فلا تناكر فيه عند أهل المراكب والتجار من أهل البصرة وسيراف وعمان وغيرهم ممن قطع البحار، وما ذكرناه عنهم غير ممتنع ولا واجب».

المسعودي

«وبجزيرة الزابج سكان شبه الآدميين، إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه. ولهم كلام لا يفهم، وبها أشجار، وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة».

القزويني. عن بيان الفقيه

«وفي هذا البحر (هركند) إذا ركب إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها وساعة لا تضبط، فيها جزيرة يقال لها: الرامني، بها عدة ملوك، وفيلة كثيرة، وفيها البقم والخيزران، وفيها قوم يأكلون الناس، وهي تشرع على بحرين: هركند وشلاهط، وبعد هذه الجزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق كثير عراة، الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر، فإذا مرت بهم المراكب جاؤوا إليها بالقوارب

الصغار والكبار بايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد... ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له: أندمان، وأهلهما يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعور، مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، قدم أحدهم مثل الذراع، عراة ليس لهم قوراب، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم. وربما أبطأت المراكب في البحر وتأخر بهم المسير بسبب الريح، فينفد ما في المركب من ماء، فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء، وربما أصابوا منهم، ويفلتون أكثر... ذكروا أن في جزيرة يقال لها: ملحان فيما بين سرنديب وكَلَه، وذلك من بلاد الهند في شرقي البحر، قوماً من السود عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكساً، وقطعوه وأكلوه نيئاً، وعدد هؤلاء كثير في جزيرة واحدة، وليس لهم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم شبيه بالغياض والآجام».

التاجر سليمان

فحادث جزيرة سكسار بالذات شبيه بما جرى للسندباد وأصحابه في رحلته الرابعة، وكلاهما وحادث الغول الأسود في الرحلة الثالثة قريب الشبه بما نورده تواً من كتاب «عجائب الهند»، وبما جاء في النشيد التاسع من «الأديسية» عن العمالقة العور «السيكلوبي» (Cyclopae).

حُكي أن رجلاً من أهل البصرة خرج منها قبل الزابج أو ما قاربه... فتخلص ووقع إلى جزيرة، قال: صعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة فواريت شخصي بين أوراقها وبتّ ليلتي، فلما أصبحت رأيت غنماً قد أقبلت نحو مئتي رأس في قدر العجاجيل، يسوقها رجل لم أر مثله، عظيم الخلقة، طويل، عريض، بشع المنظر، ومعه عصا يسوق بها الغنم.

فقعد على ساحل البحر ساعة، والغنم ترعى بين ذلك الشجر، ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نصف النهار، ثم قام فرمى نفسه في الماء واغتسل، وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز إلا أنها أعرض منه... ثم عاد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فيه ومصه إلى أن شرب ما فيه، ثم فعل ذلك بعدد من الغنم، ثم استلقى في ظل شجرة، ففي تأمله الشجرة وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها، فأخذ حجراً ثقيلاً ورمى الطائر فلم يكذب، فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب مني، فأومأ إلي بيده أن أنزل، فلخوفي منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفاً وجوعاً، وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض، فقدّرت أن وزن الطائر نحو مئة رطل، ثم نتف ريشه وهو حي يضطرب، وأخذ حجراً قدر عشرين رطلاً فضرب به رأسه، وتركه حتى مات ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه، ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع حتى أتى عليه ولم يُبق إلا عظامه.

بزرك بن شهريار الناخذاة

وجد السندباد أهل قمار يحرّمون الشراب والزنا، وأمر هذا مشهور في كتب الجغرافيا والرحلات العربية، «ملوك الهند وأهلها يبيحون الزنا ويحرّمون الشراب، إلّا ملك قِمار فإنه يحرم الزنا والشراب... وبقمار العود القماري... ومن قِمار إلى الصنف على الساحل مسيرة ثلاثة أيام. وبها العود الصنفي، وهو أفضل من القماري؛ لأنه يغرق في الماء لجودته».

«سرنديب ثمانون فرسخاً في ثمانين فرسخاً، وبها الجبل الذي هبط عليه آدم... وهو جبل ذاهب في السماء يراه من في مراكب البحر من

مسيرة أيام، فذكرت البراهمة، وهم عباد الهند، أن على هذا الجبل أثر قدم آدم مغموساً في الحجر، وهو نحو سبعين ذراعاً قدم واحدة، (يعتقد البراهمة حتى اليوم أن الأثر القائم على رأس ما يعرف في سيلان باسم Adames Peak هو أثر قدم براهما، رأس الثالوث البرهماني المقدس. كما ينسبه البوذيون إلى جوتاما ساكياموني الملقب بالبوذا، ويحجّ إليه المسلمون على أنه قدم أبي البشر).

وإن آدم خطا الخطوة الأخرى في البحر، وهو منه على مسيرة يومين أو ثلاثة، وعلى هذا الجبل وحوله الياقوت وألوانه كلها، والأشباه كلها، وفي واديه الماس، وعلى الجبل العود والفلفل والعطر والأفواه ودابة المسك ودابة الزباد وبسرنديب النارجيل، وأرضها السنباذج الذي يعالج به الجوهر. وفي أنهارها البلّور، وحولها في البحر غوص اللؤلؤ».

ابن خرداذبة

آثار البلاد وأخبار العباد

الْبَجّة

بلاد متصلة بأعلى عيذاب في غرب منه، أهلها صنف من الحبش، بها معادن الزمرد، يحمل منها إلى سائر الدنيا، ومعادنه في جبال هناك، وزمرّدها أحسن أصناف الزمرد الأخضر السّلْقي الكثير المائية، يُسقى المسموم منه فيبرأ، وإذا نظرت الأفعى إليه سالت حَدَقتُها.

جزيرة الرّامني

في بحر الصين، قال محمّد بن زكريّاء الرازي: بها ناس عراة لا يفهم كلامهم؛ لأنه مثل الصفير، طول أحدهم أربعة أشبار، شعورهم زغب أحمر، يتسلقون على الأشجار، وبها الكركدن وجواميس لا أذناب لها، وبها من الجواهر والأفاويه ما لا يحصى، وبها شجر الكافور والخيزران والبقّم وعروق هذا البقّم دواء من سمّ الأفاعي، وحمله شبه الخرنوب وطعمه طعم العلقم.

وقال ابن الفقيه: بها ناس عراة رجال ونساء على أبدانهم شعور تغطي سوأتهم، وهم أمة لا يحصى عددها، مأكولهم ثمار الأشجار، وإذا اجتاز بهم شيء من المراكب يأتونه بالسباحة مثل هبوب الريح، وفي أفواههم عنبر يبيعونه بالحديد.

الصين

بلاد واسعة في المشرق ممتدة من الإقليم الأول إلى الثالث، عرضها أكثر من طولها، قالوا: نحو ثلاث مئة مدينة في مسافة شهرين، وإنها كثيرة المياه، كثيرة الأشجار، كثيرة الخيرات، وافرة الثمرات، من أحسن بلاد الله وأنزهها، وأهلها أحسن الناس صورة وأحذقهم بالصناعات الدقيقة، لكنهم قصار القدود عظام الرؤوس، لباسهم الحرير، وحليهم عظام الفيل والكركدن، ودينهم عبادة الأوثان، وفيهم مانوية ومجوس، ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت للعبادات.

من عجائب الصين الهيكل المدوّر، قال المسعودي: هذا الهيكل بأقصى بلاد الصين وله سبعة أبواب، في داخله قبة عظيمة البنيان عالية السمك، وفي أعلى القبة شبه جوهرة كرأس عجل يضيء منها جميع أقطار الهيكل، وإن جمعاً من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة، فما تمكنوا من ذلك، فمن دنا منها قدر عشرة أذرع خر ميتاً، وإن حاول أخذها بشيء من الآلات الطوال، فإذا انتهت إليها هذا المقدار انعكست، وكذلك إن رمى إليها شيئاً، وإن تعرض أحد لهدم الهيكل مات، وفي هذا الهيكل بئر واسعة الرأس، من أكبّ عليها وقع في قعرها، وعلى رأس البئر شبه طوق مكتوب عليه: هذه البئر مخزن الكتب التي هي تاريخ الدنيا وعلوم السماء والأرض، وما كان فيها وما يكون، وفيها خزائن الأرض، لكن لا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا، فمن قدر عليه علمه كعلمنا، ومن عجز، فليعلم أنه دوننا في العلم.

والأرض التي عليها هذا الهيكل أرض حجرية عالية كجبل شامخ لا يُرام قلعه، ولا يتأتى نقبه، وإذا رأى الناظر إلى تلك الهيكل والقبة والبئر وحسن بنيتها، مال قلبه إليها وتأسف على فساد شيء منها.

ومـن عجائب الصين ما ذكر صاحب «تحفـة الغرائب» أن بها طاحونة يـدور حجرها السفلـي، والعلوي ساكن، ويخرج من تحـت الحجر دقيق لا نخالة فيه، ونخالة لا دقيق فيها، كل واحد منهما منفرد عن الآخر.

وبهـا قرية عندها غدير فيه ماء، في كل سنة يجتمع أهل القرية ويلقون فرساً في ذلك الغدير، والناس يقفون على أطرافه، كلما أراد الفرس الخروج مـن الماء منعوه، ومـا دام الفرس في الماء يأتيهم المطـر، فإذا أمطروا قدر كفايتهـم وامتلأ الغديـر، أخرجوا الفرس وذبحوه علـى قمة جبل، وتركوه حتى يأكله الطير، فإذ لم يفعلوا ذلك في شيء من السنين لم يمطروا.

وبأرض الصين الذهب الكثير والجواهر واليواقيت في جبل من جبالها، وبهـا مـن الخيرات الكثيرة مـن الحبوب والبقـول والفواكـه والسكر، وفي جزائرهـا أشجار الطيب كالقرنفل والدارصينـي ونحوها، قالوا: القرنفل تأتي بها السيول من جبال شامخة لا وصول إليها وبها من الهوام والحشرات والحيـات والعقارب شيء كثير، ولا تظهر بالصيف ملتفّة بأشجارها، تأكل من ثمارها وأوراقها وتظهر في الشتاء.

ولأهل الصين يـد باسطة في الصناعات الدقيقة، ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم، وأي شيء رأوه أخذوا عليه عيباً، ويقولون: أهل الدنيا، مـا عدانا، عُمْيٌ إلا أهل كابل، فإنهم عورا وبالغوا في تدقيق صنعة النقوش حتـى إنهم يصـورون الإنسان الضاحـك والباكي، ويفصلـون بين ضحك السرور والخجالة والشماتة، وإذا أراد ملكهم شيئاً من المتاع، يعرضه على أرباب الخبرة ولا يتركه في خزائنه إلا إذا وافقوا على جودته.

وحكي أن صانعاً اتّخذ ثوباً ديباجاً عليه صورة السنابل وقعت عليها العصافير، فعرضها الملك على أرباب الخبرة واستحسنوها إلا صانع واحد، قال: العصافير إذا وقعت على السنابل أمالتها، وهذا المصوّر عملها قائمة لا ميل فيها، فصدّقه الحاضرون وتعجبوا من دقة نظره في الصنعة.

ومن خواص بلاد الصين أنه قلما يرى بها ذو عاهة كالأعمى والزمن ونحوهما، وأن الهرة لا تلد بها.

وقال محمد بن أبي عبد الله: رأيت في غياض الصين إنساناً يصيح صياح القردة، وله وبر كوبر القرد، ويداه تنالان ساقيه إذا بسطهما قائماً. ويكون على الأشجار يثب من شجرة إلى شجرة وبينهما عشرة أذرع.

وقال ابن الفقيه: بالصين دابة المسك، وهي دابة تخرج من الماء في كل وقت معلوم، فيصطاد منها شيء كثير، وهي شديدة الشبه بالظباء، فتذبح ويؤخذ الدم من سرّتها، وهو المسك، ولا رائحة له هناك حتى يحمل إلى غيرها من الأماكن.

وبها الغضائر الصيني التي لها خواص، وهي بيضاء اللون شفافة وغير شفّافة، لا يصل إلى بلادنا منها شيء، والذي يباع في بلادنا على أنه صيني معمول بلاد الهند، بمدينة يقال لها: كولم، والصيني أصلب منه وأصبر على النار، وخزف الصين أبيض، قالوا: يترشح السمّ منه، وخزف كولم أدكن.

وطرائف الصين كثيرة: الفرند الفائق والحديد المصنوع الذي يقال له: طاليقون، يشترى بأضعافه فضة، ومناديل الغَمَر من جلد السمندل، والطواويس العجيبة، والبرادين الغُرّة التي لا نظير لها في البلاد.

جزيرة سكسار

جزيرة بعيدة عن العمران في بحر الجنوب، حكى يعقوب بن إسحاق السرّاج قال: رأيت رجلاً في وجهه خموش، فسألته عن ذلك، فقال: خرجنا في مركب فألقتنا الريح إلى جزيرة لم نقدر أن نبرح عنها، فأتانا قوم وجوههم وجوه الكلاب وسائر بدنهم كبدن الناس، فسبق إلينا واحد ووقف الآخرون فساقنا إلى منازلهم، فإذا فيها جماجم الناس وسوقهم وأذرعهم، فأدخلنا بيتاً فإذا فيه إنسان أصابه مثل ما أصابنا، فجعلوا يأتوننا بالفواكه والمأكول، فقال لنا الرجل: إنما يطعمونكم؛ لتسمنوا فمن سمن أكلوه، قال: فكنت أقصّر في الأكل حتى لا أسمن، فأكلوا الكل وتركوني وذاك الرجل؛ لأني كنت نحيفاً والرجل كان عليلاً، فقال لي الرجل: قد حضر لهم عيد يخرجون إليه بأجمعهم ويمكثون ثلاثاً، فإن أردت النجاة فانجُ بنفسك! وأما أنا فقد ذهبت رجلاي ولا يمكنني الذهاب، واعلم أنهم أسرع شيء طلباً وأشد اشتياقاً وأعرف بالأثر، إلا من دخل تحت شجرة كذا، فإنهم لا يطلبونه ولا يقدرون عليه، قال: فخرجت أسير ليلاً، وأكمن في النهار تحت الشجرة، فلما كان اليوم الثالث رجعوا، وكانوا يقصون أثري، فدخلت تحت الشجرة، فانقطعوا عني ورجعوا فأمنت.

حكى الرجل المخموش، وقال: بينما أنا أسير في تلك الجزيرة إذ رفعت لي أشجار كثيرة فانتهيت إليها، فإذا بها من كل الفواكه، وتحتها رجال: أحسن ما يكون صورة، فقعدت عندهم لا أفهم كلامهم ولا يفهمون كلامي، فبينا أنا جالس معهم إذ وضع أحدهم يده على عاتقي، فإذا هو على رقبتي ولوى رجليه علي وأنهضني، فجعلت أعالجه؛ لأطرحه فخمشني

في وجهي، فجعلت أدور به على الأشجار وهو يقطف ثمرها يأكل ويرمي إلى أصحابه وهم يضحكون، فبينا أنا أسير به في وسط الشجار إذ أصاب عينيه عيدان الأشجار فعمي، فعمدت إلى شيء من العنب وأتيت نقرة في صخرة عصرته فيها، ثم أشرت إليه أن اكرع فكرع منها، فتحلّلت رجلاه فرميت به، فأثر الخموش من ذلك في وجهي.

ظَفارِ

مدينة قرب صنعاء كان بها مسكن ملوك حمير، وفيها قيل: من دخل ظفار حمّر أي تكلم بالحميرية، وسببه أنه دخل رجل من العرب على ملك من ملوك حمير، وهو على موضع عالٍ، فقال له الملك: ثِب، فوثب الرجل من العلو فانكسرت رجله، ومعنى ثِب بالحميرية: اقعد، فقال الملك: ليس عندنا عربية، من دخل ظفار حمّر.

ينسب إليها الجزع الظفاري الجيد، وحكي أنه مكتوب على سور ظفار على حجر منها بقلم الأوائل: يوم شيدت ظفار قيل: لمن أنت؟ قالت: لحمير الأخيار! ثم سُئلت بعد ذلك، فقالت: للأحْبُش الشرار! ثم سئلت بعد ذلك، فقالت: للفرس الأخيار! ثم سئلت بعد ذلك، فقالت: لقريش التجار! ثم سئلت بعد ذلك، فقالت: لحمير سنجار، وقليلاً ما يلبث القوم فيها ثم يأتيهم البوار، من أسود يلقيهم في البحر، ويشعل النار في أعلى الديار.

وبها اللبان الذي لا يوجد في الدنيا إلا في جبالها، وإنه غلّة لسلطانها، وإنّه من شجر ينبت في تلك المواضع مسيرة ثلاثة أيام في مثلها، فيأتيها أهل ظفار ويجرحون أشجارها بالسكين فيسيل منها اللبان، فيجمعونه ويحملونه إلى ظفار، فيأخذ السلطان قسطه ويعطيهم الباقي.

عُمَان

كورة على ساحل بحر اليمن في شرقي هَجَر، تشتمل على مدن كثيرة، سُمِّيت بعمان بن بغان بن إبراهيم الخليل، عليه السلام، والبحر الذي يليه منسوب إليه يقال: بحر عُمَانَ.

روى ابن عمر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إني لأعلم أرضاً من أرض العرب يقال لها عمان على شاطئ البحر، الحجّة منها أفضل أو خير من حجتين من غيرها».

وعن الحسن البصري هو المراد من قوله تعالى: ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج: ٢٧)، يعني من عمان، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان». وأما حرّها فممّا يضرب به المثل.

بها اجتماع الخوارج الإباضية في زماننا هذا، وليس بها من غير هذا المذهب إلا غريب، وهم أتباع عبد الله بن إباض الذي ظهر في زمن مروان ابن محمّد، آخر بني أمية، وقد قتل وكفي شره.

وحكى ابن الأثير في تاريخه: أنه في خمس وسبعين وثلاث مئة خرج بعمان طائر من البحر أكبر من فيل، ووقف على تلّ هناك وصاح بصوت عال ولسان فصيح: قد قرب! قد قرب! قد قرب! ثم غاص في البحر، فعل ذلك ثلاثة أيام، ثم غاب ولم يُرَ بعد ذلك.

تكناباذ

ناحية من أعمال قندهار، في جبالها حجر إذا ألقي على النار ونظر إليه شيء من الحيوان، ينتفخ بدنه حتى يصير ضعف ما كان.

حكى لي الأمير حسام الدين المؤيّد نعمان أن تلك الخاصية في المرة الأولى كراكب البحر، فإنه في المرة الأولى يغشاه الدوار والغثيان، وبعد ذلك لا يكون شيء من ذلك.

وقال الأمير أبو المؤيد: حضرت عند بعض الأمراء بتلك الديار، فأحضر عندنا مجمرة عليها عود، فرأيت وجه من كان قاعداً عندي انتفخ وشخصت عيناه وتغيّر عليه الحال وتهوّع، فأمر أم المثوى بإزالة المجمرة متبسّماً، فرجع صاحبي إلى حاله! قلت له: ما الذي دهمك، فإني رأيت منك على صفة كذا؟ فقال لي: وأنا أيضاً رأيت منك مثل ما رأيت مني، فأخبرتنا أمّ المثوى أن هذا من خاصية هذا الحجر، أردت أن أريكم شيئاً عجيباً.

جزيرة برطاييل

جزيرة قريبة من جزائر الزانج، قال ابن الفقيه: سكانها قوم وجوههم كمجان المطرَّقة، وشعورهم كأذناب البراذين، وبها الكركدن، وبها جبال يسمع منها بالليل صوت الطبل والدف والصياح المزعجة، والبحريّون يقولون: إن الدجال فيها ومنها يخرج.

وفيها القرنفل ومنها يُجلب، وذلك أن التجّار ينزلون عليها ويضعون بضائعهم وأمتعتهم على الساحل، ويعودون إلى مراكبهم ويلبثون فيها، فإذا أصبحوا ذهبوا إلى أمتعتهم؛ ليجدوا إلى جانب كل شيء من البضاعة شيئاً من القرنفل، فإن رضيه أخذه وترك البضاعة، وإن أخذوا البضاعة والقرنفل لم تقدر مراكبهم على السيْر، حتى يردّوا أحدهما إلى مكانه، وإن طلب أحدهم الزيادة فترك البضاعة والقرنفل فيزاد له فيه.

وحكى بعض التجار أنه صعد هذه الجزيرة فرأى فيها قوماً مرداً وجوههم كوجوه الأتراك، وآذانهم مخرّمة ولهم شعور على زيّ النساء، فغابوا عن بصره، ثمّ إن التجار بعد ذلك أقاموا يتردّدون إليها ويتركون البضائع على الساحل، فلم يخرج إليهم شيء من القرنفل، فعلموا أن ذلك بسبب نظرهم إليهم، ثم عادوا بعد سنين إلى ما كانوا عليه.

ولباس هذا القوم ورق شجر يقال له: اللوف، يأكلون ثمرتها ويلبسون ورقها، ويأكلون حيواناً يشبه السرطان، وهذا الحيوان إذا أخرج إلى البرّ صار حجراً صلداً، وهو مشهور يدخل في الأكحال، ويأكلون السمك والموز والنارجيل والقرنفل، وهذا القرنفل من أكله رطباً لا يهرم ولا يشيب شعره.

الإقليم الثالث

أوله حيث يكون الظلّ نصف النهار إذا استوى الليل والنهار ثلاثة أقدام ونصف وعشر، وسدس عشر قدم، وآخره حيث يكون ظل الاستواء فيه نصف النهار أربعة أقدام ونصفاً وعُشْرَيْن وثلاثة عشر قدماً، وهو يبتدئ من المشرق فيمرّ على شمال بلاد الصين ثم الهند ثم السند، ثم كابل وكرمان وسجستان وفارس والأهواز، والعراقين والشام ومصر والإسكندرية وبرقة وإفريقية وينتهي إلى حد البحر المحيط، وأطول نهار هؤلاء في أول الإقليم ثلاث عشرة ساعة ونصف وربع، وفي وسطه أربع عشرة ساعة، وفي آخره أربع عشرة ساعة وربع، وطوله من المشرق إلى المغرب ثماني مئة ألف وسبع مئة وأربعة وسبعون ميلاً وخمس وأربعون دقيقة، وتكسيره مساحة ثلاث مئة ألف ألف وستة آلاف وأربع مئة وثمانية وخمسون ميلاً وتسع وعشرون دقيقة، ولنذكر بعض بلاده مرتباً على حروف المعجم.

قصر شِيرينَ

بين بغداد وهمذان في فضاء من الأرض على طرف نهر جار، بناها كسرى أبرويز لشيرين وهي خطيبة كانت له من أجمل خلق الله تعالى، والفرس يقولون: كان لكسرى أبرويز ثلاثة أشياء لم تكن لملك قبله ولا بعده: خطيبته شيرين، ومغنّيه بلهبد، وفرسه شبديز، وقصر شيرين باقٍ إلى الآن، وهي أبنية عظيمة شاهقة وإيوانات عالية وعقود وقصور وأروقة ومتشرفّات، واختلفوا في سبب بنائه: ذكر في كتب العجم أن شيرين كانت من بنات بعض ملوك أرمن، وكانت أجمل خلق الله صورة، ذُكرت لكسرى أبرويز وكان مشغوفاً بالنساء، فبعث إليها من خدعها فهربت على ظهر شبديز، فلما وصلت إلى العراق وكان كسرى غائباً، فرأتها أزواج كسرى وولائده، علمن أن كسرى يختارها عليهن، فأخذتهن من الغيرة ما يأخذ الضرّات، فاخترن لها أرضاً سبخة وهواء رديّاً وقلن: إن الملك أمرنا أن نبني لك ها هنا قصراً. وهي موضع قصر شيرين على طرف نهر عذب الماء.

وحكي أن شيرين كان تحب اللبن والحليب، وكان القصر بعيداً عن مرعى المواشي فإلى أن حُمل إلى القصر زالت سخونته، فطلبوا الحيلة في ذلك فاتفق رأيهم على أن يتخذوا جدولاً حجرياً من المرعى إلى القصر، فطلبوا صانعاً يعمل ذلك، فدُلّوا على صانع اسمه فرهاذ، فطلبت اتخاذ جدول مسافته فرسختان من المرعى إلى القصر على أن يأتي اللبن منها إلى القصر بسخونته، وكان القصر على نشز من الأرض والمرعى في منحدر، فاتخذ حائطاً طوله أكثر من فرسخين وارتفاعه عند المرعى عشرون ذراعاً، وعند القصر مساوياً لأرضه، وركب على الحائط جدولاً حجرياً، وغطى رأسه بالصفائح الحجرية، واتخذ عند المرعى حوضاً كبيراً، وفي

القصر أيضاً مثله، وهذا كله باقٍ إلى زماننا، رأيته عند اجتيازي به لاشك في شيء منه.

وذكر محمد الهمذاني أنه كان سبب بناء قصر شيرين، وهو أحد عجائب الدنيا، أن كسرى أبرويز، وكان مقامه بقرميسين، أمر أن يبنى له باغ فرسخين في فرسخين، وأن يجعل فيه من الطيور والوحوش حتى تتناسل فيه، ووكل بذلك ألف رجل أجرى عليهم الرزق حتى عملوا فيه سبع سنين، فلما تم، نظر إليه الملك وأعجبه، وأمر للصنّاع بمال، فقال في بعض الأيام لشيرين: سليني حاجة، فقالت: أريد أن تبني لي قصراً في هذا البستان لم يكن في ملكك لأحد مثله، وتجعل فيه نهراً من حجارة يجري فيه الخمر! فأجابها إلى ذلك ونسي، ولم تجسر شيرين على أن تذكره به، فقالت للبلهبد المار ذكره: حاجتي في غناء، ولك ضيعتي التي بأصفهان! فأجابها إلى ذلك وعمل شعراً وصوتاً في ذلك، فلما سمع كسرى قال له: لقد ذكرتني حاجة شيرين، فأمر ببناء القصر وعمل النهر فبني على أحسن ما يكون وأتقنه، ووفت شيرين للبلهبد بالضيعة فنقل إليها عياله، وله نسل بأصفهان ينتمون إلى بلهبد.

ودخل بعض الشعراء قصر شيرين فرأى تلك العمارات الرفيعة، ورأى إيوان شيرين وصورتها وصورة جواريها على الحائط، فقال:

يا طالبي غُرَر الأماكن
حيُّوا الدّيارَ بِبرْزَمَاهِنْ
وَسَلوا السّحابَ تجُودُها
وتَسحُّ في تلكَ الأماكِنْ

واهـــاً لشيريـــن التـــي
قَرَعَـت فُـؤادك بالمحاسن

واهـــاً لِمِعْصَمِهـــا المليـــحِ
وللــسّوالِــفِ والمغــابـن!

في كفّهــا الــوَرَقُ المُمَسّــكُ
والمُـــطـيّــبُ والمَـــدَاهن

وزُجاجـــةٌ تَـــدَعُ الحكيـــمَ
إذا انْتَشــى في زيّ ماجِــنْ

وشُغِفــتُ حـيـنَ رأيْتُهـــا
واهتــاج منــي كلّ ساكـنْ

فسقـــى رِبــاعَ الكِسْرويّـــةِ
بالــجبــالِ وبالمـــدائِنِ

دانٍ يســفُّ ربابــه
وتنالُــهُ أيــدي الحواضِــنْ

الإقليم الخامس

أولــه حيث يكون الظلّ نصــف النهار إذا استوى الليـل والنهار، خمسة أقــدام وثلاثة أخماس قــدم وسدس خمس قدم، وآخــره حيث يكون الظل نصــف النهار شرقاً أو غربــاً ستة أقدام، ونصف عشر وسدس عشر قدم، ويبتــدئ من أرض الترك المشرقين ويمرّ على أجناس الترك المعروفين إلى كاشغر وفرغانة وسمرقند وخوارزم وبحر الخزر إلى باب الأبواب وبرذعة وإلى ميّافارقين وأرمينية وبلاد الروم.

وأطـول نهار هؤلاء في أول الإقليم أربـع عشرة ساعة ونصف وربع، وفي أوسطـه خمسـن عشرة ساعـة، وفي آخره خمس عشرة ساعـة وربع، وطول وسطـه من المشـرق إلى المغرب سبعـة آلاف ميل وست مئـة وسبعون ميلاً وبضـع عشرة دقيقة، وعرضه مئتان وأربعة وخمسون ميلاً وثلاثون دقيقة، ومساحتها مكسر ألف ألف وثمانية وأربعون ألفاً وخمس مئة وأربعة وثمانون ميلاً واثنتا عشرة دقيقة، ولنذكر أحوال بعض المدن الواقعة فيه مرتبة على حروف المعجم:

الروم

بلاد واسعة من أنزه النواحي وأخصبها وأكثرها خيراً، وعجائب ذكرت في مواضعها، مياهها أعذب المياه وأخفّها، وهواؤها أصحّ الأهوية وأطيبها، وترابهـا أطيب الأتربة وأصحها، ومن خواصّها نتاج الدوابّ والنعم، وليس في شيء من البلاد مثل مائها يحمل منها إلى سائر الآفاق، وكذلك أصناف الرقيق من الترك والروم.

وأهلها مسلمون ونصارى، وشتاؤها يضرب المثل به حتى وصفه بعضهم، فقال: الشتاء بالروم بلاء وعذاب وعناء! يغلظ فيها الهواء ويستحجر الماء، تـذوي الوجوه وتعمش العيون وتسيل الأنوف وتغير الألوان وتقشف الأبدان، وتميت كثـيراً من الحيوان، أرضها كالقوارير اللامعـة وهواؤها كالزنابير اللاسعة، وليلها يحول بين الكلب وهريره والأسد وزئيره، والطير وصفيره، والماء وخريره، ويتمنّى أهلها من البرد الأليم دخول حر الجحيم!

وبـلاد الروم بـلاد واسعة ومملكة عظيمة، ولبعدهـا عن بلاد الإسلام وقوة ملكها بقيت علـى كفرها كما كانت، وإنه إحدى معجزات رسول الله،

صلى الله عليه وسلم، أنه قال: أما فارس فلا نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعدها! وأما الروم فإنها ذات قرون كلما مرّ قرن يخلفه قرن آخر!

وأهل الروم سكان غربي الإقليم الخامس والسادس، ولبرد بلادهم ودخولها في الشمال ترى الغالب على ألوانهم البياض، وعلى شعورهم الشقرة، وعلى أبدانهم الصلابة، والغالب على طبعهم مباشرة اللهو والطرب؛ لأن المنجّمين زعموا أن الروم تتعلق بالزهرة.

وحكي أن أهل الروم كانوا لا يملّكون إلا من كان أكثرهم عقلاً وأوفرهم علماً وأصحّهم بدناً، وإذا اختل منه شيء من هذه ملكوا غيره وعزلوه، وكانوا على هذا إلى أن أصاب ملكهم آفة فهمّوا بعزله، فقال الملك: اصبروا عليّ زماناً فإن داويت مرضي فأنا أولى من غيري، وإلا فافعلوا ما شئتم! فذهب إلى بلاد الشام؛ ليتداوى بحمّة كانت بها، فرأى الملّة النصرانية قد ظهرت بها، فأخذ جمعاً من القساوسة والرهبان ورجع بهم إلى الروم، ودعا الناس إلى الملة النصرانية ولم يزل يجيب قوم بعد قوم حتى صاروا أمة واحدة.

وحكي عن أهل الروم أنهم يتخذون صور الملوك والحكماء والرهبان، يستأنسون بها بعد موتهم، ولهم في التصوير يد باسطة؛ حتى يصوّروا صورة الإنسان ضاحكاً وباكياً، وصورته مسروراً وصورته حزيناً.

وحكي أن مصوّراً دخل بلداً ليلاً ونزل بقوم فضيفوه، فلما سكر قال: إني صاحب مال ومعي كذا وكذا ديناراً، فسقوه حتى طفح وأخذوا ما كان معه وحملوه إلى موضع بعيد منهم، فلما أصبح، وكان غريباً لم يعرف القوم

ولا المكان، ذهب إلى والي المدينة وشكا، فقال له الوالي: هل تعرف القوم؟ قال: لا، قال: هل تعرف المكان؟ قال: لا، قال: فكيف السبيل إلى ذلك؟ فقال الرجل: إني أصوّر الرجل وصورة أهله فأعرضها على الناس؛ لعلّ أحداً يعرفهم ففعل ذلك وعرض الوالي على الناس، فقالوا: إنها صورة فلان الحمامي وأهله، فأمر بإحضاره فإذا هو صاحبه فاستردّ منه المال.

ويقام بالروم سوق كل سنة أول الربيع أربعين يوماً يقال لذلك السوق: «بَيَلُه» يأتيه الناس من الأطراف البعيدة من الشرق والغرب والجنوب والشمال. والتجار يجهدون غاية جهدهم؛ حتى يدركوا ذلك السوق، فمتاع أهل الشرق يشتريه أهل المغرب وبالعكس، ومتاع أهل الشمال يشتريه أهل الجنوب وبالعكس، ويقع فيه من المماليك والجواري التركية والرومية، ومن الخيل والبغال الحسنة، ومن الثياب الأطلس، ومن السقلاّط ومن الفراء الفندر وكلب الماء والبرطاس، ويدلسون تدليسات عجيبة، ومن عادة هذا السوق أن من اشترى شيئاً فلا يردّه البتّة، وحكي أن بعض التجار اشترى مملوكاً حسن الصورة بثمن بالغ، فلما غاب عنه بائعه وجده جارية مستحسنة!

وبها الخانات على طرق القوافل على كل فرسخ خان، بنتها بنات السلاطين للثواب، فإن البرد بالروم ثمانية أشهر والثلج كثير، والقفل لا ينقطع في الثلج، فيمشون كل يوم فرسخاً وينزلون في خان من الخانات، ويكون فيه من الطعام والشعير والتبن والحطب والبذر والإكاف والنعال والمنقل، وإنها خير عظيم لم يبن مثلها في شيء من البلاد.

ومن خواص الروم أن الإبل لا تتولد بها، وإذا حُملت إليها تسوء حالها وتتلف، بها جبل أولستان، في وسط هذا الجبل شبه درب فيه دوران، من

اجتاز فيه، وفي حـال اجتيازه يأكل الخبز بالجبن، ويدخل من أوله ويخرج مـن آخره لا يضرّه عضة الكلب الكلِب، وإن عضّ إنساناً غيره فعبر من بين رجلي المجتاز يأمن أيضاً غائلته. وهذا حديث مشهور في الروم.

وبـه عين النار بين أقْشَهْر وأنطاكيـة، إذا غمست فيه قصبة احترقت. حدثنـي من شاهدها أنه قد ذكر ذلك للسلطان علاء الدين كيخسرو عند اجتيازه بها، فوقف عليها وأمر بتجربتها، فكان الأمر كما قالوا.

الفهرس

مدخل 7

عبد الله محمد البصري ابن «ذي القلم» 13

مثل حسام ممتشق 27

سميناها العنقاء 49

السيد الكبير وبحره 61

الجندب رحَّال 69

فإنهم لا يؤتمنون 77

الرحلة إلى سرنديب 81

عند جبل سيدنا آدم 83

وشي اليمن وسلجم خراسان وفرش سنجردي 101

الإعصار أو التنين 107

غاب الشيخ وتزوجت ليلى 113

امرأة من قِمار وحكيم من الصين 117

مئة مظلة من الذهب 127

الأمير الطيّب يحب رعاياه 133

خطاف العصافير 145

كما روتها شهرزاد 151

رحلة إلى إفريقيا والسودان 155

واسجماه 161

الرخ الرخ! 167

شجرة الشفاء 181

من هذه الأقوال ولدت رواية شهرزاد 203

آثار البلاد وأخبار العباد 221